مِنْ هُدى القرآن

١٨

تفسير سور

الطارق إلى الناس

تأليف
آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سورة الطارق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ــ عليه السـلام ــ قـال : «**من كـانت قراءته في فرائضه بالســماء والطــارق كـانت له عند الله يــوم القيامة جاها ومنزلة ، وكـان من رفقـاء النبـيين وأصـحابهم في الجنة**»

نور الثقلين/ ج 5ص 549

الإطار العام

لكي يتسع قلب الإنســـان للحقـــائق الكـــبرى فيعيها ويتكيف معها يرغّبه الــوحي في النظر والتفكر في آفــاق الســماء وما فيها من النجــوم الثاقبة والشــهب الطارقة ، وفي أغوار النفس وما انطوت عليه من عالم كبــير ، وفي نشـــأته الأولى حيث خلق من مـــاء دافق يخـــرج من بين الصلب والترائب ، ومصــيره الأخــير حيث يواجه اعماله بلا حجاب ولا قوة ولا ناصر.

ولكي لا يتهــرب البشر من الحقــائق العظيمة ، كواقع الرجع والحســـاب بتكـــذيب الرســـالة أو تأويل انبائها بما يتناسب واللامسؤولية ، يــذكّره الــوحي بــأنّ القــرآن قــول فصل ، وليس بــالهزل .. وينــذر المكــذّبين والكــافرين بــأنّ الله يكيد لهم كيـــدا ، ولكنّ يمهلهم ، وأنت أيّها الإنســـان اصبر وامهلهم رويدا.

سورة الطارق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**وَالسَّــماءِ وَالطَّارِقِ (1) وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (**
2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (
4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِـقٍ
(6) يَخْــرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّــلْبِ وَالتَّرائِبِ (7) إِنَّهُ عَلى
رَجْعِهِ لَقادِرٌ (8)

---

1 [والطـارق] : هو النجم الـذي يطـرق بضـيائه آفـاق السـماء ، يقـال : طرقني فلان إذا أتـاني ليلا ، وأصل الطـرق الـدق ، ومنه المطرقة لأنّها يـدقّ بها ، والطريق لأنّ المـارّة تدقّه ، والطـارق : الآتي ليلا يحتـاج إلى الدقّ.

6 [دافق] : الدفق صبّ الماء الكثير باعتماد قوي ، ومثله الدفع ، وجــاء في مفردات الراغب : ماء دافق : سائل بسرعة.
هكذا ماء الرجل يتدفّق ويتصبّب في رحم المرأة بقوّة وبسرعة.

7 [الترائب] : هي ضلوع الصدر.

يَوْمَ تُبْلَى السَّـرائِرُ (9) فَما لَـهُ مِنْ قُـوَّةٍ وَلا ناصِـرٍ (10) وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَما هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (15) وَأَكِيدُ كَيْداً (16) فَمَهِّلِ الْكـافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (17))

---

9 [تبلى الســـرائر] : أي تظهر ، يقـــال بلي الثـــوب أي خلق ، وبلوته اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختباري له ، ويوم القيامة تختبر السرائر حتى يظهر خيرها من شرها.

11 [الرجع] : المطر لأنّه يجيء ويرجع ويتكرر.

12 [الصــدع] : هو الشق فصــدع الأرض انشــقاقها بالنبــات وضــروب الزروع والأشجار.

إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَما هُوَ بِالْهَزْلِ

بينات من الآيات :

(1) أرأيت النجم الذي يطرق بنوره الثاقب في عرض السماء! أرأيته كيف يدفع الله به شـرّ إبليس وجنـوده عن السماء وأهلها والأرض وسكّانها! إنّه مثل واحد لحفظ الله ، فقسما به وبالسماء التي يحفظها : إنّ الله هو الحفيظ ، ولولاه لما استطاع الإنسان أن يعيش لحظة ولا غـيره من الأحياء.

(**وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ**)

قـالوا : الطـرق يعـني الـدق ، وإنّما سـمّي السـبيل طريقا لأنّ الإنسـان يـدقّ عليه برجله ، وزائر الليل سـمّي طارقا لأنّه بحاجة إلى دقّ الأبواب لتفتح ، ولعلّ كـلّ قـادم تسمّيه العرب طارقا لأنّه هو الآخر يـدقّ الأبـواب باعتبـاره غريبا عن المنطقة.

والقسم بالسـماء وما يطـرق فيها من النجـوم الثاقبة يستثير عقل الإنسـان ، ويسـتقطب اهتمامه ، وينفض عن قلبه غبار الغفلة والسبات .. وبالذات حين

يكـون القسم بالسـماء البعيـدة عن متنـاول أيـدينا وعن مرامي فكرنا ، وبالطـارق الـذي يخشـاه الإنسـان ، فليس كلّ طارق يطرق بخير.

وقد قال الشاعر :

يا راقد الليل مسرورا بأوّله	إنّ الحــوادث قد يطــرقن أســحارا
لا تفـرحنّ بليل طـاب أوّله	فــربّ آخر ليل أجّج النــارا

وحين يرتفع الإنســان إلى أفق التفكــير والتــدبر في آيات الله في السماء والأرض يقترب من معرفة الحقـائق الكـبرى ، بينما الـذي يعيش في زنزانة مشـاكله اليومية ، وهـواجس نفسه ووسـاوس قلبه ، فإنّه يحـرم التفكّر في الآفاق ، ويحرم بالتالي بولغ الحقائق.

ولعـلّ هـذا من أهـداف القسم في القـرآن : الارتفـاع بالإنسـان إلى آفـاق الحقـائق بعيـدا عمّا يحيط بفكـره من قضايا خاصّة لا تنفك تستقطب اهتماماته.

والقرآن منهج تفكير قبل أن يكـون دائـرة للمعـارف ، ولذلك فهو لا يهدف مجّرد تعليم الإنسان ، بل جعله قـادرا على التعلّم بذاته ، فهو يفتح مغاليق الفكر بمفاتيح الذكر ، ويبصّــر الإنســان الحقــائق برفع الغشــاوات عن قلبه ، ويخـرق الحجب الـتي تسـتر بصـيرته عن رؤية الحقـائق باستثارة العقل ونفض غبار الغفلة عن الفؤاد.

وســورة الطــارق تتجلّى بين الســور القصــار بهــذه الميزة. إنّها كما النجم الثاقب بنوره الوضيء تطرق أبواب القلب حتى تفتحه أمام شلّال النور المنبعث من الوحي.

[2] ما هو الطــارق؟ دع فكــرك يجــوب في آفــاق الخليفة لعلّه يكتشف ما هو الطارق.

(**وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ**)

هذه الكلمة تستثير عقل الإنسان ، كما تـبيّن له أهمية القضية. وقال بعض المفسرين : كلّما ذكرت هــذه الجملة في القـرآن عـرف موضـوعها ، مثل قوله سـبحانه : (**وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَـهْرٍ**) ، بينما إذا اسـتخدمت جملة (**وَما يُـدْرِيكَ**) فـإنّ الموضـوع يبقى مجهولا في النص.

[3] : ما هو الطارق إذا؟ إنّه النجم العالي الذي يثقب ضوؤه الباهر جدار الظلام.

[النّجم الثّاقب]

قالوا : الثاقب المضيء ، ومنه شهاب ثاقب ، والعرب تقول : اثقب نارك أي أضئها ، والثقوب ما تشـعل به النـار من دقاق العيدان.

واختلفوا في تأويل هذه الكلمة .. والـذي يبـدو لي أنّ الطارق هي الأقدار التي تتواصل في الليل والنهـار بخيرها وشرّها ، ولذلك نستعيذ بالله من طارق السوء حسب

النص المـأثور عن النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ : «**أعوذ بك من شـرّ طـوارق الليل والنهـار إلّا طارقا يطرق بخير يا رحمن**» [1].

وفي الدعاء : «**بك أستجير يا ذا العفو والرضـوان من الظلم والعـدوان ، ومن غــير الزمــان ، وتــواتر الأحـزان ، وطـوارق الحـدثان ، ومن انقضـاء المـدّة قبل التأهب والعدّة**» [2]

وحسب هذا الـرأي فـإنّ النجم الثـاقب هو بيـان لهـذا الطارق الذي يشبه النجم الثاقب ، كما قال سـبحانه : (**إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ**) [3].

---

(1) القرطبي / ج 20 ص 3.
(2) مفاتيح الجنان / دعاء يوم الأحد.
(3) الصّافات / 10

ويكون القسم ـ إذا ـ بتلك الشهب التي يحفظ الله بها السماء من الشياطين الـذين يسـترقون السـمع ، ويكـون السـياق متناسـبا مع الحـديث عن حفظه سـبحانه لأهل الأرض.

وقيل : إنّ كـلّ نجم يسـمّى طارقا باعتبـاره يطلع بالليل ، وعليه فإنّ القسم بكـلّ نجـوم السـماء أو النجـوم اللّامعة ، وقـال البعض : بل النجم هنا هو زحل ، وقد روي ذلك عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ [1] ، وقال بعضهم : بل هو الثريا ، وقال الآخر : بل هو الزهرة.

وقد تتسع العبارات لكلّ تلك التطبيقات ، ذلك لأنّ آية نتلوها في سورة الملك يظهر منها أنّ مصابيح السماء هي رجوم الشـياطين أو مراكز لـرجمهم ، قـال ربنا سـبحانه : (**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ**) [2].

فمن المحتمل أن تكـون النجـوم هي ذات الشـهب الطارقة أو أنّها مصـادر للشـهب. يبقى أن نقـول : إنّ المـراد من النجم يمكن أن يكـون جنس النجم فيشـمل سائر الأنجم وليس واحدا منها.

[4] حينما ينظر الإنسـان إلى متانة بنـاء السـماء ، وكيف جعلها الله سـقفا محفوظا ، وزرع في أرجائها مراجم للقوى الشيطانية التي تسعى لإفسـاد النظـام فيها ، يطمئنّ إلى تلك اليد العظيمة الـتي تمسك السـموات والأرض أن تـزولا ، ويعـرف أنّه في كنف ربّ عظيم ، يحفظه من طوارق السوء.

(**إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ**)

---

(1) راجع نور الثقلين / ج 5 ص 549.
(2) الملك / 5.

عشرات الألوف من الحفظة يحرسونك من الأخطار المحدقة بك ، فلا يصيبك إلّا ما تستحق أو ما تقتضيه حكمة الرب.

أنظر إلى نظام حماية الجسد تتركّب من أجهزة عديدة :

ألف : فجهاز التكيّف مع المحيط المتشكّل من العين والأذن والذوق وسائر الأحاسيس ، وأبرز ما فيه شبكة الأعصاب العجيبة.

باء : وجهاز الدفاع أمام الأخطار وأبرزها الرجل واليد.

جيم : وجهاز الحماية من الجراثيم ، وفي طليعتها امتناع الجسد من استقبال مالا يناسبه من الطعام والشراب ، كما إذا كانا عفنين أو مرّين.

دال : وجهاز المناعة الذاتية ضد الجراثيم ، التي لولاها لغزت الفيروسات والميكروبات أرجاء الجسد بسهولة. أرأيت الذي يفقد هذه المناعة ويبتلى بمرض الإيدز ، كيف يموت بأبسط ميكروب لأنّ جسده لا يقاومه.

هاء : والعواطف والشهوات التي تدفع الإنسان دفعا قويا نحو المحافظة على الجسد.

واو : والعقل الذي يقود الجسد في خضم صراعه المرير ضد الطبيعة وضد سائر الأخطار.

وعشرات الأجهزة المحيطة بالجسم التي لو أردنا شرحها لملأت أسفارا كبيرة.

ومثل نظام حماية الجسد عشرات الأنظمة الأخرى المبثوثة في الطبيعة تحمي الإنسان من التلاشي ، مما نعرف بعضها ونجهل الكثير ، كلّها شاهدة على أنّ الله

سـبحانه هو الحفيظ الـذي أحـاط الإنسـان بحمايته ، قـال سـبحانه : (**لَـهُ مُعَقِّبـاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ**) [1] وفي هـذه الآية جـاء الحـديث المأثور عن الإمام الباقر ــ عليه السـلام ــ قـال : يقـول : بأمر الله من أن يقع في ركيّ «بئر» ، أو يقع عليه حائط ، أو يصـيبه شـيء ، حـتى إذا جـاء القـدر خلّـوا بينه وبينه ، يدفعونه إلى المقـــادير ، وهما ملكـــان يحفظانه بالليل ، وملكـان بالنهـار يتعاقبانه [2] وبالـذات المؤمـنين وكـلّ بهم ملائكة يحفظونهم ، فقد روي عن النبي ــ صـلّى الله عليه وآله ـ أنه قال : «وكّل بالمؤمن مائة وسـتون ملكا يـذبّون عنه ما لم يقدر عليه ، من ذلك البصر سبعة أملاك يـذبّون عنه كما يـذبّ عن قصـعة العسل الـذباب ، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين» [3].

ويظهر من هـــذا الحـــديث : أن الملائكة يـــذبّون الشياطين عن المؤمن لكي لا يـؤثروا عليه ماديّا ومعنويّا ، ويقوم الحفظة بحفظ أعمـال العبـاد وما تبـدي منهم ، من نيّة وكلمة وفعلة ، قـــال الله ســـبحانه : (**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ* كِراماً كاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ**) [4]

وهكذا لا يصيب الإنسان مصيبة أو أذى إلّا بـإذن الله ، إذ لولا ذلك لمنعت عنه الحفظة ، وقد قـال ربنا سـبحانه : (**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**).

[5] ولكي يتأكّد الإنســـــان من الحفظة فليفكّر في نشـأته : كيف كـان نطفة (في صـلب أبيه ثم رحم أمّـه) مهانة ضعيفة. من الذي حفظها في مسـيرتها الصـعبة؟ أو تـدري كم هي الأنظمة الدقيقة الـتي تحيط بالنطفة وهي تتقلّب من طـور إلى طـور في رحم الأم؟ وهل كـان من الممكن لك وأنت نطفة أن تحفظ نفسك من

---

(1) الرعد / 11.
(2) نور الثقلين / ج 2 ص 487.
(3) تفسير البصائر / ج 54 ص 354.
(4) الإنفطار / 10 ـ 12.

الأخطار؟

(**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ**)

إنّ هذا النظر يفتح أمـام الإنسـان آفاقا من المعرفة ، لأنه يهتـدي بـذلك إلى حقيقة نفسه ومـدى ارتكاسـها في العبودية والحاجة فيخـــرج من ظلمة الغـــرور والكـــبر والتعالي إلى نور الواقعية والتواضع ، كما أنّه (بـالنظر إلى بدء نشـأته) يعـرف مسـتقبله. أو ليس الإنسـان يعـود كما بدأ؟

[6] من الصعب علينا تصوّر العدم حيث أنشأنا الباري لا من شيء كـان ولا مثـال احتـذاه ، ولكن أفلا نقـدر على تصـوّر المسـافة بين النطفة وبين الإنسـان المتكامـل؟ إذا لنعـرف أنّ المسـافة بين النشـأة الأولى حينما خلقنا الله من تـراب وحـتى جعلنا في صـورة نطفة أبعد وأعظم. أمّا المسـافة بين العـدم والوجـود فإنّها لا تقـاس بأيّة مسـافة اخرى ، لأنّ تصوّر العدم من قبلنا يشبه المستحيل.

دعنا إذا ننظر إلى حيث كنّا قطـرات من مـاء دافق ، ونتسـاءل : كيف كنّا ، والآن كيف صـرنا؟ أفليس الـذي حوّلنا من تلك الحالة إلى حيث نحن بقـادر على أن يعيـدنا بعد الموت؟ بلى. (**أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**).

(**خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ**)

ينبعث من الصلب إلى الرحم ليستقرّ في مقـام أمين حيث ينشأوه خلقا آخر.

ولعل كلمة «من» هنا تشـير إلى أنّ هـذه القطـرة المتواضـعة ليست كلّها منشأ خلق البشر بل شـيء منها ، بلى. فـإنّ خليّة واحـدة بين ملايين الخلايا هي منشأ خلقة هذا العالم الكبير الذي يختصر في بناء الإنسـان فإنّها حين تستقر في الرحم تبدأ بامتصاص الغذاء لتنشـطر إلى خلايا ثم تتكوّن كلّ خليّة في زاوية ليصنع الله منها

جزء من وجود الإنسان بدقة ولطف حتى تكتمل نشأته.
ويجدر بنا أن نستمع هنا إلى تذكرة إيمانية على لسان الإمام الصـادق ــ عليه السـلام ــ في حديثه المفضّـل إلى تلميذه المفضّل بن عمر حيث يقول :
نبتدئ يا مفضّل بـذكر خلق الإنسـان فاعتبربه ، فـأوّل ذلك ما يــدبّر به الجــنين في الــرحم ، وهو محجــوب في ظلمـــات ثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الـــرحم ، وظلمة المشــيمة ، حيث لا حيلة عنــده في طلب غــذاء ، ولا دفع أذى ، ولا اسـتجلاب منفعة ، ولا دفع مضـرةّ ، فإنّه يجـري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغـذو المـاء النبـات ، فلا يـزال ذلك غـذاؤه حـتى إذا كمل خلقه ، واسـتحكم بدنه ، وقـوي أديمه على مباشـرة الهـواء ، وبصـره على ملاقـاة الضياء ، هاج الطلق بأمّه فأزعجه أشد إزعاج وأعنفه حتى يولد ، وإذا ولد صرف ذلك الدم الـذي كـان يغـذوه من دم أمّه إلى ثدييها ، فانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء ، وهو أشدّ موافقة للمولود من الــدم ، فيوافيه في وقت حاجته إليه ، فحين يولد قد تلمّظ وحرّك شفتيه طلبا للرضاع ، فهو يجد ثـدي أمّه كـالإدواتين المعلّقـتين لحاجته إليه ، فلا يـزال يغتـذي بـاللبن ما دام رطب البـدن ، رقيق الأمعاء ، ليّن الأعضاء ، حـتى إذا تحـرك واحتـاج إلى غـذاء فيه صــلابة ليشــتد ويقــوي بدنه طلعت له الطــواحن من الأســـنان والأضـــراس ليمضغ به الطعـــام فيلين عليه ، ويسـهل له إسـاغته ، فلا يـزال كـذلك حـتى يـدرك ، فـإذا أدرك وكان ذكرا طلع الشعر في وجهه ، فكان ذلك علامة الـذكر وعـزّ الرجل الـذي يخـرج به من حـدّ الصـبا وشـبه النســاء ، وإن كــانت أنــثى يبقى وجهها نقيّا من الشــعر ، لتبقى لها البهجة والنضـارة الـتي تحـرّك الرجـال لما فيه دوام النسل وبقاؤه.
اعتبر يا مفضل فيما يدبّر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة ، هل ترى يمكن أن يكون بالإهمـال؟ أفـرأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم ألم يكن سيذوي

ويجــفّ كما يجــفّ النبــات إذا فقد المــاء؟ ولو لم يزعجه المخــاض عند اســتحكامه ألم يكن ســيبقى في الــرحم كــالموؤود في الأرض؟ ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته ألم يكن سـيموت جوعا ، أو يغتـذي بغـذاء لا يلائمه ولا يصـلح عليه بدنـه؟ ولو لم تطلع عليه الأسـنان في وقتها ألم يكن ســيمتنع عليه مضغ الطعــام وإســاغته ، وأو يقيمه على الرضاع فلا يشدّ بدنه ولا يصلح لعمل؟ ثم كان تشتغل أمّه بنفسه عن تربية غـيره من الأولاد ، ولو لم يخـرج الشـعر في وجهه في وقته ألم يكن ســيبقى في هيــأة الصــبيان والنساء فلا ترى له جلالة ولا وقارا؟!ـ [1].

[7] وهـذه النطفة المتدفّقة من صـلب الـذكر تلتقي على ميعاد بأخرى من ترائب الأنثى لتلقّحها.

(**يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ**)

قالوا : الـترائب نـواحي الصـدر ، واحـدتها تريبة ، وهو مأخوذ من تـذليل حركتها كـالتراب. أمّا الصـلب فهو عظم الظهر ومخّه.

والســؤال : مــاذا يعــني أن يكــون الإنســان هو بين الصلب والترائب؟ يجيب عن ذلك بعضهم بالقول :

إن صـلب الإنسـان هو عمـوده الفقـري ، وترائبه هي عظام صدره ، ويكـاد معنـاه يقتصر على الجـدار الصـدري الأسـفل ، ويضـيف : في الأسـبوع السـادس والسـابع من حيــاة الجــنين في الــرحم ينشأ ما يســمّى (جسم وولف وقناته) على كلّ جانب من جـانبي العمـود الفقـري ، ومن جزء من هذا تنشأ الكلى والجهاز البـولي ، ومن جـزء آخر تنشأ الخصية في الرجل والمـبيض في المـرأة ، فكـلّ من الخصـية والمـبيض في بـدء تكوينهما يجـاور الكلى ، ويقع بين الصلب والـترائب اي ما بين منتصف العمـود الفقـري تقريبا

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 3 ص 62.

ومقابل أسـفل الضـلوع ، ويضـيف : وكـلّ من الخصـية والمـبيض بعد كمـال نمـوّه يأخذ في الهبـوط إلى مكانه المعروف ، فتهبط الخصـية حـتى تأخذ مكانها في الصـفن (ووعـاء الخصـية) ويهبط المـبيض ، حـتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم [1].

[8] الحقـائق الكـبرى تـنزلق من قلب البشر لما فيها من ثقل وفخامة ، ولذلك يحتاج الإنسان إلى العـروج إليها عبر سـلّم الحقـائق الجزئية الـتي هي مفرداتها وتجلّياتها ، كما أنّ أشعة الشمس هي ظلال لعينها. إنّما يسمو الفـؤاد إلى مستوى الحقائق الكـبرى إذا اتخذ سـلّما إليها ، أمّا لو تركّز فيها النظر وتسمّرت عليها القدم فإنّها ستكون عقبة دون الصـعود وحجابا دون الرؤية ، وهـذه هي مشـكلة البشر الرئيسية أنّه يتوقّف عند الحقائق الجزئية. أفلا نرى آثـار قـدرة الـرب في كـلّ خليّة وذرّة ، مع كـلّ لحظة من لحظات الحياة؟ بلى. ولكن لماذا القلب لا يزال مرتابا في الاخرة ، ولا يـزال محجوبا عن وعيهـا؟ وحـتى المـؤمن بها بصـورة مبدئية تـراه يتعامل معها بشك ، لأنّه لا يسـمو بعقله ووعيه عـبر الحقـائق الـتي تتجلّى فيها قـدرة الـرب سبحانه ، وهكـذا لا يسـتطيع طـرد وسوسة الشـيطان من قلبه. كيف يعيد الله الإنسان بعد أن أضـحى ترابـا؟ تعـالوا نفـترض : انّ الخليّة الحيّة الـتي خلق الإنسـان بها تبقى كذلك دون أن تفـنى ، وإنّما تتلاشى الخلايا الاضـافية الـتي اجتمعت حولها في الـرحم بعد اللقـاح ، وإنّ الله يحفظ تلك الخليّة في وعـاء القـبر أو في أيّ وعـاء أخر ، كما حفظها في صـلب الرجل من قبل ، ثم إنّه سـبحانه يهيء الأرض لنموّها من جديد كما نمت في رحم الام. أو نجد في ذلك غرابة؟ كلّا .. ونحن نعـرف أنّ الخليّة الحيّة يمكن أن تعيش في ظـروف مختلفة وبصـور شـتّى ، وبعض الخلايا تعيش في ظـروف صـعبة جـدّا ، فلما ذا نسـتغرب مثلا أن تكون تلك الخليّة الرئيسية من أمثالها؟

هـذه الفكـرة الـتي قلنا آنفا إنّها نظرية نجـدها تكفينا لحلّ اللغز التالي : كيف

(1) تفسير البصائر / ج 54 ص 367.

يعيد الله الإنسان بعد الموت؟ وأقـول : (تكفينـا) لأنّ قيمة النظرية حلُّ اللغز ، ولعل نظريّات أخرى تكون موجــودة ، ولكن وجـــود نظرية واحـــدة تغـــني عن غيرها لنفي حالة التشكيك في الحقيقة.

على أنّ هذه ليست مجّـرد نظرية ، وإنّما وردت عليها رواية مـأثورة عن الامـام الصـادق ـ عليه السـلام ـ : أنّه سـئل عن الميت يبلى جسـده؟ قـال : «**نعم. حـتى لا يبقى لحم ولا عظم إلّا طينته الـتي خلق منها ، فإنّها لا تبلى ، تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أوّل مرّة**» [1].

وهكذا قال ربّنا بعد أن ذكّرنا بالنشـأة الاولى أنّه قـادر على رجعه.

(**إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ**)

[9] ولكن عودة الإنسان ليست في دورة طبيعية كما يعـود النبـات في فصل الربيـع! كلّا .. إنّها عـودة مقصـودة كما أنّ خلقه في الدنيا جـاء بحكمة بالغـة. فما هو الهـدف من عودته؟ إظهار حقيقته.

(**يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ**)

الدنيا دار ابتلاء واختبار ، ومن طبيعة الدنيا أنّها خليطة فيها الخـير والشر ، ولا يميّز خيرها عن شـرّها بسـهولة ، بينما الاخرة دار جـزاء ، وكـلّ شـيء فيها ظـاهر ، ويعطي الله الإنسان من قـوّة الاحسـاس ما يسـتوعب الكثـير مما لم يقدر عليه في الدنيا ، بصـره يومئذ حديد ، ويـذوق نـار جهنم على أنّه لا يستطيع أن يـذوق جـزء من مليـون جـزء منها في الدنيا ، ويتنعّم بنعم الجنة الـتي لا يمكنه أن يتنعّم بجزء يسير منها في الدنيا.

(1) تفسير البصائر / ج 54 ص 355.

وفي الأحـاديث المـأثورة عن السـرائر : أنّها أعمـال العبـاد ، فقد روي عن معـاذ بن جبل أنّه قـال : سـألت رسـول الله : ما هـذه السـرائر الـتي ابتلى الله بها العبـاد في الاخـرة؟ فقـال : سـرائركم هي أعمـالكم من الصـلاة والصـيام والزكـاة والوضـوء والغسل من الجنابة وكـلّ مفـروض ، لانّ الأعمـال كلّها سـرائر خفيّة ، فـإن شـاء الرجل قال : صلّيت ، ولم يصلّ ، وإن شاء قال : توضـأت ولم يتوضّأ ، فذلك قوله : «**يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ**» [1].

(10) في ذلك اليوم الـرهيب يقف الإنسـان عاريا من أيّ ستر ، بعيدا عن أيّ عذر ، لا يمكنه التبرير والنفـاق ولا الكـذب والـدجل. وأنّى له ذلك وقد اجتمعت عليه الشـهود ممّا حوله وممّا فيه ، وقلبه مفضـــــوح على كفّه نيّاته ، وعقائده كلّها مكشوفة؟! فأين المهرب؟

قد يـزعم البعض أنّه يقـدر على منع بعض الشـرّ عن نفسه ، كلّا .. فهو أضـعف من ذلـك. إنّه منح في الـدنيا القوّة لكي تجـرّب إرادته ، ويمتحن إيمانه ، أمّا ذلك اليـوم فهو مستسلم ذليل. وقد يـزعم البعض أنّه يسـتعين بحزبه وعشـيرته ووالديه وأسـرته ، كلّا .. إنّهم يومئذ مشـغولون بأنفسهم. وهب أنّهم أرادوا نصره فهل يقدرون؟ هيهات.

(**فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ**)

واليـوم قبل ذلك اليـوم دعنا نجـأر إلى ربّنا لعلّه يغفر لنا الـذنوب الـتي اجترحناها قبل الفضـيحة الكـبرى أمـام الملا العظيم وقبل العذاب الشديد.

(11) وعـــذاب الاخــــرة ليس العــذاب الوحيد لمن انحرف عن مسيرة الحق ، ففي

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 552.

الدنيا عذاب أخفّ منه ، ولكنّه في مقاييسنا عذاب شـديد. إنّه الهزيمة النكراء الـتي تلحق الكفّـار والمنـافقين .. ذلك لانّهم شذّوا عن سـنن الله في السـماء والأرض ، وكفـروا بالحق الذي أنزل على النبي صلّى الله عليه واله.

فقسما بالسماء وبـالأرض : إنّ الـوحي حق ، والنـذير حق ، وليس بالهزل.

(**وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ**)

قـــالوا : الرجع يعـــني المطر ، واستشـــهدوا بقـــول الشاعر :

أبيض كـالرّجع رسـوب إذا ما ثـاخ في محتفل يختلي

وقـال بعضـهم : بل الرجع الشـمس والقمر والنجـوم يرجعن في السماء ، تطلع في ناحية وتغيب في الاخرى.

وقيل : بل الملائكة يرجعون بأعمال العباد.

ويبـدو لي أنّ الأنسب إلى السـياق هو رجـوع الأفلاك إلى مراكزها بتناسب ونظم ، دون أيّ تغيير في مسـارها ، ممّا يدلّ على رجوع الإنسان إلى أمر الله في يوم شاء أم أبى.

(12) وقسما بالأرض التي تتصدّع.

(**وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ**)

قـالوا : تصـدّع بالنبـات ، كما قـال ربنا سـبحانه : (**ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا**).

ويبـــــدو لي أنّ الأرض قد جعلها الله ذلـــــولا بحيث تستقبل المطر ، وتخرج النبـات ، وتمكّن الفلاح من حرثها ، والبنّاء من حفرها ، وطالب الكنز من استثارتها .. وكلّ

ذلك يدلّ على حكمة الله البالغة من خلقها.

(13 ـ 14) كما الطبيعة تجلّيات لسنن الله ، ومظـاهر أسمائه الحسنى ، كذلك الوحي تجلّ لآياته ، وبيان لسننه ، ومظهر لاسمائه.

(**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ* وَما هُوَ بِالْهَزْلِ**)

يفصل بين الصـواب والخطأ والحق والباطل ، كما أن يوم القيامة يوم الفصل.

وقد روي عن الامام أمير المؤمـنين ـ عليه السـلام ـ عن النـبي ـ صـلّى الله عليه واله ـ أنّه قـال : «**سـمعت رسول الله يقول : كتاب فيه خـبر ما قبلكم ، وحكم ما بعدكم ، هو الفصل ، ليس بـالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله**» [1].

وقد جاءت هـذه الكلمة في هـذا السـياق لكي لا يلجأ الإنسـان من هـول ما يسـمعه إلى التكـذيب ، ويقـول في نفسه : لعلّ هذا الوعيد نوع من التخويف المبالغ فيه.

كلّا .. فليس في القـــرآن كلمة كاذبة أو مبالغة ، ولا حرف ولا إيفاء حرف. إنّه كتـاب الله الـذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهكـذا يسـدّ السـياق كـلّ منافذ الفـرار النفسي من مواجهة الحقيقة الكـــبرى الـــتي تنتظر الجميع (حقيقة الجــزاء) فلا إخفــاء ولا تــبرير ولا محــاورات الاستنصــار بالآخرين أو التهرّب من الحقيقة بتكذيبها.

(15) ولا يقتصر الكفّــار على تكــذيب رســالات الله للتهرب من الحقائق التي

---

(1) القرطبي / ج 20 ص 11.

تــذكّر بها ، وإنّما يحاربونها بشــتى ألــوان الحــرب حــتى يصنعوا حجابا نفسـيّا واجتماعيّا بينهم وبينها فلا يتـأثّروا بها أبدا.

(**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً**)

والكيد هو : التلطّف لبلوغ الهـدف بأسـاليب مختلفة ، ويسـتخدم في الشـرّ والخـير ، وإن كـانت الكلمة تـوحي بالشـــر. والكلمة المرادفة لها في أدبنا اليـــوم : الخطة ، ويبدو أنّ مجمل مساعي الكفّار ومن هم في خـطّ النفـاق والفسق تتجه نحو تغيــير مســار الحق ، وإخفائه بالباطل الـــذي يبتدعونه ، والصد عنه بـــالمكر والكيـــد. إنّه الخط الاستراتيجي للكفر.

ومن خصـــــائص الكيد التوسل ببعض الخطط الخفية الــتي لا تبلغ الهــدف إلّا عــبر مراحل عديــدة ، وقد يضع الكفّار خطّة خمسية أو عشرية أو حتى بعيدة المدى لعلّها تبلغ هـــدفها بلا عقبـــات ، لانّها في زعمهم خطة محكمة سريّة ومتواصلة الحلقات.

بيد أنّ خططهم لا تهــدف الرســول كشــخص ، ولا المؤمنين كطائفة ، بل تهدف الرسالة التي يــدعون إليها ، وغريمهم في ذلك لن يكون المؤمنون أو الرسول وحسب بل ربّ العزّة جبّار السموات والأرض سبحانه وتعالى.

(16) وإذا كـان الكفّـار يسـعون لبلـوغ هـدفهم عـبر خطط متناهية في الدقة بزعمهم فإنّ كيد الله متين. كيف يكيد الله لهم؟ إنّه سـبحانه يهيّء أسـباب تـدميرهم على حين غفلة منهم. أرأيت كيف يـــدبّر الشـــرطة مثلا خطة للإيقـاع بـالمجرمين (ممّا قد تصـوّره الافلام البوليسـية) ، ويخطط المجرمون لجريمتهم بإتقـان ويخطط الشـرطة ، والمجرمـون لا يعرفـون شـيئا عن خطط الشـرطة ، بينما رجال الشرطة يعرفون ما يجري هناك؟!

وفي ساعة الصفر حينما تبلغ خطط الكفار مرحلة التنفيذ ، ويكادون يسطون بالنبي والمؤمنين ، تكون أسباب تدميرهم قد تهيأت أيضا ، وتتجلّى ساعتئذ قدرة الله. إنّها تأخذهم أخذا وبيلا.

(**وَأَكِيدُ كَيْداً**)

(17) بيد أنّ هذه الخطة وتلك وكل خطة تأخذ عامل الزمان في الحسبان ، ولذلك فإنّ من يكيد كيدا لا يمكنه أن يلغي الزمان ، وينبغي أن يعرف المؤمنون ذلك ، ولا يستعجلوا في تنفيذ خطط الرسالة ، ولا يقلقوا من تأخير النصر ، لانّ هناك مهلة معينة لا بد أن تنهّي قبل أخذ الكفار.

(**فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ**)

مهلة بعد مهلة ، وفترة بعد فترة ، فلعل تغييرا يطرأ على تنفيذ الخطة ، ولكنّها بالتالي لن تكون مهلة طويلة.

(**أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً**)

مهلة قليلة ولطيفة وبلا صخب أو ضوضاء ، ولكن لماذا يمهل الله الكفّار؟

أوّلا : لانّهم أيضا بشر مخلوقون ، وإنّ الله سبحانه يريد امتحانهم كما يمتحن بهم ، ولعلّهم يرجعون.

ثانيا : لانّ للصراع بين الحق والباطل فوائد شتّى في بلورة رؤية المؤمنين ، وتزكية قلوبهم ، وتمحيص نفوسهم ، وتطهير صفوفهم ، من المنافقين.

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**من قرأ سبح اسم ربك الأعلى في فرائضه أو نوافله قيل له يوم القيامة : ادخل الجنة من أيّ أبواب الجنة شئت**»

وروي عنه ـ عليه السلام ـ أنّه قال : «**الواجب على كلّ مؤمن إذا كان لنا شيعة أن يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعة وسبّح اسم ربّك الأعلى**»

نور الثقلين / ج 5 ص 553

الإطار العام

كما خلق الله الكائنات فسوّاها وأتمّ صنعها ، كما قدّر لها شـؤونها ، وألزمها بسـنن ، وهـداها إليها ، كـذلك قـدّر للإنسـان ما يصـلحه ، وجعل له سـبل السـلام الـتي تهديه إلى غاياته الكريمة ، وبعث إليه رسالته التي تهديه إليها.

ولا تحدّد غاية الإنسـان بما في الـدنيا من عافية وأمن وتقدّم وسـعادة ، بل وأيضا بما في الاخـرة الـتي هي خـير وأبقى.

بمـاذا يهـدي الله الإنسـان إلى الفلاح؟ بـالقرآن الـذي يقــرؤه الرســول فلا ينسى منه حرفا ليــذكّر به النــاس ، ولكن من الذي يتذكّر؟ إنّما الذي يخشى ، بينما الذي يسدّ منافذ قلبه من دون التذكّر فهو الأشقى الذي يصـلى النـار الكبرى فلا يموت فيها ولا يحيى.

وإذا اســـتطاع الإنســـان الإقلاع من جاذبية الـــدنيا والتحليق في أفق الاخرة التي هي خـير وأبقى فإنّه يخطو الخطوات الاولى على طريق الفلاح ، أمّا الثانية فالخشـية ثم

التـذكّر ، وبعـدهما تـأتي التزكية كخطـوة ثالثة تحمله إلى الصلاة والزلفى إلى ربّ العزة.

هكذا تتواصل آيات سورة الأعلى لتذكّرنا ببلاغة نافـذة بذات الحقائق الكبرى التي لا بد أن نعيها حتى نبلغ الفلاح. وإنّها لمعجـزة القـرآن أنّ كـلّ سـورة منه تـذكّر بـذات الحقيقة ، ولكن بطريقة متميّـــزة جديـــدة .. بلى. إنّ الحقـائق الكـبرى تتجلّى في مظـاهر شـتّى لانّها غـير ما نشـهده من الحقـائق الجزئية ، وهي خلاصة صـحف الله الـتي بعثها إلى أنبيائه العظـام كـإبراهيم وموسى عليهما السلام.

سورة الأعلى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَـوَّى (
2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى (3) وَالَّذِي أَخْـرَجَ الْمَـرْعى (4)
فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى (6) إِلاَّ ما
شـاءَ اللـهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْـرَ وَما يَخْفى (7) وَنُيَسِّـرُكَ
لِلْيُسْرى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ
يَخْشى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْـقَى (11) الَّذِي يَصْـلَى
النَّارَ الْكُبْرى (12) ثُمَّ لا يَمُـوتُ فِيها وَلا يَحْـيى (13)
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)
بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْـرٌ وَأَبْقى (
17) إِنَّ هـذا لَفِي الصُّـحُفِ الْأُولى (18) صُـحُفِ
إِبْراهِيمَ وَمُوسى (19))

---

5 [غثاء] : الغثاء ما يقذف به السيل على جـانب الـوادي من الحشـيش والنبات ، وأصله الاخلاط من أجناس شتّى.
[أحوى] شديد السواد.

سبّح اسم ربك الأعلى

بينات من الآيات :

[1] لاسم الله عظمة مشـتقّة من عظمته ، لانّه يـدلّ عليه ويــذكّرنا به ، ويشــهد على جلاله وجماله ومجــده وكبريائه ، ولانّ ربنا المتعال خلق في البدء اسـمه الأعظم ، وجعله على أربعة اختص بواحد فجعله مكنونا عنــده لا يطلع عليه أحد من خلقه ، وجعل الثلاثة في كلمـات : الله ، وتعـالى ، وتبـارك ، ليهـدينا الاول إلى ذاته ، والثـاني إلى صفاته ، والثالث إلى أفعاله ، ثم خلق الله الأشياء باسـمه ، وما نــراه في الخليقة من آثــار عظمته ليست ســوى تجلّيات لاسمائه.

وهكـذا أمرنا بـأن نـدعوه بأسـمائه فقـال سـبحانه : (**وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها**).

وما نقــرؤه في الادعية المــأثورة تأويل لهــذا الأمر الالهي حيث نتوسّل إلى الله سـبحانه بأسـمائه الحسـنى ، ونقـول : «أعـوذ بنـور وجهك الـذي أضـاءت له السـموات والأرضــون وانكشــفت له الظلمــات ، وصــلح عليه أمر الأولين والآخرين ، من

فجاءة نقمتك ، ومن تحويل عافيتك ، ومن زوال نعمتك» [1].

«اللهم إنّي أسألك باسـمك العظيم الأعظم ، الا عـزّ الاجـلّ الأكـرم ، الـذي إذا دعيت به على مغـالق أبـواب السـماء للفتح بالرحمة انفتحت ، وإذا دعيت به على مضـائق أبـواب الأرض للفـرج انفـرجت وإذا دعيت به على العسر لليسر تيسّـرت ، وإذا دعيت به على الأموات للنشـور انتشـرت ، وإذا دعيت به على كشف البأساء والضرّاء انكشفت» [2].

وفي أدعيتنا المأثورة عن النبي وأهل بيته الطاهرين ـ عليه وعليهم صـلوات الله ـ تشـكل أسـماء الله الحسـنى ركنا أساسيّا فيها ، مثل دعاء الجوشن الكبير الذي يشتمل على ألف اسم وصـفة من أسـماء الله وصـفاته ، ودعـاء البهاء ، ودعاء كميل ، وما أشبه [3].

أرأيت ما هـذه الأسـماء؟ حقّا : إنّ عقولنا لا تحيط علما بها ، كيف وهي لم ولا تسـتطيع الاحاطة علما بكـلّ خلقه ، وخلقه مظهر من مظـاهر أسـمائه؟ ولكنّ الله أتانا من العلم ما نشير به إلى أسمائه ونـدعوه بها .. ثم عرّفنا بها بما أوحى إلى نبيّه من كتاب وأجرى على لسان أوليائه من علم كان بمثابة تفسير للكتاب ، وهكذا كانت الأسـماء مظـاهر عظمته ، وآيـات شـهادته وهيمنته ، لا نقدّسـها إلّا بهذه الصفة ، ولا نسبّحها إلّا بهذا الاعتبار ، فلأنّها الوسـيلة إليه تقدّس ، ولانّها السبيل إلى معرفته تسبّح.

ومن قدّس الاسم دون المسمّى أو مع المسـمّى فقد أشـرك بربه سـبحانه ، إنّما تقديسـنا للإسم بصـفته اسـما للمعنى ووسيلة إليه لا أكثر.

---

(1) مفاتيح الجنان / دعاء الرسول ليلة النصف من شعبان.
(2) المصدر / دعاء السمات.
(3) راجع مفاتيح الجنان للمحدّث الشيخ عبّاس القمي.

هكــذا نجد في بعض آيــات الــذكر تســبيحا لله وفي بعضها لاسـمه ، فـإذا سـبّحنا الله فإنّما بوسـيلة أسـمائه ، لانّه لا ســبيل لنا إلى معرفة ذاته ، وإذا ســبّحنا اسم الله فإنّما لانّه اسم لله ، وســبيلنا لمعرفة الله ، ولانّنا لا نقــدر على معرفته إلّا باسمه سبحانه.

قال الله تعالى : (**سَـبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ**) [1] ، (**يُسَـبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِــكِ الْقُــدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**) [2] ، وقال : (**وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**) [3] ، كما قال : (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الـرَّحِيمِ اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ**) [4] ، (**تَبـارَكَ اسْـمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ**) [5] ، وهكذا جاءت صفتا الجلال والإكرام للرب بينما نجد في آية أخرى جاءتا صفة لوجهه سبحانه ، فقــال : (**كُـلُّ مَنْ عَلَيْها فـانٍ وَيَبْقى وَجْـهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ**) [6].

فهل في ذلك تنــاقض؟ كلّا .. لانّ وجه الله لا يــراد إلّا لله ، فهو مجرّد وسيلة ، كما أنّ الجلال والإكـرام الإلهـيين يتجلّيان بوجهه لنا.

وهكــذا أمرنا الله في فاتحة ســورة الأعلى بتســبيح اسم الله الذي هو تسبيحه سبحانه

(**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**)

ولـذلك روي عن ابن عبّـاس عن النـبي ـ صـلّى الله عليه واله ـ : كان النبي

(1) الصف / 1.
(2) الجمعة / 1.
(3) الأحزاب / 42.
(4) العلق / 1.
(5) الرحمن / 78.
(6) الرحمن 26 ـ 27.

ـ صلّى الله عليه واله ـ إذا قرأ (**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**) قـال : سـبحان ربي الأعلى وكـذلك روي عن علي عليه السلام.[1].

وروي عن الامام الباقر ـ عليه السلام ـ : «إذا قـرأت سبّح اسم ربك الأعلى» فقل : سـبحان ربي الأعلى ، وإن كنت في الصلاة فقل فيما بينك وبين نفسك[2].

وروي عن ابن عـامر الجهـني أنّه قـال : لمّا نـزلت (**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**) قـال رسـول الله ـ صـلّى الله عليه واله ـ : «اجعلوها في ركـوعكم» ولمّا نـزل : «**سَـبِّحِ اسْـمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**» قـال : «اجعلوها في سجودكم»[3].

وهذا النصوص تدلّ على أنّ تفسير الاية تسبيح الله لا مجـرّد تقـديس اسـمه ، لـذلك حـذف الاسم عند تسـبيحة الركـوع والسـجود ، أو عند ما يسـبّح الله بعد قـراءة هـذه الاية.

وقال بعضهم : تنزيه اسم الله تعـالى وتسـبيح اسـمه يتمّ بـأن يجـرّد القـول عن ذكر ما لا يناسب ذكـره مع ذكر اسمه تعـالى ، فلا ينبغي أن يـذكر الأنـداد مع اسـمه ، كما كـان يفعل المشـركون الـذين لا يـذكرون الله إلّا مع الشـركاء من دونه أمّا إذا ذكر وحـده اشـمأزّت قلـوبهم ، كما قال سبحانه : (**وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**)[4]

ولكن يبدو أنّ هذا التفسـير لا يتناسب مع السـياق ولا مع سائر البصائر القرآنية

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 553.
(2) المصدر / ص 554.
(3) المصدر / ص 554.
(4) الزمر / 45.

حول اسم الله ، فإذا كان اسم الله يعني كلمة الله وليس المسمّى وهو الله سبحانه فما معنى بسم الله الرحمن الرحيم؟ هل الاستعانة تتمّ بالله أم بكلمة الله؟ سبحان الله وتعالى أن تتمّ الاستعانة بغيره أنّى كان.

وجاءت صفة «الأعلى» للشهادة على ضرورة تسبيح الله إذ أنّه ربنا وأنّه الأعلى وهل يسبّح أحد سوى الرب الأعلى؟

[2] ما الذي يدعونا إلى تسبيح الله وتقديسه؟ حينما يرفع الإنسان عن عينيه غشاوة الغفلة ، وعن إرادته حجب الجحود ، وينظر إلى ما حوله في أبعاد الكائنات ، ويستمع إلى همساتها ، ويندمج مع إيقاعات تسبيحها ، ويلتقط إشارات حركتها .. هنالك ينتقل إلى آفاق معرفة ربّه فلا يتمالك إلّا أن يسبّح بحمد ربه. إنّه يرى سماء حفيظة تحيط به ، وأرضا وديعة تحمله وتتذلّل له ، وكائنات نباتية وحياتية تنشط بين أرجاء الأرض وآفاق السماء ، كلّ منها خلق بصورة مختلفة عن نظيراتها ، ولكنّها جميعا تتناغم وكأنّها فرقة أنشودة ، من أبعد نجمة إلى أصغر ذرّة ، من أضخم شجرة إلى أصغر نبتة ، من الحوت حتى أصغر سمكة ، من الفيل حتى أنعم حشرة ، من العقاب حتى البعوضة .. كلّها وكلّها قد خلقت بدقة متناهية. هل سمعت نبأ الذرة التي لا ترى ، وكيف بنى الله في عالمها الكبير الصغير مملكة عظيمة؟ لو قستها بالمجرة التي لا نستطيع أن نتخيّل عظمتها لرأيناهما قد خلقتا جميعا بقدر عظيم من الدقة والتنسيق .. ولكنّ المجرة هي ـ في الواقع ـ مجموعة عظيمة من الذرّات ، وهي هي ذات الحقيقة تتجلّى مرة في شكل ذرّة ومرة في صورة مجرّة .. وما بين الذرة والمجرة ملايين الملايين من المخلوقات المتنوّعة ، قد خلقها الله خلقا سويّا في ذاتها ، وقدّر لكلّ واحد واحد منها هدفا ومسيرة ، وهداها إلى هدفها ومسيرتها ، وكذلك قال ربّنا العزيز :

(**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**)

والخلق قد يكون بمعنى الإنشاء أو الصنع بعد الإنشـاء ، وتسويته بمعنى تكميله حتى لا يحتاج إلى شــيء لتحقيق ما خلق له إلّا وقد أعطـــاه ، ولا تجد ثغـــرة في خلق الله تعالى ولا فطورا ، ولا نقصا كبيرا أو صغيرا.

[3] وقـدّر لكـلّ خلق من الكائنـات جمـادا أو نباتا أو حيوانا أو إنسانا هدفا ألزمه به ، وجعله يسعى إليه ، وحدّد لكلّ هدف وسيلة ، ولكـلّ غاية سـبيلا ، وهـدى كـلّ شـيء إلى ما قـدّر له .. أمّا الجمـادات فقد هـداها بما أوجد فيها من قـــوّة وإمكانية ، وبما أوجد فيما حولها من ضـــغوط ، مثلا : لعل التفاحة لا تحس لماذا خلقت؟ ولا تهتدي بـذاتها إلى هـدفها المتمثل في إغنـاء جسد الإنسـان بما يحتاجه من فيتـــامين وروحه بما تتطلّع إليه من جمـــال وروعة ، ولكنّ الله جعل في التفاحة هـذه الخصـائص ، وجعل في الإنســان حاجة إليها ، فجعل ســعي الإنســان إليها بمثابة سعيها إليه ، على أنّنا لا نملك معرفة بما في واقع التفاحة أو أيّ جماد أو نبات أو حيوان من تحسس.

ولكي تزداد معرفتنا بالله وتســبيحنا له ننقل فيما يلي مقـاطع من كتـاب (العلم يـدعو للإيمـان) الـذي ينقل إلينا الكــاتب الامــريكي (كريسي موريســون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك فيه بعض آيات الله في الطبيعة :

(إنّ الطيور لها غريزة العودة إلى الموطن ، فعصفور الهزاز الذي عشّش ببابك يهاجر جنوبا في الخريف ، ولكنّه يعـود إلى عشّــه القــديم في الربيع التــالي ، وفي شــهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا (في أمريكا) إلى الجنوب ، وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق البحار ، ولكنّها لا تضل طريقها.

والنحلة تجد خليتها مهما طمست الـــــريح في هبوبها على الاعشاب والأشجار ، كلّ

ذلك دليل يــــــرى ولا بد أنّ للحشـــــرات الدقيقة عيونا ميكروسكوبية (مكبّرة) لا نـدري مبلغها من الأحكـام ، وأنّ للصقور بصرا تلسكوبيا (مقرّبا).

ويضـيف : إنّ العــاملات من النحل تصــنع حجــرات مختلفات الاحجام في المشط الذي يستخدم في التربية ، وتعدّ الحجرات الصغيرات للعمّال ، والأكبر منها لليعاسيب (ذكـور النحــل) ، وتعـدّ غرفة خاصة للملكـات الحوامـل. والنحلة الملكة تضع بيضا غـــــــــير مخصب في الخلايا المخصصة للـذكور ، وبيضا مخصـبا في الحجـرات المعـدّة للعاملات الإنـاث والملكـات المنتظـرات والعـاملات اللّائي هنّ إنـاث معـدلات بعد أن انتظـرن طـويلا مجيء الجليل الجديد تهيّـأن أيضا لاعــداد الغــذاء للنحل الصــغير بمضغ العسل واللقح ومقـدّمات هضـمه ، ثم ينقطعن عن عملية المضغ ومقـــدّمات الهضم عند مرحلة معينة من تطـــوّر الذكور والإناث ، ولا يغذين سوى العسل واللقح ، والإنـاث اللائي يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملات) [1].

من الـذي قـدّر للنحل أمـره وهـداه إليه ، ومن الـذي علّم الطيــور رزقها ومســراها ، وهــدى كــلّ حيّ إلى ما يصلحه وما قدّر له. أليس الله؟ فسبحان ربي الأعلى.

دعنا نستمع إلى قصة لعنكبوت مائي : يقـول الكـاتب المذكور :

(إنّ إحدى العنـاكب المائية تصـنع لنفسـها عشّـا على شكل منطـاد (بـالون) من خيـوط بيت العنكبـوت ، وتعلّقه بشيء مّا تحت المـاء ، ثم تمسك ببراعة فقاعة هـواء في شـعر تحت جسـمها ، وتحملها إلى المـاء ثم تطلقها تحت العش ، ثم تكرّر هـذه العملية حـتى ينتفخ العش ، وعندئذ تلد صـغارها ، وتربّيها آمنة عليها من هبـوب الهـواء. فهاهنا نجد طريقة النسج بما يشمله من هندسة وتـركيب وملاحة جوية).

---

(1) في ظلال القرآن / ج 6 ص 3885.

وهكــذا يقــدّر الله لهــذا الحيــوان أو ذاك النبــات ما يصلحه ثم يهديه إليه ، فسبحان ربنا الأعلى ، ولكن ذلك لا يختص بالحيوان المتكامل أو النبـات التـام بل حـتى الخلايا هداها الله لما قدّرت له بطريقة غريبة ، يقول المؤلف :

(كــلّ خلية تنتج في أيّ مخلــوق حي يجب أن تكيّف نفسها لتكـون في موقعها المناسب والـذي قـدّرت له مثلا أن تكون جزء من اللحم أو أن تضـحّي بنفسـها كجـزء من الجلد الــذي لا يلبث حــتى يبلى ، وعليها أن تصــنع مينــاء الأســنان ، وأن تنتج الســائل الشــفّاف في العين ، أو أن تــدخل في تكــون الأنف أو الاذن ، ثم على كــلّ خلية أن تكيّف نفسها من حيث الشـكل وكـلّ خاصـية أخـرى لازمة لتأدية مهمتها ، ومن العســير أن نتصــوّر أنّ خلية ما هي ذات يد يمنى أو يسـرى ، ولكن إحـدى الخلايا تصـبح جـزء من الاذن اليمــنى ، بينما الاخــرى تصــبح جــزء من الاذن اليسرى ، وإنّ مئات الآلاف من الخلايا تبـدو كأنّها مدفوعة لان تفعل الشــيء الصــواب في الــوقت الصــواب وفي المكان الصواب) [1].

وهكذا الخلية الواحدة تصلح أن تكون مدرسة توحيدية شريطة أن تصبح تلميذا فيها ، فهل أنت مستعد؟

[4] ولكن هــــذه القــــدرة الهائلة الــــتي تتجلّى في الكائنــات ليست قــدرة ذاتية فيها ، بل هي من عند ربها ، وهكــــذا تعيش كلّها دورة حياتية معينة لا تلبث أن تســـاق نحو الفنــاء حسب تقــدير ربها ، وإنّ في ذلك لاية على أنّ ما بها من قـدرة وقـوة وحـول وطـول فهي من عند الله ، وإنّ ما فيها من نقص وعجز وحدّ وقيد لشاهد على تعـالي بارئها منها ، وأنّه قــدّوس ســبحانه بلا نقص ولا نقص ولا عجز ولا حدّ ولا قيد.

ويضرب القرآن لنا مثلا ظـاهرا لهـذه الـدورة الحياتية السريعة ، ويقول :

---

(1) المصدر / ص 3887.

(**وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى**)

فلقد كــانت الأرض حبلى بـــالمواد الـــتي جعلها الله بالماء وأشعة الشمس نباتا ، فـإذا بأديمها يخضـرّ بالعصف والريحان ، ولكن كم يدوم ذلك؟ ليس إلّا أيّاما معدودة.

(5) وبعد أيّـام تتحــوّل الأرض إلى بســاط أصــفر ، وتتراكم أوراق الشجر وبقايا الحصاد إلى غذاء للإحيـاء بعد المواسم. وإذا بقت المراعي هكذا وتراكمت عليها طبقات من الـــتراب أصـــبحت فحما حجريّا تنتفع منه الأجيـــال القادمـة. لا شـيء من خلق الله يـذهب بـاطلا. إنّه يصـبح مادة لخلق جديد أو ما ينفع الخلق الجديد.

(**فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى**)

قـالوا : أصل كلمة الغثـاء زبد السـيل وما يتجمع في أطراف الميـاه من بقايا النبـات والقمـاش ، ويقـال للبقل والحشــيش إذا تحطم ويبس. أمّا الاحــوى فإنّه الأســود ، وإذا تـراكم النبـات واشـتد اخضـراره تـراءى كأنّه سـواد ، ومن هنا سمّيت أرض العراق بأرض السواد.

ما هذه القـدرة الـتي تقلب الأرض كيف تشـاء ، فحينا تســتخرج نباتها ، وأخر تــدعها بلقعا تتجمع حولها الغثــاء الاحوى؟

وكما الدورة النباتية السريعة كـذلك دورة الحيـاة عند الإنسان إنّها تدور بسرعة فإذا باخضرار الحياة تتحـول إلى سـواد المـوت ، وهكـذا الاخـرة هي خـير من الاولى لمن بصر وعقل.

(6) لا تنفصل رسالات الله عن السياق العام لمسيرة الكائنــات. إنّه الله الــذي تشــهد الخلائق بقدسه وعظمته يبعث إلينا رسولا ويحمّله كتابا وهدى ، فأيتها

السماء اخشعي ، ويا أرض قرّي ، ويا أيّها الإنسان استعد لتلقّي رسالة الله إليك والتسليم للرسول الكريم.

(**سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى**)

أولم يأتك نبأ حراء حيث هبط الروح جبرئيل على محمّد الصادق الأمين فقال له اقرأ .. وتواصلت آيات الله : (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ**) .. ، هكذا أقرأ الله نبيّه قراءة واضحة مبيّنة ، فلم تكن وساوس في صدره ، ولا أفكار بقلبه ، ولم تكن حقائق مجرّدة يعرف بعضها ويجهل الكثير ، كلّا .. إنّها كلمات واضحة تلقّاها الرسول ، ونطق بها بوضوح ، وهذا هو معنى إقراء الله له جملة بجملة وكلمة بكلمة وحرفا بحرف.

وحين يكون المقرئ هو الله والمتلقّي من اختاره بعلم لحمل رسالته المهيمنة على كلّ الرسالات فإنّ الرسول لا ينسى بإذن الله ، ليس لانّه يخرج من حدّ البشر الذي يجوز له النسيان ، بل لانّ ربّه أبى أن ينسى ، فالضمانة هنا من عند الله ، ومن كان الله ضامنا له كيف ينسى؟! إنّها حقيقة العصمة كما يفهمها أهل البصائر ، أن يقي الله عبدا من عوامل الانحراف ومزالق الضعف ومراكز الهوى والشهوات.

(7) ولكي لا يزعم البسطاء من الناس أنّ الرسول يصبح بالرسالة إلها أو نصف إله لم يدع كتاب الله هذه التذكرة .. في أغلب ما حدّثنا عن رسله الكرام إنّه إمّا بيّن نقاط ضعفهم التي يجبرها الله بعصمته أو حالتهم البشرية أو أنّ لله المشيئة في أمرهم حتى عند وعده إيّاهم ، فلا يقدر أحد أن يحتّم عليهم أمرا ، بلى. إنّ الله صادق الوعد ولن يخلف وعده أبدا ، ولكن فرق واسع بين أن يكون كذلك وأن يحتّم عليه أحد من خارج إطار فضله ورحمته ومشيئته شيئا.

هكذا نستوحي من الاية الكريمة هذه التذكرة.

(**إِلَّا ما شاءَ اللهُ**)

كما قال ربنا سبحانه في قصة شـعيب : (**قـالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَـوْ كُنَّا كارِهِينَ* قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللهِ كَـذِباً إِنْ عُـدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْـدَ إِذْ نَجَّانَا اللـهُ مِنْها وَما يَكُـونُ لَنا أَنْ نَعُـودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَـيْءٍ عِلْمـاً عَلَى اللـــهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِـالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ**) [1].

فهل يشـاء الله أن يعـود المؤمنـون إلى ملّة الكفـر؟

وكما قـال ربنا سـبحانه في أصـحاب الجنة : (**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّـماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**) [2].

ويتسـاءل القـارئ : إذا ما هي علاقة علم الله بالسـرّ والعلن بهذا الاستثناء؟ حيث يقول ربنا :

(**إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى**)

والجواب : إنّنا نجد مثل هذه العلاقة في آية الأعـراف في قصة شـعيب إذ أنّه قـال : (**إِلَّا أَنْ يَشـاءَ اللـهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً**) ، ذلك أنّ من بيـده المشـيئة والقــدرة على الاســتثناء هو العليم الــذي لا ينسى ، وهو الذي يحفظ النبي من النسيان ، حسب حكمته البالغة.

ولعلّ هذه الكلمة تتصل بقوله «سنقرؤك» فهو يقرئ ما يشاء لانّه عالم الجهر وما يخفى.

---

(1) الأعراف / 88 ـ 89.

(2) هود / 108.

وقد فصّل المفسّرون القول في هذه الكلمة ، وذهب بعضهم مذاهب بعيدة حيث أنّه قـال : إنّ المـراد بما شـاء الله نسيانه هو ما نسخ من الكتاب نصّا. ولكنّ الاية لا تدلّ عليه ، ولم يثبت تاريخيّا أنّ في القرآن آية منسوخة (بهـذا المعنى من النسخ) ، بل وسياق آيـات القـرآن وهـذه الاية بالذات ينفي ذلك تماما. كيف؟

أولا : إنّ الله سـبحانه يصف كتابه بأنّه كتـاب عظيم ، وأنّه هـدى للعـالمين ، وأنّه نـور مـبين ، وأنّه أخر رسـالة إلهية إلى خلقه ، فكيف يسـمح ربنا لمثل هـذا الكتـاب أن يتعرّض للدس والتزوير والتحريف والنسيان؟

ثانيا : إنّ النبي آمن بهـذا الكتـاب وآمن به المؤمنـون وآمنوا جميعا بهذه الصفات التي نجـدها فيه فكيف تركـوه عرضة للنســيان والتحريف ، علما بــأنّهم أصــبحوا بنّــاء حضارة رائدة ، فلم يتعرض المسلمون ـ كمجموع ـ لحرب إبـادة حـتى يمكن الافـتراض أنّ ظـروف العمل السـري أنستهم بعض ما في كتابهم.

ثالثا : شاعت القراءة والكتابة في عهد الإسـلام الاول ، وقد اهتم المســلمون بكـلّ تفاصـيل تـاريخهم ، وحـتى ببعض ما يهمله عــادة الكتّــاب والمؤرخــون ، وقد رغّب القـرآن في ذلك ، وأقسم بـالقلم وبما يسـطرون ، فكيف ضاعت عليهم كلمات ربهم مع ذلك الاهتمـام الـذي أولـوه لها؟

رابعا : هنا القـرآن يقـول للرسـول ــ صـلّى الله عليه واله ـــ «**سَــنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى**» فأيّة حكمة كــانت وراء الأقراء وعدم النسيان؟ أليست بقاء رسـالة الله الـتي هي خاتمة رسالاته للعالمين؟ فكيف يمكننا أن نفترض تعــرّض هذه الرسالة للتحريف؟

إنني أعتقد ــ انطلاقا من هـذه الشـواهد وغيرها ــ أنّ القرآن الذي بلغنا هو

الذي أنزل من عند الله وبهـذا الـترتيب ، وأنّ الـذي جمعه هو شخص الرسول ـ صلّى الله عليه واله ـ عبر الذي كـان يأمرهم بأن يضعوا الاية في موقعها من السورة حـتى ولو نـــزلت آية في أول البعثة في مكة والاخـــرى في المدينة وفي أخر أيّام حياته.

لانّـني لا أتصـور كيف يمكن للرسـول أن يـترك كتـاب ربه العظيم بلا ترتيب وقد أمر بإبلاغه للعالمين؟!

(8) كما قدّر الله لكلّ شيء تقديرا وهداه إلى تقديره كذلك قدّر للإنسان تقديرا ، وجعل لحياته سننا ومنـاهج ثم هـــداه إليهما ولكن بصـــورة مختلفة عن ســـائر الأشـــياء والأحيـــاء .. فلقد زوّده بالعقل واســـتثار عقله بـــالوحي ، وحمّله الارادة والمسـؤولية ، حـتى يكتشف ببصـيرة عقله وهدى الوحي أيّ السبل تـؤدّي به إلى أهدافه ، فـإن سـار على سـبل السـلام تيسّـرت أهدافه ، وإذا تنكّب عنها وقع في حـرج عظيم. أرأيت الـذي يـترك الطريق المعبّد إلى المتاهـات الـوعرة ، إنّه لا يبلغ أهدافه ، ولو بلغ شـيئا منها فإنّما بجهد مضاعف.

(**وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى**)

لم يخلق الله الإنســان ليعذّبه ، أو ليلهو ويلعب بخلقه ســـبحانه ، ولكنّه خلقه ليرحمه ، وليتفضّـــل عليه بمنّه وكرامته ، كما لم يخلق حيّا ليعذّبه أو يلهو به ، وأمّا الـــذي يقع على البشر من عـــذاب ومن مشـــاكل فبما كســـبت أيديهم. هكـذا فسّـروا اليسـرى بالشـريعة السـمحاء الـتي وفّق الله النبيّ وأمّته إليها لكي يعيشوا بأمان وسكينة.

إنّها الشـريعة الـتي تبعث رؤي وبصـائر الإنسـان من وجدانه ، وتتناسب مع فطرته وحاجاته ، وتنســـــــجم مع الطبيعة من حوله.

إنّ دين الله يختـــار بين منـــاهج المعرفة ذلك المنهج القـائم على أسـاس اسـتثارة الفطـرة ومخاطبة الوجـدان دون لـــفّ ودوران ، ويـــرغّب الإنســـان للنظر بنفسه في الأشـياء ، وملامسة الحقـائق بالسـير في الأرض والتفكر في آثار الغابرين ومراقبة ظواهر الطبيعة.

ويتبع هذا المنهج في سائر ما يحتاج إليه الإنســان من معارف ، في عقائده وأحكامه ، في معاملته مع الآخرين ، لانّ الاطمئنـــان والثقة والعــرف وشــهادة العــدول ورأي الخبراء هي مـوازين التعامل بين النـاس ، وهي إذا قيست إلى غيرها من المناهج المعقّـدة في سـائر الأديـان سـهلة وميسّرة.

كما أنّ أحكام الدين في المواقيت والمكيال والميزان تتصل بالحالة الطبيعية للإنسان. أرأيت كيف أوجب الصلاة قبل طلـوع الشـمس وبعد الغـروب وعند دلوكها ، وأوجب الصيام مع الهلال الذي يشهده الجميع؟

ولم يهمل أيّ حاجة من حـــــوائج البشر ، فلا حـــــرّم الـــزواج ، ولا نهى عن زينة الحيـــاة الـــدنيا ، ولا ضـــيّع العواطف ، ولا أهمل تطلّعات الـروح .. وأيّ شـريعة أيسر من التي تتناسب وحاجات البشر؟

ولعلّ هذا هو سر انتشار الإسلام عبر القرون بصــورة مطّـردة ، ولا يـزال الـدين الاسـلامي هو الاول في نسـبة زيادة عدد المنتمين إليه كل عام.

وقد وفّق الله رسوله ــ صـلّى الله عليه واله ــ لتقبّل الــوحي ، ويسّــره له ، ويسّــر معــارف القــرآن لمن أراد بتوفيق منه ، ولو لا أنّ الله يسّــر ذلك لما اسـتطاع العقل معرفة كلمة واحدة من كلمات الرب.

(9) لانّ الله يسّر شريعته للناس ، ويسّــر الحيـاة لهم بها ، أمر بالدعوة إليها عبر

المنهـاج الميسّـر المتمثل في التـذكرة. أليست التـذكرة تسـتهدف إثـارة العقل وإيقـاظ الضـمير ليبصر الإنسـان الحقيقة بنفسه ومن دون حجاب أو وسيط؟

[فذكّر]

ولكن هل التـذكرة تنفع النـاس جميعا شـاؤوا الانتفـاع بها أم أبـوا؟ كلّا .. إنّها لن تنفع من لا يخشى ، لأنّها إثـارة العقل من داخل الإنسان ، وشرط نفعها استعداد الإنسـان للتـأثّر بها ، أمّا القلب الجامد الجاحد المتصـلّب فإنّه أشد من الصم الصياخيد ، وهكذا قال ربنا :

(**إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى**)

يعني أنّ تذكرتك نافعة مع وجود الشروط الموضوعية لها ، أمّا بدونها فهي لا تنفع ، لا لنقص فيها وإنّما للصدّ من قبلهم ، وهـذا لا يعـني الكف عن التـذكرة إن لم تنفع إذ لا يفهم نفعها أو عدم نفعها إلّا بعدها ، وهـذا مثل أن نقـول : طلعت الشمس إن رأيتها ، هذا واضح إن فكّرت.

وقد اختلف المفسـرون في معـنى الاية ، قـال الجرجاني : التذكير واجب وإن لم ينفع ، والمعنى : فـذكّر إن نفعت الـذكرى وإن لم تنفع فحـذف ، كما قـال : «**سَـرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَـرَّ** ..» ، وقـال ابن عبـاس : تنفع أوليائي ولا تنفع أعدائي ، وقال البعض : «إن» هنا بمعـنى إذ كقوله : (**وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**).

والأقرب : أنّ كلمة «إن» هنا الشرطية في الظـاهر ، ولكنّ المـراد منها هنا ليس ظاهرها ، كما أنّ أداة الاستفهام تطلق ويراد بها التقرير أو الإنكـار أو ما أشـبه ، ولأنّ الذكرى تسبق معرفة نفعها وعدم نفعها فإنّ الشرط إنّما هو لبيان فائدة التـذكرة لا أصـلها ، ويسـتفاد ذلك من السياق الآتي.

(10) التـذكرة للجميـع. إنّها موعظة للمـؤمن ، وحجة بالغة على الكـافر ، والـدليل أنّ المـؤمن يتـذكّر بها ، بينما الأشقى يتجنبها.

(**سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى**)

الخشـــــــية مـــــــيراث المعرفة ، فمن لم يفكّر في المســـتقبل ولم يعش وعيه لا يســـتعدّ له ، فلا يبحث عمّا ينفعه فيه ، ولا يتحذّر ما يضره فيه.

وهكـذا جعلت الخشـية الـتي هي فعل الإنسـان نفسه شرطا لنفع الذكرى. لنعرف أنّ علينا ألّا ننتظر الهـدى من دون سعي منّا إليه ، بلى. لو تقدّمت إلى الله شبرا تلقّـاك رب الرحمة بفضله مترا وأكثر.

(11) أمّا الكـافر الـذي بلغ من الشـقوة درجة سـدّت أبواب المعرفة أمامه فإنّه يتجنبّ التذكرة.

(**وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى**)

فهو يهـــــرب منها كما لو أنّها تضـــــره ، ويضع أمامه حـــواجز لكي لا تصل إليه ، ويلفّق حـــول صـــاحبها التهم عســـاه يقنع نفسه بأنّه على حق ، وهو الأشـــقى لأنّه لا يـــرجى له علاج ، فقد يكـــون الأقل منه شـــقوة ينتفع بالذكرى في بعض ساعات حياته.

(12) ومثل هذا الإنسان لا يصلح إلّا للنار ، لأنّه أعـدم كلّ عناصر الخير في ذاته.

(**الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى**)

ليست كهـذه النـار الـتي نراها في الـدنيا. إنّها أشد وأبقى ، وقد بيّن الحديث

المأثور عن الإمام الصادق ــ عليه السلام ــ مدى الفرق بينهما بالقول : «**إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم ، وقد أطفئت سبعين مرّة بالماء ثم التهبت ، ولو لا ذلك لما استطاع آدمي أن يطيقها**» [1].

(13) والسؤال : كيف يتحمّل جسم الإنسان هذه النار العظيمة فلا يحترق ويصبح رمادا أو غازا كما أصبحت الأشياء التي احترقت بنار القنبلة الذرية ، والتي لا ريب أنّها أقل بكثير من نيران جهنم؟

بلى. ربنا يعطي الجسم المزيد من الإمكانات تمهيدا لتألّم صاحبه. أو لم يقل ربنا سبحانه : (**كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ**)؟

وهكذا يبقى الأشقى في النار بين الموت والحياة ، فكلّ أسباب الموت موجودة ، وكلّ عوامل الحياة مفقودة ، ولكنّه لا يموت بقدرة الله.

(**ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى**)

ومثال ذلك في الدنيا أنّ بعضهم يبتلى بعذاب الدنيا من فقر ومرض وسجن وقلق و.. و.. ولكنّه لا يموت فيستريح ، فيقول مع الشاعر :

ألا ما لنفس لا يموت فينقضي عناها ولا تحيا حياة لها طعم؟

(14) تلك كانت عاقبة الذي يتجنّب التذكرة ، أمّا الذي تذكّر فإنّه يتدرج في معارج السمو حتى يبلغ الذروة ، كيف؟ إنّه بعد التذكر يزكّي نفسه من رواسب الشرك بالله ، فلا يقدّس أحدا سواه ، بل لا يخاف أحدا حقّ الخوف ولا يرجوه حقّ الرجاء ما سوى ربه الأعلى ، ويسعى لتطهير قلبه من حب الدنيا ، والتكاثر منها ، والتنافس على حطامها ، ويتحرّر من الغلّ تجاه إخوانه ومن الحسد

---

(1) تفسير نمونه / ج 26 ـ ص 400 نقلا عن موسوعة البحار ج 8 ـ ص 288.

والحقد والعصبية ، وهكـذا يبلغ الفلاح الـذي يعـني وصـول الإنسان إلى هدفه الأسمى.

(**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**)

إنّه يبحث عن الطهـــارة ، طهـــارة قلبه من رواسب الشـــرك وأخلاقه الرذيلة ، وتطهـــير ماله من الحـــرام ، وحقوق الفقـراء (بما يسـمّى زكـاة بوجه عـام) ، وتطهـير جسده من النجاسات.

ومن هنا جاء في الحـديث المـأثور عن رسـول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه قال (في تفسير الايـة): «**أخـرج زكاة الفطر**» [1].

وبهـــذا التفســـير لكلمة الـــتزكي نجمع بين الآراء المختلفة في تفسـيرها من زكـاة القلب من الشـرك إلى زكاة المال من حقّ الآخرين.

(15) وبعد أن يتزكّى القلب يتلقّى نـور ربه ، فيـذكره بانشراح ، ويصلّي له بخضوع.

(**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**)

وهنا أيضا ذكر الاسم وأريد المســــــــمى ، أوليست الصلاة منه وليست لاسمه سبحانه.

والقلب من دون تزكية لا يتلّقى نور الذكر ، فـإنّ كـلّ عقدة نفسـية أو ضـلالة شـركية أو انحـراف خلقي يشـكّل حجابا بين العبد وربه ، فأنّى لمن يشـــرك بالله أن يعرفه ، وأنّى لمن غمر قلبه بحبّ الـــدنيا وزينتها أن يتفـــرّغ لرؤية جمال الخالق ونعيمه

---

(1) القرطبي / ج 20 ـ ص 21.

في الاخرة؟! أو لم يقولوا : حبّ الشيء يعمي ويصم؟

والصلاة هنا كلّ حالة خشـوع لله ولرسـوله ولمن أمر الرسـول. إنّها التسـليم التـام لله ، ولـذلك جـاء في بعض النصوص تأويلها بصلاة العيد ، وفي بعضـها تأويلها بالصـلاة على النـــبي ــــ صـــلّى الله عليه وآله ــــ بلى. إنّهما معا مظهـران لحالة واحـدة ، فمن سـلّم لله سـلّم لرسـوله ، ومن صلّى صلاة العيد فإنّما يصليها خلف إمام نصبه الله ، وأمر باتباعه الرسول. أليس كذلك؟

هكذا سئل الإمام الصادق ــ عليه السـلام ــ عن قـول الله عز وجل : (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَـزَكَّى**) قـال : «من أخـرج الفطـرة» ، قيل له : (**وَذَكَرَ اسْـمَ رَبِّهِ فَصَـلَّى**)؟ قـال : «**خرج إلى الجبّانة فصلّى**» [1].

وجــاء في حــديث مــأثور عن الإمــام الرضا ــــ عليه السلام ـ أنّه قال (في تفسير الاية): «**كلّما ذكر اسم ربه صلّى على محمّد وآله**» [2].

(16) ما الذي يمنع الإنسان من تواصل ذكر اسم الله والصلاة له والدعاء إليه؟ أليس الله أقرب شـيء إليـه؟ أو ليس أرحم الـــــراحمين؟ أو لم يدعه إلى نفسه ورغّبه في نعيمه؟ بلى. ولكنّ حبّ الدنيا رأس كل خطيئة ، والدنيا قد أحضرت له بكـلّ زينتها وشـهواتها وغرورها وأمانيها ، بينما الاخـــــرة قد غيّبت عنه وادّارك علمه فيها فنســـيها وأقبل على ضرتها.

(**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا**)

فهذه طبيعة بني آدم جميعا إلّا من عصمه الله ، وأقلع نفسه من جاذبية الدنيا ،

(1) نور الثقلين / ج 5 ــ ص 556 (والجبّانة : الصـحراء لأنّ صـلاة العيد تصلى فيها).
(2) المصدر.

وحلّق في سـماء المعرفة .. وإنّما ذكّرنا القـرآن بهـذه الحقيقة لنعـرف أين مكمن الخطر في أمرنا ، وكيف يمكننا تجنّبه؟

جاء في حديث جامع مأثور عن الإمام السجّاد ـ عليه السلام ـ أنّه قال بعد أن سئل : أيّ الأعمال أفضل عند الله؟

«ما من عمل بعد معرفة الله عـزّ وجـلّ ومعرفة رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ـ أفضل من بغض الدنيا ، فإنّ لذلك شعبا كثيرة وللمعاصي شعب ، فأوّل ما عصي الله به الكبر معصية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين ، ثم الحرص وهي معصية آدم وحوّا ـ عليهما السلام ـ حين قال الله عزّ وجلّ لهما : (**فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ**) فأخذا ما لا حاجة بهما إليه ، فدخل ذلك على ذريتهما إلى يوم القيامة. وذلك أنّ أكثر ما يطلب ابن آدم مالا حاجة به إليـه. ثم الحسد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله ، فتشعّب من ذلك حبّ النساء وحبّ الدنيا وحبّ الرياسة وحبّ الراحة وحبّ الكلام وحبّ العلو والثروة ، فصرن سبع خصال فاجتمعن كلهنّ في حبّ الدنيا ، فقالت الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك : حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة ، والدنيا دنيائان : دنيا بلاغ ، ودنيا ملعونة وأمل لا يدرك ورجاء لا ينال» [1].

(17) بلى. إنّما نتسلّى عن الدنيا وزبرجها بذكر الاخرة ونعيمها ، فإذا دعتك إلى الجنس الحرام شهوة وشبق فتذكّر الحور العين فإنّهنّ خير وأبقى ، وإذا استطبت مالا حراما أو طعاما ضارّا فتذكّر فواكه الجنّة ولحومها فإنّها خير لك وأبقى.

(**وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى**)

إنّها الأكمل ، وقدرة الإنسان يومئذ كاملة. إنّك لا تستطيع أن تستمرّ في

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 557.

الأكل إلّا ريثما يمتلأ بطنك ، وإذا أسـرفت فسـوف تصـاب بالتخمة والغثيــان ، ولكنّ أهل الجنة يجلســون على كــلّ مائدة أربعمائة عام لا يملّون ولا يسأمون.

وإنّ شبق الجنس محدود عند البشر ، فإذا قضـوا منه الوطر عافوه ، بينما لكلّ واحد من أهل الجنة عشرات بل مئـات النســاء وأكـثر ويعطى القـوّة لإيتـائهنّ بلا تعب ولا كلل.

وإنّ المرض والهرم والكسل والضـجر والمـوت يهـدّد أهل الدنيا ، بينما الاخرة باقية مع الأبد.

روي عن أبي جعفر الباقر ـ عليه السـلام ـ أنّه قـال : «إنّ أهل الجنّة يحيون فلا يموتـون أبـدا ، ويسـتيقظون فلا ينامون أبدا ، ويستغنون فلا يفتقـرون أبـدا ، ويفرحـون فلا يحزنون أبـدا ، ويضـحكون فلا يبكـون أبـدا ، ويكرمـون فلا يهــانون أبــدا ، ويفكهــون ولا يقطبــون أبــدا ، ويحــبرون ويسـرّون أبـدا ، ويـأكلون فلا يجوعـون أبـدا ، ويـروون فلا يظمــؤون أبــدا ، ويكســون فلا يعــرون أبــدا ، ويركبــون ويـتزاورون أبـدا ويسـلّم عليهم الولـدان المخلـدون أبـدا ، بأيــديهم أبـاريق الفضة وآنية الـذهب أبـدا ، متّكـئين على ســرر أبــدا ، على الأرائك ينظــرون أبــدا ، تــأتيهم التحيّة والتسليم من الله أبدا ، نسـأل الله الجنّة برحمته إنّه على كل شيء قدير»[1].

(18) وهــذه الحقــائق وبالــذات حقيقة الــدنيا ، وأنّها ليست بــدار بقــاء ، وأنّ الاخــرة خــير منها وأبقى ، إنّها لا تخصّ رسالة النبي بل هي في صـحف الأنبيـاء جميعا ، ولا سيما صحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذي يحترمه العـرب كما اليهـود والنصـارى ، وموسى ـ عليه السـلام ـ الـذي يزعم اليهود أنّهم أنصاره ثم ترى العـرب واليهـود يعبـدون الدنيا ، ويزعمون أنّ ذلك من دين الله.

---

(1) موسوعة بحار الأنوار ج 8 ص 220.

(**إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى**)
فلم يكن الرسول بدعا بين إخوانه.
(19) (**صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى**)

وقد روي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ـ بعض ما في هذه الصحف.

جاء في كتاب الخصال : عن أبي ذر ـ رحمه الله ـ قال : دخلت على رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ـ وهو في المسجد جالس وحده فاغتنمت خلوته .. ، قلت : يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال : مائة كتاب وأربعة كتب ، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، قلت : يا رسول الله وما كانت صحف إبراهيم؟ قال : كانت أمثالا كلها ، وكان فيها : أيّها الملك المبتلى المغرور إنّي لم أبعثك تجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنّي بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم فإنّي لا أردّها وإن كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا أن يكون له ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكّر فيها صنع عزّ وجلّ إليه ، وساعة يخلو فيها لحظّ نفسه من الحلال ، فإنّ هذه الساعة عون لتلك الساعات ، واستحمام للقلوب وتوديع لها ، وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه ، فإنّه من حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلّا فيما يعنيه ، وعلى العاقل أن يكون طالبا لثلاث : مرمّة لمعاش ، أو تزوّد لمعاد ، أو تلذّذ في غير محرّم قلت : يا رسول الله فما كانت صحف موسى؟ قال : كانت عبرا كلها ، عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ ولمن أيقن بالنار كيف يضحك؟ ولمن يرى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، ولمن يؤمن بالقدر كيف ينصب؟ ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل؟» [1].

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 561.

سورة الغاشية

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**من أدمن قراءة «هل أتاك حديث الغاشية» في فريضة أو نافلة غشّاه الله برحمته في الدنيا والاخرة ، وآتاه الأمن يوم القيامة من عذاب النار**»

نور الثقلين / ج 5 ـ ص 562

الإطار العام

الدنيا والاخرة مثل كفّتي ميزان ما رجحت إحداهما إلّا على حساب الثانية ، خصوصا إذا فسّرنا الدنيا بأنّها الحيـاة الفارغة عن القيم الإلهية ، فمن اختارها ، وترك الفــرائض ، وتهرّب من المسؤوليات ، وكفر بالرسالة ، فـإنّ له وجها خاشــعا في الاخـــرة ، وعملا ناصــبا ، وكـــدحا متواصلا ، شرابهم في النار من عين آنية ، وطعامهم من ضريع.

ومن اختار الاخرة فإنّ وجهه هناك ناعم ، وقلبه راض ، وعيشته في الجنة ذات سلام وأمن وعين جارية ، وسرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمـارق مصـفوفة ، وزرابي مبثوثة.

يبدو أنّ هذا هو محور سورة الغاشية التي تختم بــذكر الحساب الإلهي الذي ينتظر الناس بعد إيابهم.

سورة الغاشية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**هَـلْ أَتـاكَ حَـدِيثُ الْغاشِـيَةِ (1) وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ
خاشِعَةٌ (2) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (3) تَصْلى نـاراً حامِيَـةً (4)
تُسْـقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَـةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعـامٌ إِلاَّ مِنْ
ضَـرِيعٍ (6) لا يُسْـمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُـوعٍ (7) وُجُـوهٌ
يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (8) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (
10) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (11) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (12)
فِيها سُـرُرٌ مَرْفُوعَـةٌ (13) وَأَكْـوابٌ مَوْضُـوعَةٌ (14)
وَنَمـارِقُ مَصْـفُوفَةٌ (15) وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَـةٌ (16) أَفَلا
يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِـلِ كَيْـفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّـماءِ
كَيْفَ**

---

1 [الغاشية] : هو يوم القيامة لأنّها تغشي الناس بأهوالها.
5 [آنية] : بالغة النهاية في شدّة الحر.
15 [ونمارق] : أي وسائد.
16 [وزرابي] : هي البسط الفاخرة.

رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبــالِ كَيْــفَ نُصِــبَتْ (19) وَإِلَى
الْأَرْضِ كَيْـفَ سُـطِحَتْ (20) فَـذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُـذَكِّرٌ (
21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَـرَ
(23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ
(25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (26))

هل أتاك حديث الغاشية؟

بينات من الآيات :

(1) لولا الوحي ، ولولا آياته التي تطرق أبـواب القلب طرقا عنيفا ، أنّى كان لقلب الإنسان الذي أشـغلته همـوم حياته وأحلامها أن يعي القيامة وأ هو إلها؟ إنّ صفات ذلك اليــــوم تملأ القلب كلّه وتزيد .. ولكنّنا مشــــغولون عنها بالحاضر الذي تتراءى قضـايا كبـيرة ، وهي بالقيـاس إلى ذلك اليوم تافهة جدا.

(**هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ**)

للاسـتفهام وقع كبـير في النفس ، والسـؤال هنا عن حـديث هـام يفـرض نفسه ويأتيك سـعيا لضـخامته ، بينما الأحاديث التافهة تبحث عنها وقد لا تجد لها أثرا .. بلى. إنّه الحـديث عن الغاشـية ، حقيقة تغشى كـلّ شـيء. الـبر والبحر والجبال والأحيـاء .. تحيط بها القيامة ، والسـموات وما فيها تنـوء بها ، فـأنّى لهـذا الإنسـان مـاذا يغشـانا من القيامة؟

أدخانها كما قـال ربنا : (**يَوْمَ تَـأْتِي السَّـماءُ بِـدُخانٍ مُبِينٍ* يَغْشَـى النَّاسَ**) ، أم نارها : (**وَتَغْشى وُجُـوهَهُمُ النَّارُ**) .. ، أم زلزالها : (**إِذا زُلْـزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَهـا* وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها**) .. ، أم صـيحتها ، أم قارعتها ، أم صـاخّتها ، أم كل أهوالها ..؟ بلى. إنّها الغاشـية الـتي لا تدع أحدا يهرب منها ، وإنّها الغاشية التي لا تترك جزء من الإنسان فارغا.

(2) وأبرز ما يغشاه ذلك اليوم الوجه الـذي هو مظهر الإنسان.

(**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ**)

يعلو وجـوههم قـتر وهـوان ، وخشـوع الخيبة والـذل ، لأنّهم لم يخشـعوا في الـدنيا خشـوع الكرامة والعـزة ، ولـذلك نقـرأ في الـدعاء : «**اللهم إنّي أسـألك خشـوع الإيمان قبل خشوع الذلّ في النار**» [1]

(3) ولأنّها تكاسـلت في الـدنيا ، وأهملت واجباتها ، وتهرّبت من المسؤوليات ، فإنّك تراها في ذلك اليـوم في كدح وتعب.

(**عامِلَةٌ ناصِبَةٌ**)

قـالوا : هـذا في الـدنيا ، إذ لا عمل في الاخـرة ، وفسّروا العمل بالدأب في السير والنصب بـالتعب ، ولكن من قال لا عمل في الاخرة ولا نصب؟ بلى. وتحـركهم في صـحراء المحشر وسط ظلام دامس تسـوقهم ملائكة العـذاب ، ويشـهد عليهم ملائكة الحسـاب .. إنّه عمل ناصب.

إنّما عملهم ثمّة بلا فائدة ترجى لهم ، ونصبهم بلا ربح ومكسب ، ولو أنّهم

---

(1) مفاتيح الجنان / من أدعية السحر في شهر رمضان.

أجهدوا أنفسهم في الدنيا قليلا لأعقبتهم راحة طويلة في العقبى ، كما قال الإمام أمير المؤمنين ــ عليه السلام ــ في صفة المتقين : «**صبروا أيّاما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة**»

وفي طائفة من النصوص المأثورة تفسير هذه الاية بأولئك الذين يعملون في الدنيا وينصبون ولكن في طريق خاطئ فلا يكسبون من عملهم نقيرا ، لأنّهم يوالون الطواغيت ، وينصبون لأئمة الهدى ، وتابعيهم [1] ، وروي عن الإمام أمير المؤمنين ــ عليه السلام ــ أنّ هؤلاء هم أهل حروراء ، يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول الله ــ صلّى الله عليه واله ــ فقال : «**تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وأعمالكم مع أعمالهم ، يمرقون من الدّين كما يمرق السهم من الرميّة**» [2]

وهذا تأويل حسن للآية ، بيد أنّ تفسيرها ــ فيما يبدو من السياق ـ أعم وأشمل.

روي عن ابن عباس أنّهم يكلّفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم ، فينصبون فيها أشدّ ما يكون من النصب ، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار ، كما تخوض الإبل في الوحل ، وارتقائهم في صعود من نار ، وهبوطهم في حدور منها [3].

وفي بعض الروايات أنّهم يجدون في طرف جهنم بابا إلى الجنة فما يألون جهدا للوصول إليه حتى إذا اقتربوا منه أغلق دونهم.

---

(1) راجع نور الثقلين / ج 5 ص 563 ـ 564.

(2) القرطبي / ج 20 ـ ص 28.

(3) القرطبي / ج 20 ــ ص 27 وفي المصدر : ارتقائها هبوطها وأظنّها خطأ.

وأنّى كـــان عملهم ونصــبهم فـــإنّهم لو عملـــوا عشر معشار ذلك في الـدنيا لكفـاهم عملا ونصـبا ، ورزقهم الله جنّة ونعيما.

(4) ما عاقبة هـــذا الفريق الخاســـر؟ النـــار الحامية يذوقون حرّها مباشرة ومن دون وقاية. أليسوا قد فجــروا في الدنيا ولم يتقوا نار جهنم فيها؟

(**تَصْلى ناراً حامِيَةً**)

صـلى بالنــار : لزمها واحــترق بها ، والحامية : حــارّة (شديدة الحر).

ولعل كل هـذه الصـفات ذكـرت لكي لا تحتمل النــار التأويل ، فيقـــول البعض أنّ النــــار لا تحـــرق! أو ليست بحــارة! أو بينها وبين الإنســان حجــاب! كلّا .. لا مفـرّ منها ومن لهبها أبدا.

(5) شــدة الحر وتواصل الاحــتراق بالنــار يجعل أهلها في عطش شــديد فيطلبــون المــاء فلا يعطونه ألف عــام وبعده يعرضون على عين آنية.

(**تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ**)

قد بلغت من الحـــــــرارة أناها ومنتهاها ، وقيل : أنّ جهنم أوقدت عليها منذ أن خلقت. هكذا يدفعون إليها وردا شرابا وساءت شرابا وساءت مرتفقا.

(6) وإذا طلبوا طعاما قدّم لهم شيء أمـرّ من الصـبر يسمّى بالضريع.

(**لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ**)

طعام يتضرّع آكله من شـدّة خشـونته ومرارته ونتنـه. إنّه حسبما روي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ـــ :

«**شيء يكون في النار يشبه الشوك ، أشد مرارة**

من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأحرّ من النار سمّاه الله ضريعا» [1]

فهل هو نبتة ناريّة كـالزقّوم ، أم هو عـرق أهل النـار وما يخرج من فروج الزواني كالغسلين ، أم هو شيء آخر ، وإذا كـانت نبتة فكيف لا تحـترق بالنـار ، وإذا كـان عرقا كيف لا يتبخرّ؟

إنّ العـــالم الاخر يختلف عن عالمنا ، وإنّما تتشـــابه الألفـاظ لكي نـدرك ما يمكن أن نـدرك من ذلك العـالم ، وإلّا فإنّ كـلّ شـيء هنـاك مختلف عمّا لـدينا ، فالنـار غـير نارنا ، وجلود أهلها غير جلـودهم هنا ، والعقـارب والحيّـات وشجرة الزقوم ليست كأمثالها في الدنيا التي تحـترق في لمحة بصر لو تعرّضت لنـــــيران جهنم ، كلّا .. إنّها جميعا خلقت لذلك العالم وبمقاييسه ، كما أنّ الزمن هنـاك غـير الـزمن هنا .. وإذا فسّـرنا كلمة من كلمـات القـرآن الـتي توضّـح الاخـرة فليس إلّا تفسـيرا قريبا من واقعها ، وليس تفسيرا دقيقا.

وهكذا الضريع ، وهو في الدنيا ـ كما قالوا ـ : نبت ذو شـوك لاصق بـالأرض ، تسـمّيه قـريش الشّـبرق إذا كـان رطبا ، فإذا يبس فهو الضــريع ، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعـــاه ، وهو سم قاتل ، وهو أخبث الطعـــام وأشـــنعه ، وأنشدوا لبعضهم :

رعى الشبرق الريّـان حـتى إذا ذوي	وعـــاد ضـــريعا بـــان منه النحـــــــــــــائص [2]

(7) وهـذا الطعـام نـوع من العـذاب لأنّه ليس فيه أيّة منفعة من الطعام ، فهو لا يعوّض خلاياهم المفقــودة ، ولا يطفئ لهيب الجوع.

(1) القرطبي / ج 20 ـ ص 30.
(2) ذلك صفة إبل هزيل سيء المرعى ـ راجع المصدر / ص 30.

(**لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ**)

ولو أنّهم اجتنبوا السحت في الدنيا لاتقوا الضــريع في الاخرة.

(8) وفي الجهة الأخـــــرى تجد أهل الجنة كأفضل ما يكونون ..

(**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ**)

منعّمة قد أشرقت وجــوههم بآثـار النعمة حـتى تجلّت نضـــارتها لكـــلّ عين. أو ليست النعمة إذا بلغت كمالها ظهرت في الوجه؟

(9) ويظهر من وجــوههم رضـاهم القلـبي بما عملـوا في الدنيا ، لأنّهم وجدوا عاقبة أمرهم الحسنى.

(**لِسَعْيِها راضِيَةٌ**)

(10) أو تـدري أين هم سـاكنون؟ هنـاك في الأعـالي حيث يتفيّئون ظلال الأشجار.

(**فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ**)

إنّ الجنة في المقام العالي ، بينما النار في الــدركات السفلى.

(11) وإذا اطمـأنّت النفس بالرضا ، والجسد بالفواكه ، والظلال الوارفة ، والمقام السامي فـإنّ الإنسـان بحاجة إلى الأمن الذي يجده هؤلاء في أتمّ صوره ، فلا اعتداء ولا بغي ولا ظلم ولا غش ولا احتيـال ، بل ولا كلمة نابية تنـال مقدساتهم (مثل كلمات الشرك الـتي آذتهم في الـدنيا) أو تنال أشخاصهم (مثل الفحش والسب والغيبة والتهمة وما أشبه) ولا حتى كلمات عبثية (كالتي يتناولها البطّالون

فيتلفون أوقاتهم بلا فائدة) كلّا .. إنّهم في سلام شامل.
(**لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً**)
أي لا تسمع فيها كلمة لغو.
كذلك كانوا في الدنيا ، إذا مـرّوا بـاللّغو مـرّوا كراما ، كانوا لا يتعرّضون لأحد بكلمة بذيئة ، ويتحمّلون أذى الناس كـاظمين عـافين محسـنين ، فجـزاهم الله بحيـاة زاخـرة بالسلام والرضا.
بلى. المؤمنــون يصــنعون لأنفســهم وضــمن بــيئتهم الخاصة وفي حدود إمكانات الدنيا صـورة مصـغّرة للجنة ، يتنعّمون فيها قبل أن ينتقلوا إلى جنة الخلد الأبديّة.
(12) أمّا شــرابهم فإنّه من عين تتــدفّق بين جنّـاتهم الخضراء.
(**فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ**)
ما أروع منظر العين المتدفّقة الـــــتي تجـــــري على الأرض أو فوقها بلا أخدود ـ كما قالوا ـ فيها ألوان الشراب من عسل مصـفّى ، إلى لبن سـائغ ، إلى شـراب طهـور ، وماء مزاجه من تسنيم .. أذلك خير أم العين الانية!
إنّ وعي هـذه النعم في الـدنيا يسـمو بـالمؤمن إلى عدم الاستسلام لإغراء شراب الدنيا الحرام ، والـترفّع عن ملذّاتها المحـدودة ، انتظـارا لما هو أشـهى وأطيب مـذاقا وأعظم.
(13) أعظم لذات البشر مجـالس المؤانسة مع خلّان الصفا بتبادل المحبّة والود والكلمـات السـامية والمعـارف الجديـدة ، ويبـدو أنّ السـياق يحـدّثنا عن جـانب من هـذه المجالس ، فبالإضافة إلى الشراب الذي يدار بينهم يصـوّر لنا السرر المرفوعة التي

يتقابلون فيها.

(**فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ**)

(14) لقد أغنـاهم تعب الـدنيا والكـدح فيها عن التعب هناك ، فاشتغلوا بمجالس الأنس عن النصب الذي يشتغل به أهل النار ، فتراهم يتنـازعون أكـؤس الشـراب الطهـور الموضوعة أمامهم بلا عناء ولا نصب.

(**وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ**)

مليئة بالشراب الطهور.

(15) وهم يتّكئون على وسائد لطيفة.

(**وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ**)

قالوا : النمرق أي الوسادة ، وأنشدوا :

كهــول وشــبّان حســان وجـــــــــوههم
على ســـــرر مصـــــفوفة ونمـــــــــارق

(16) وفي كــلّ جهة تجد البسط الــتي لا خمل لها كالسّجاد ، أنّى شئتها وجدتها وأخذتها لبساطك.

(**وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**)

قالوا : إنّها الطنافس التي لها خمل رقيق.

(17) ليس بين الإنسان وبين فهم الحقائق إلّا حجـاب الغفلة ، فــإذا ما كشف عنه هــذا الحجــاب إذا به يجــدها ظاهرة أمامه .. والقرآن يساعده على ذلك. ألا ترى

كيف يرغّبه في النظر إلى تلك الحقـــــائق المألوفة حوله والتي يغفل عادة عن غيبها ودلالاتها البعيدة ، فيقول :

(**أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**)

فإذا نظروا تماوجت بحار المعرفة أمام أنظارهم. حقّا : إنّ هذه الإبل التي اندمجت بحياتهم حـتى جعلت حيـاتهم وإيّاها نسيجا واحـدا ، وابتـدعوا لها ألف اسم يصـفون فيه كل مراحل وجودها وأغلب صـــــفاتها وحالاتها ، وربما لم يبتدعوا للإنسان مثل هذا العـدد من الأسـماء .. هـذه الإبل التي يمتطون ظهرها ، ويشـربون لبنها ، ويـأكلون لحمها ، ويتــداوون ببولها ، ويصــنعون من أشــعارها وأوبارها بيوتا خفيفة وثيابا وزينة. أفلا ينظرون إليها ليعرفـوا كيف خلقت لتكمّل حياتهم خصوصا في تلك الصحاري القاحلة؟

إنّها من أصـعب الحيوانـات مراسا وقـدرة على تحمّل المشاق. إنّها تحمل أثقالا عظيمة ، وتخوض غمار الـبراري القفر ، وتصـبر أيّاما عديـدة ربما بلغت أسـبوعا أو عشـرة أيّام بلا زاد ولا شراب ، وتتحدّى الأعاصير الرملية بما خلق فيها من قدرة ومن أهداب لمقاومتها!

إنّ أرجلها المفلطحة تسـتطيع أن تطفو على الرمـال الرخوة حتى سمّيت بسفينة الصحراء.

ثم تراها تقتــات الأشــواك الحــادّة ، وتختزنها لحين اجترارها في الوقت المناسب ، كما تختزن المـاء لفـترات طويلة. من الذي خلقها بهذه الطريقة العجيبة؟

ومع ضــخامة جثتها ، وعظم قــدرتها ، تراها خاضــعة للإنسان الضـعيف أليفة وديعة ، حـتى حكيت قصة الفـارة التي سحبت حبل بعير ، فتبعها ظنّا منه أنّها

صاحبه.

وإذا قـارنت الإبل بما يشـابهها من الحيوانـات كالفيل ووحيد القــرن لـرأيت الإبل أعظم منفعة وأقل مؤنة فـإنّ الفيل مثلا لا يؤكل لحمه ، ولا يشرب لبنه.

وننقل هنا بعضا ممّا قاله الدكتور أحمد زكي في كتابه : (في سبيل موسوعة علمية) حين تحدّث عن الجمل :

(ومن تصـــاميم الخلق مواءمة بين حيـــوان وبيئته أن حمل الجمل على ظهـره سـناما ، هو من عضل وشـحم ، وهو يزداد لحما وشحما على الغذاء عند ما يكـثر ويطيب ، حتى إذا خرج الجمل إلى سفر وعـزّه الغـذاء وكـاد ينـذره الجوع بالفناء وجد الجسم فيما حمل من شحم في سنامه غذاء يطول به العيش أياما.

ومن زاد الصحراء المـاء ، ولعلّه أوّل زاد ، وفي جسم الجمل من الاحتياط ما يحفظ به عليه المـاء ، من ذلك أنّه لا يعـــــرف أو لا يكـــــاد ، ومن ذلك أنّ أنفه متصل بفمه ، والفم يحبس ما يخــرج مع هــواء التنفّس من مــاء .. وقد يبلغ ما يشــربه به الجمل ســتين لــترا من المــاء! أفليس بمعدته خزائن ثلاث؟

ويضــيف : وما كــان لغــير الجمل من الحيوانــات أن يقطع الصـحاري ، وتهيّأ الجمل لـذلك بخفّه ، فهو لا يغـرز في الرمل ، وتغرز الحوافر في حمر وخيل.

وتهيّأ الجمل بقوائمه الطويلة القويّة ، فيه صــــــلبة صـلدة تحمل جسـدا ضـخما فوقه سـنام. وأعـان ارتفـاع قـــوائم الجمل على تخطّي ما يعترضه في الصـــحراء من أرض قليلة الإستواء.

وعينا الجمل عليهما رموش ثقيلة ، وهي لمنع الرمـال أن تدخل إلى عينيه عند ما

يغمضـها ، وأذنا الجمل كثـيرة الشـعر ، ولعـلّ هـذا المنع دخول الرمل فيهما ، وأنف الجمل إنّما هو شقّان ضيّقان ، يســــــهل إغلاقهما عند الحاجة ، والجمل يغلقهما حبسا للرمل أن يـدخلهما .. كـلّ شـيء في خلق الجمل يهـدف إلى الرمل يتوقّاه ، من الخف إلى الرأس).

فســبحان الله الــذي خلق الإبل ، وتبّا لمن نظر إليها ولم يعتبر.

(18) حين نقرأ آيات الذكر يخيّل إلينا أنّها ترسم لوحة فنية ، فـإذا ذكـرت الإبل تـذكر بعـدها السـماء ثم الجبـال فالأرض حتى تكتمل الصورة ، بلى. هكذا كتـاب ربنا يصف الحقائق الواقعية كما هي ويجعلنا نعتبر بها.

(**وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ**)

عند ما ينبلج الفجر من الأفق ، وينتشر الضــياء فــوق الروابي ، وتسرع أسراب الطيور بـالتحليق بحثا عن رزقها ، وتستيقظ الطبيعة لتسبّح ربها ، هنالك انظر إلى السـماء كيف جعلها الله ســـقفا محفوظا ، وزرقة وادعة ، وروعة وجمالا.

وعند المغيب حينما تتمــاوج الألــوان الزاهية فـــوق قطعة سـحاب تسـمّرت في الأفق شـطر المغـرب ، إنّها تذهب حقّا بالألباب ، وينتبه الإنسـان يومئذ إلى هـذا البنـاء العظيم فوقه كيف بناه الله ورفعه بلا عمد نراه.

وفي الليل عند ما يســير زورق فضّــي في بحر من الظلام ، وتنتـثر على امتـداد البصر النجـوم الثـواقب ، لا تكـلّ العين من جمالها وروعتها .. هنالك يقـول الإنسـان : سبحان الله.

أمّا إذا جلس المــرء وراء جهـاز تلســكوب لينظر من خلاله إلى الأجرام السابحة في

الفضـاء الـرحيب ، واسـتمع إلى عـالم فلكي يشـرح له المسافات الضـوئية بينها وإلى دقة نظامها فلا يملك إلّا أن يسجد لله القدّوس ويكفر بالأنداد من دونه.

(19) وتنسـاب العين من السـماء إلى الجبـال ليجد الكتل الصـــخرية الهائلة قد نصـــبت في مراكزها لتقي الأرض شرّ الهـزّات والعواصف ، ولتكـون خـزائن الميـاه ، والمعـادن ، ويتسـاءل : ما هـذه الدقة المتناهية في وضع هـذه الصـخور في مواضـعها لو تقـدّمت عنها أو تـأخّرت سبّبت مشاكل عظيمة!

ولو فكّرت كيف تكوّنت الجبال لازددت عجبا.

(**وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ**)

(20) ونظـرة إلى الأرض وطريقة انبسـاطها وتـذليلها وكيف مهّـدها الله للإنسـان بفعل الأمطـار الغزيـرة الـتي غسـلت أطـراف الجبـال وسـوّت الأرض لتكـون صـالحة للسكنى والزراعة.

(**وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**)

وهذه الكلمـات تـذكّرنا بضـرورة البحث عن الكيفية ، ومـيزات وخصـائص كل الموجـودات حولنا ، وأيضا البحث عن العوامل المــــؤثّرة فيها : كيف وبأيّة عوامل ملموسة كانت السماء وكانت الجبال وكـانت الأرض بهـذه الكيفية ، وهكذا يحرّضنا كتاب ربنا على البحث والتنقيب سواء على صعيد العلماء والخبراء أم على مستوى كـلّ فـرد منّا علينا جميعا أن نتفكر ونعقل ولا نكون غـافلين عمّا يجـري حولنا .. إنّ ذلك هو السبيل إلى معرفة الخالق أكثر فـأكثر ، ومعرفة الخالق هي أصل كل خير وفلاح.

(21) الأدلة مبثوثة في أرجـــــــــاء الخليقة ، وعقل الإنسان يكفيه حجة ، ويأتي النبي ـ صلّى الله عليه واله ـــ ومن يتبع نهجه ليقوم بـدور المـذكّر. إنّه ليس مكلّفا عنهم ولا مكرها لهم ، ولا يتحمّل مسـئولية أفكـارهم ، وإنّما هم المسؤولون.

(**فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ**)

فما على الرسول إلّا البلاغ المبين ، حـتى معرفة الله لا تتم إلّا بعقل الإنسان الذي يستثيره النبي بتذكرته.

(22) وليس الرسول عليهم بجبّار ، إنّما يذكّر بالقرآن من يخاف وعيد.

(**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**)

السيطرة هي التسلّط ومعناها الجبر والإكراه.

(23) بلى. الكفّــار الــذي يقــامون الرســالة ، إنّهم يتعرّضـون لسـخط الله وعـذاب عبـاده المؤمـنين ، لأنّهم يسيئون التصرّف في الحرية الممنوحة لهم.

(**إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ**)

وقد اختلف المفسّـرون في معـنى الاية ، ولكن يبـدو أنّ سائر آيات القرآن تفسّر هـذه الاية حيث أنّ من تـولّى عن الحق وكفر به ، ومخـالف الرسـول وناصـبه العـداء ، يجاهد حتى يعود إلى رشده ، وهذا ما نقـرؤه بتفصـيل في آيات الجهاد وفي سورة الممتحنة بالذات.

وقد روي عن الإمـام علي ـــ عليه السـلام ـــ أنّه جيء إليه برجل ارتد فاســتتابه ثلاثة أيّـام فلم يعــاود الإســلام فضرب عنقه ، وقرأ : «**إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ**» [1]

---

(1) القرطبي / ج 20 ـ ص 37.

(24) أولئك الكفّـــار المنابـــذون العـــداء للرســـالة يجاهـدهم المسـلمون فيعـذّبهم الله في الـدنيا بأيـديهم ثم يعذّبهم في الاخرة العذاب الأكبر.

(**فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ**)

(25) وفي نهاية السـورة يـذكّرنا ربنا بالمصـير إليه ، وكيف لا يستطيع أن يهرب أحد من مسئولية أعماله.

(**إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ**)

أي عودتهم.

(26) (**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ**)

يحاسـبهم جميعا كما رزقهم في الـدنيا على كـثرتهم ، فطـــوبى لمن حاسب نفسه هنا قبل أن يحاسب هنـــاك ، وتـــاب إلى الله من ذنوبه قبل أن يجـــازى بهـــا.جـــاء في الحديث المأثور عن الإمام الرضا ـ عليه السـلام ـ : «إذا كان يوم القيامة أوقف المؤمن بين يديه فيكـون هو الـذي يلي حســابه ، فيعــرض عليه عمله ، فينظر في صـحيفته فأوّل ما يرى سـيئاته فيتغيّر لـذلك لونه ، وترتعد فرائصه ، وتفزع نفسه ، ثم يرى حسناته فتقـرّ عينه ، وتسر نفسه ، وتفــرح روحه ، ثم ينظر إلى ما أعطـــاه الله من الثـــواب فيشـتد فرحه ، ثم يقـول الله لملائكة : هلمّـوا بالصـحف الـتي فيها الأعمـال الـتي لم يعملوها ، قـال : فيقرءونها فيقولـــــون : وعزّتك إنّك لتعلم أنّا لم نعمل منها شـــيئا ، فيقول : صدقتم لكنّكم نويتموها فكتبناها لكم ، ثم يثـابون عليها» [1]

أفليس هذا هو المصير الأفضل ، فلما ذا الغفلة؟

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 570.

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ــ عليه السـلام ــ قـال : «**اقــرؤوا ســورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم فإنّها سورة للحسين بن علي ــ عليهما السلام ـ من قرأها كـان مع الحسـين ــ عليه السـلام ــ يــوم القيامة في درجته إنّ الله عزيز حكيم**»

نور الثقلين / ج 5 ص 571

الإطار العام

لكي تتلقّى كلمـــات الـــوحي عليك أن تســـمو إلى مســـتوى التـــدبّر فيها ، والتحسّـــس لنبضـــاتها ، ومتابعة مؤثّراتها ، والتفاعل مع إيقاعاتها .. وبكلمة : لا بد أن تعيشـها بكـلّ ما أوتيت من صـفاء الفـؤاد ، وقـوّة الفكر ، ورهافة الحس.

كـــذلك ســـورة الفجر لا يعيها إلّا من ينـــدمج معها ، ويســلّم قيــاده لكلماتها الــتي تفيض علما وحكمة وحيــاة ونـــورا بها تعـــرج به إلى أفق آخر ، تجعله يـــرى ما حوله بصورة جديدة حتى يتسـامى عن جـواذب المـادة وإصـرها وأغلالها وتطمئن نفسه إلى الله وترضى به ، فــإذا به وهو في الـــدنيا يعـــود بروحه إلى ربه ، ويســـمع هتـــاف ربه : «**ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً**».

ويبدو أنّ هذه هي محور السـورة ، ولكن كيف يتحقّق ذلـك؟ في السـورة ــ فيما يبـدو ــ الإجابة عن ذلك والـتي تتلخّص في نقاط هي بدورها محاور تمهيدية للسورة.

أوّلا : التحسّس برقابة الله وأنّه بالمرصاد حتى يــزداد القلب وعيا وتقوى ،

والسؤال : كيف؟ بالنظر في اختلاف الليل والنهار وحسن تـدبيرهما من الفجر حـتى الليل إذا يسر ، وأيضا بالاعتبـار بمصير أولئك الجبّـارين الـذين نسـوا الله ، ولم يراقبـوه ، فكان ربّهم لهم بالمرصاد ، فصبّ عليهم سوط عذاب.

ثانيا : تزكية القلب من حبّ الـدنيا ، واعتبـار الغـنى قيمة إلهية ، لأنّ عاقبة حبّ الـــــدنيا وخيمة إذ أنّه يمسخ شخصية الإنسـان فيجعله لا يكـرم اليـتيم ، ولا يحضّ على طعام المسكين ، ويأكل التراث جميعا ، ويكاد يعبد المـال لفرط حبّه له.

ثالثا : بتذكّر أهوال الساعة حيث تندكّ الأرض ببعضـها دكّا دكّا ، ويتجلّى الله بعظمته وعدالته وشــــــدّة بطشه بالجبّـارين والمجـرمين ، ويتـذكّر الإنسـان أنّه قد ضـيّع فرصته الوحيدة في الدنيا ، ولم يقدّم شـيئا لحياته ، ولكن لن تنفعه الذكرى.

هنالك يهتف الربّ بـالنفوس المطمئنّة أن ارجعي إلى ربك راضية مرضية. ما أعظمه من نداء ، وما أحسـنها من عاقبة. وفّقنا الله لها جميعا.

سورة الفجر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**وَالْفَجْرِ (1) وَلَيالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (**
3) وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ
(5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (6) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (
7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ
جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (10)

---

5 (حجر) الحجر العقل ، وأصله المنع ، يقال : حجر القاضي على فلان ماله أي منعه من التصرّف فيه ، فالعقل يمنع من المقبّحات ويزجر عن فعلها.

9 (جابوا) قطعوا ، وجاء في مفردات الراغب : الجوب قطع الجوبة وهي كالغائط من الأرض ثمّ يستعمل في قطع كلّ أرض.

10 (ذي الأوتاد) قيل : أي ذي الجنود الذين كانوا يشيدون أمره ، وسمّاهم أوتادا لأنّهم قوّاد عسكره الذين بهم قوام أمره ، وقيل : بل سمّي فرعون بذلك لأنّه كان يشدّ الرجل بأربعة أوتاد على الأرض إذا أراد تعذيبه ويتركه حتى يموت.

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (11) فَـأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسـادَ (12) فَصَـبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَـوْطَ عَـذابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصـــادِ (14) فَأَمَّا الْإِنْسـانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُـولُ رَبِّي أَكْـرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهـانَنِ (16) كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلا تَحَاضُّـونَ عَلَى طَعـامِ الْمِسْـكِينِ (18) وَتَـأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (20) كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَـكُ صَـفًّا صَـفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى (23)

---

14 (لبالمرصـاد) هو المحل الـذي يجلس الإنسـان فيه ليرصد ويـراقب أحوال غيره من حيث لا يرونه ، وهـذا كناية عن أنّه سـبحانه مطّلع على الناس لا يخفى عليه شيء منهم.

16 (فقدر) ضيّق.

19 (لمّـا) اللم الجمع ، ولممت ما على الخـوان المّه لمّا إذا أكلته أجمع ، كأنّه يأكل ما ألّم به ولا يميّز شيئا من شيء.

20 (جمّا) الجم الكثير العظيم ، وجمّة الماء معظمه.

يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيـاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَـذِّبُ عَذابَـهُ أَحَـدٌ (25) وَلا يُوثِـقُ وَثاقَـهُ أَحَـدٌ (26) يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِـــــــيَةً مَرْضِــيَّةً (28) فَــادْخُلِي فِي عِبــادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30))

إن ربّك لبالمرصاد

بينات من الآيات :

(1) الأدب الأصيل البـديع يكثّف حـول القـارئ الظلال والإيقاعـات والإيحـاءات والمعـاريض حـتى تجد نفسك في ســواء الحقيقة من حيث تــدري أو لا تــدري ، وفي ذروة الآداب البديعة نجد آيات الذكر كأنّها بساط سليمان تحملنا إلى آفـاق الحقيقة ، وتجعلنا نشـاهدها ونلامسـها ونعيشـها ونمـتزج بها ، ويعجز القلم عن متابعة لطـائف هـذا الأدب الأسمى لأنّ في اختيار الكلمـات وطريقة تركيبها وجـرس ألفاظها وتماوج معانيها وآفاق بصائرها تيّـار من المـؤثّرات الـتي لم يبلغ الإنسـان مسـتوى إحصـائها ومعرفتها .. هل يمكن لريشة رسّام أن تنقل على القرطاس كلّ مشـاعره من مراقبة الغــروب في الأفق ، وهل هو يســتوعب كــلّ جمال الأفق لحظة غياب الشـمس؟ كـذلك المفسّـرون لا يستطيعون وصف كلّ أحاسيسهم عن لحظات معايشــتهم لآيات الذكر. إنّها حقّا فوق قدرة القلم .. من هنا يعجـزون عن ملاحقة معارفهم التي يسـتوعبونها من القـرآن فكيف يشرح كلّ معارف القرآن وهذا أيضا سرّ

اختلافهم الواسع في العديد من الكلمات والآيـات القرآنية ، وفاتحة سورة الفجر منها حيث اختلفت آراؤهم إلى أكثر من ثلاثين قولا في بعض كلماتها [1].

إذا كيف نفسّـــر هــذه الآيــات ، وكيف نســتفيد من تفاسير الآخرين لها؟

إنّما باتباع منهج التـدبر المباشر ، فـأنت بـدورك تقـرأ القـــرآن وعليك أن تنفتح أمـــام تيّــار المعرفة وموجــات الإبداع وبصائر الوحي في آياته. افتح منافذ قلبك وشـغاف فؤادك وأعرج بنفسك إلى مستوى القرآن .. أو لم تســمع أنّ الله ســـــبحانه قد تجلّى في كتابه لعبـــــاده ولكنهم لا يبصرون؟

بلى. كلمات المفسّرين إشارات مفيــدة على الطريق ، ولكنّها ليست بديلا عن سعيك بنفسك في ذلك الطريق.

وإذا طــويت درب المعرفة بنفسك فــإنّ العلم الــذي تكتســبه ينــوّر قلبك ، ويصــبح جــزء من نفسك ، فــيرتفع مستواك ، وإنّك لا تنساه بإذن الله.

ونعـــود إلى كلمـــات القسم الأولى في الســـورة ، ونتساءل ـ مع من تسـاءل من المفسـرين ـ : ما الفجر ، وما الليالي العشر ، وما هو الشفع ، وما الوتر؟

لأن الكلمـات قسم ، والقسم يهـدف اسـتثارة القلب وطــرق أبوابه المغلقة ، فــإنّ إجمالها قد يكــون مطلوبا ، لأنّه يزيد حالة التهويل والتفخيم.

ولكن بين التفاسير العديـدة يبـدو اثنـان منها أقـرب : الأوّل : عموم المعنى حتى يشـمل أغلب المصـاديق الـتي ذكرت في التفاسـير ، فـالفجر هو الفجر سـواء كـان فجر يوم العيد العاشر من ذي الحجّة أو فجر أول يوم من أيّـام محرم حيث الساعات

(1) نقل العلامة الطباطبائي أن في تفسير الشـفع والـوتر (36) قـولا / راجع الميزان ج 20 ص 279.

الأولى من السنة الهجرية أو فجر الرسـالة أو فجر الثـورة الحسـينية في أرض كـربلاء أو أيّ فجر آخر ينبلج به نهـار يـوم جديد أو حيـاة جديـدة أو مسـيرة جديـدة .. وهكـذا الليـالي العشر تتسع لعشر ليـال من كـلّ شـهر ، وكـذلك الشفع والوتر فإنّهما يتسعان لكل ما شفع أو وتر.

الثـاني : تفسـير الكلمـات بأيّـام الحج من ذي الحجة الحرام ، فالفجر يكون فجر الأوّل من أيّامه أو فجر العيد ، بينما الليـالي العشر هي العشـرة الأولى من هـذا الشـهر الذي يشهد أعظم مسـيرة دينية في السـنة ، وأمّا الشـفع والـوتر فهما يـوم عرفة (باعتبـاره التاسع والتسـعة وتـر) ويـوم العيد (باعتبـاره العاشر والعشـرة شـفع) ، أمّا الليل الـذي يسـري فهو ليلة الإفاضة من عرفـات إلى المشـعر فمنى.

(**وَالْفَجْرِ**)

قسـما بلحظة انبلاج النـور من الأفق حيث ينتظـره الجميع بعد أن أخذوا قسطا كافيا من السبات والراحة.

قسما بلحظة انطلاقة المسيرة الرسالية التي فجّـرت رحم الظلام الجـاهلي فـوق روابي مكة في غـار حـراء مع جلجة الوحي اقرأ اقرأ يا محمد (**اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**).

قسما بلحظة انبعاث الـدم من أوداج السـبط الشـهيد بكــربلاء ليبعث ثــورة الحق ضد ظلام الجاهلية المقنّعة ، وتنطلق المسيرة من جديد.

قسـما بكـلّ لحظـات الانبلاج والانطلاق في مسـيرة البشر بعد تراكم ظلمات الظلم والجهل والقمع والتضليل.

وقسـما بفجر العدالة الشـاملة مع ظهـور شـمس المجدّد الأعظم لرسالة الإسلام

الإمام المهدي المنتظر (عجّل الله تعالى فرجه الـذي وعد الله أن يظهر به دينه الحق على الـــدّين كلّه ولو كـــره المشركون).

قسما بكلّ تلك اللحظات الحاسـمة : انّ الحق منتصر ، وانّ الله للظالمين بالمرصاد.

(2) بعد عشـــرة ليـــال من الجهد المكثّف ، والعمل الدؤوب ، بعد تحمّل وعثـاء السـفر والسـعي إلى مكة من كـلّ فج عميق ، بعد الإحـرام والكـفّ عن الشـهوات ، بعد التطواف والسعي والوقوف بعرفة ثم بالمزدلفة ، بعد كلّ الإجهـاد يـأتي فجر العيد المبـارك ليمسح بأصـابع من نـور الرحمة والبركـات على رؤوس الحجيج ويمنحهم جـائزتهم الكبرى.

وبالرغم من أنّ الليـالي العشر سـبقت الفجر ، إلّا أنّ الفجر هو الهـدف منها ولـذلك سـبقها بالبيـان ، لنعلم أنّ عاقبة العسر يسر ، وأنّ ليالي الجهاد والصـبر والاسـتقامة على ظلم الطغاة ستنتهي بفجر النصر المبين بـإذن الله ، كما تنتهي ليالي الحج بفجر العيد.

(**وَلَيالٍ عَشْرٍ**)

قـالوا : إنّ «ليـال» جـاءت بلا ألف ولام للدلالة على التعظيم ، بلى. وليلة الجهد والتعب طويلة كما ليلة الـترقّب والانتظـار ، وليـالي المؤمـنين مزيجة أبـدا بالجهد المكثّف والانتظار معا فما أطولها.

وقال بعضـهم : إنّ هـذه الليـالي إشـارة إلى العشـرة الأخيرة من شهر رمضان لما فيها من عظمة.

(3) قسما بالشفع والوتر ، بيـوم العيد ومن قبله يـوم عرفة ، وبما هو من العبادات

شفع كركعات الصلاة الثنائية والرباعية ، وبما هي منفـردة كالوتيرة وصلاة المغرب.

قسـما بكـلّ زوجين ، وبكـلّ شـيء منفـرد ، فليـذهب خيالك أنّى شـاء فإنّه لن يجد سـوى زوج أو فـرد فقسـما بكلّ ذلك : إنّ ربك لبالمرصاد.

(**وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ**)

(4) هل وقّفت للحج أو تـــذكرت الإفاضة حيث ينهمر سيل الحجيج من عرفات عبر شعاب الوديان وفوق أكتاف الـروابي نحو مزدلفة مهلّلين مكبّـرين ، وقد تجـرّدوا عن سـماتهم الممـيزّة ، حاسـري الـرؤوس ، معتمـري ثيـاب الإحـــرام البسـيطة ، وأمـــامهم هــدف واحد يبتغونه وهو مرضاة ربهم؟

إنّها حقّا مسـيرة التوحيد ، مسـيرة الوحـدة ، مسـيرة التقوى ، مسيرة الرحمة .. في تلك الساعة لو كنت قادرا على تجريد نفسك من مؤثّرات المسـيرة والنظر إليها من الخارج لرأيت عجبا ، رأيت وكأنّ الأرض والسماء تسـيران ، وأنّ الليل بذاتها تسير معكم.

(**وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ**)

قســـما بتلك الليلة المشـــهودة : إنّ مســـيرة الحق منتصرة لأنّ الله من الطغاة بالمرصاد.

قـالوا : إنّ المـراد من «يسـر» أنّه يسـري فيه ، كما يقال ليل نائم ونهار صائم ، وأنشدوا

لقد لمتنا يا أمّ غيلان في السّـــــرى ونمت وما ليل المطيّ بنـــــائم

ولم يقولوا لماذا ننسب ـ بعض الأحيان ـ الحدث إلى الزمن؟ وأظنّ أنّ ذلك يتمّ عند ما يستوعب الحدث الزمان كلّه ، فالليل النائم هي التي لا ترى فيها ساهرا ، وكذلك النهار الصائم لا تجد الناس فيه إلّا صائمين ، كما قال الله تعالى : «أيّام نحسات» لأنّه لم يكن في تلك الأيّام غير النحوسة.

وهكذا إذا استوعب الحدث المكان سمّي به ، كما قال الله : (**وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ**) ، أي كلّ أهلها.

كذلك الليل هنا كانت تسري ، لأنّ السري استوعبتها.

(5) ألا يكفي كلّ ذلك قسما لمن يملك مسكة من عقل.

(**هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**)

قالوا : معناه لذي لب وعقل ، وانشدوا :

وكيف يرجّى أن تتوب وإنما ... يرجّى من الفتيان من كان ذا حجر

وقالوا : أصل الكلمة من المنع إذ العقل يمنع الإنسان التردّي في الضلال ، وحتى كلمة العقل مأخوذة من ذات المعنى أي المنع والكف فهي من العقال.

ويبدو لي أنّ الحجر أقل قدر من العقل ، وأنّ المعنى ـ على هذا ـ : هل في هذا القسم كفاية لمن يملك عقلا أنّى كان قليلا؟ والله العالم.

(6) إذا كنت ممّن يكتفي بالقسم ويكتشف الحقائق بعقله بعد أن يذكّر بها فقد جاءك ما يكفي من القسم.

إلّا أنّ البعض لا يعي الحقائق إلّا بالمزيد من الشواهد ، وبالذات العبر التاريخية

التي تهزّ الضمير هزّا ، وحتى ذوي العقول إذا استمعوا إلى تلك العبر ازدادوا يقينا ، وهكذا ساق القرآن طائفة من تلك العبر وأجملها لأنّه كا قد فصّلها في مواضع أخرى وقال :

(**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ**)

إنّها حقائق مشهودة ترى بالعين المجردّة ، وكلّما كانت الحقيقة واضحة استخدم مثل هذا التعبير «ألم تر».

(7) من هم عاد؟ إنّهم عاد الأولى من قبيلة إرم أو الذين سكنوا قرية إرم فبنوا القصور العالية.

(**إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ**)

قال بعضهم : إرم جد عاد ، وقال آخر : إليه يجتمع نسب قبيلة ثمود أيضا ، وقال ثالث : إنّ معنى إرم القديمة ، وأصلها من الرميم حيث أنّ هناك عادين الأولى وهي القديمة التي قال عنها ربنا : (**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى**) [1] ، وقال بعضهم : إنّ الكلمة ليست اسم أشخاص بل منطقة كان يسكنها قوم عاد ، ولا يتنافى أن يكون الاسم مشتركا بين القبيلة وأرضهم حيث كانت العادة تقضي تسمية الأرض باسم أهلها .. فتكون كلمة ذات صفة لإرم تلك المدينة التي سكنتها عاد ، وكلمة العماد بمعنى الأبنية المرتفعة المرفوعة على العمد ، ولذلك قالت العرب : فلان طويل العماد إذا كان منزله معلما لزائره.

(8) تلك القبيلة الشديدة التي راجت حولها الأساطير ، وتلك المدينة ذات العمد التي لم يكن لها مثيل في بلاد العالم ذلك اليوم .. ألم تر كيف دمّرت عليهم؟

(1) النجم / 50.

(**الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ**)

وإنّما يبـني الإنسـان المـدن لصـيانة نفسه من أهـوال محتملة من اعتـــداء مفـــاجئ أو ســـيل منهمر أو زلازل وانهيارات أرضية أو ما أشـبه ، والـذي يدفعه إلى ذلك كلّه تهرّبه من المـوت ومن عاقبة أعماله ، ولكن تلك الجهـود تنفعه ما لم يأت قدره ، فإذا جاء القدر فأين المفر؟

إنّ المدينة وبالـذات إذا كـانت بمسـتوى مـدن عـاد العظيمة علامة بـارزة لحضـارة الإنسـان حـتى سـمّيت الحضارة بالمدينة ، لأنّها رمز تعاون بنّاء بين مجاميع كبيرة من الناس ، وسيادة نوع متقدّم من القـوانين عليهم ، كما أنّها تأتي نتيجة تراكم تجارب وجهـود عظيمة يتوارثها أهلها جيلا بعد جيل .. ولكنّها عرضة للـدمار الشـامل إذا تسـلّط عليها المترفون ، ووجّهوها عكس مسيرة الخير والفضـيلة ، واتخـذوها وسـيلة للبطش بـالآخرين ، كما فعلت عـاد فـدمّرها الله شـرّ تـدمير ، فـأين الأحقـاف الـتي كـانت مساكنهم بين اليمن وحضرموت ، وأين قبورهم وآثارهم؟

(9) كذلك ثمود الذين سكنوا شمالي الجزيـرة العربية بين المدينة والشـام ، فشـيّدوا لأنفسـهم القصـور الـتي اقتطعوها من الجبـــــال المحيطة وحفروها أيضا ملاجئ ومخازن لهم .. إنّ مصيرهم كان أيضا الدمار.

(**وَثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ**)

جابوا : أي قطعوا ، ويقال : يجـوب البلاد أي يقطعها ، والوادي : المسير بين الجبال.

(10) وكـانت عـاد وثمـود وقصة إبـادتهم معروفة عند العرب في الجزيرة ، لأنّهما كانتا في طرفي الجزيرة ، أمّا آل فرعون فقد كانت قصتهم مشهورة عند الأمم ، لأنّها

كـانت ذات صـبغة عالمية ، وقد سـمعتها العـرب من أهل الكتاب الذين اتصلوا بهم ، وقد فصّلها القـرآن تفصـيلا في مواقع كثيرة ، وأجملها هنا بكلمات فقال :

(**وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ**)

قـالوا : أوتـاده أركـان سـلطته من جنـود وعسـاكر وأموال وأساليب قهر وسلطان ، وقـال بعضـهم : بل كـان يعـذّب النـاس بالأوتـاد حيث يشـدّهم بها إلى أن يموتـوا ، وهكذا فعل بآسية زوجته وماشطة ابنته ، وقـال بعضـهم : بل الأهرامـات الـتي تشـبه الوتد في الأرض .. وأنّى كـان فقد زعم أنّ تلك الأوتاد تنقذه من مصيره.

(11) ويبدو أنّ المراد بفرعون هم آل فرعون ، أو هو وأوتاده الذين أيّدوه ، فلذلك قال عنهم ربنا سبحانه :

(**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ**)

ذلك أنّ للإنسان قدرة محدودة لتحمّل ضغوط التملّك ، فمن النـــاس من تبطـــره نعمة تافهة ، ومنهم من إذا امتلك الـــدنيا يظل قـــادرا على التصـــرف بحكمة ورشد ، وإنّما يرتفع الإنســـان إلى مســـتوى ضـــبط النعم وعـــدم الوقوع في أسـرها والاسترسـال مع رياحها إذا كـان مؤمنا بالله وبـاليوم الاخـر. وآل فرعـون أبطـرتهم النعمة ، فلمّا رأوا النيل يجـــري في بلادهم بـــالخيرات ، وقد دانت لهم الشـــعوب المستضـــعفة من حـــولهم ، وقد عرفـــوا بعض العلوم الجديدة في فنّ العمارة والزراعة وتحنيط الأموات وما أشبه فاستكبروا في الأرض وطغوا.

(12) وهكذا ركبوا مطيّة الطغيان الجامحة ، وأسـكتوا الأصوات المعارضة ، وتسلحوا بمنطق القوة ، واتبعوا نهج الدجل والتضـليل ، وأصـبحت السـلطة مركـزا لكـلّ فاسد مفسد ، منـــافق متملّق ، قـــوّال كـــذّاب ، محبّ لنفسه ، معقّد من الناس ،

ويـدأوا رحلة النهاية إذ أخـذت السـلطة تنشر الفسـاد في الأرض بدل الصلاح ، والظلم بدل العدالة.

(**فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ**)

(13) حتى إذا طفح بهم كيل الفساد ، وجاءهم النـذير فهمّوا به ليقتلوه ، هنالك نزل عليهم العذاب الشديد.

(**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ**)

جاء العذاب كما السيل المنهمر يصب عليهم من عـلّ انصـبابا فـأين المفـر؟ وكـان كلـذع السـوط وسـرعته ، يسوطهم فيخالط لحمهم ودمهم.

قالوا : العرب كانت تسمّي العـذاب الشـديد سـوطا ، وقيل : بل أصل معـنى السـوط خلط الشـيء بالشـيء ، ولأنّ العذاب الشديد يخالط اللحم والدم يسمّى بالسوط.

وقـال السـيّد قطب في هـذه الاية : هو تعبـير يـوحي بلـذع العـذاب حين يـذكر السـوط ، وبفيضه وغمـره حين يــذكر الصب ، حيث يجتمع الألم اللّاذع والغمــرة الطاغية على الطغاة الذين طغوا في البلاد [1].

وهكذا جاءت نهاية عاد وثمود وآل فرعون واحـدة لأنّ أعمـــالهم كـــانت متشـــابهة بـــالرغم من اختلاف بلادهم وعصورهم وسائر تفاصيل حياتهم والجرائم التي ارتكبوها.

(14) قســما بأيّــام المســيرة الكــبرى ، بفجر العيد وليالي الإحرام ويوم العيد ويوم

---

(1) في ظلال القرآن / 890 ص 572.

عرفة وبليلة الإفاضة ، وعلى هــدى تلك العــبر التاريخية : إنّ الله يقف للطغاة والمجرمين بالمرصاد.

(**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ**)

الجيش المعادي يسير بين شعاب الوادي بكلّ غرور ، وقوّات الـدفاع قد اتخـذت مواقعها خلف صـخور السـفوح وفوق مرتفعـات الجبل ، وفي مثل لمح البصر تقع الواقعة ، ويتبخّر غرور الجيش ويتلاشى.

كذلك أعداء الله يأخذهم في ساعة غرورهم وغفلتهم لأنّ ربك بالمرصــاد .. وهم عنه غــافلون ، ومن ســطواته آمنون.

تلك هي ذروة الســورة فيما يبــدو ، ومحـــور آياتها ، وخلاصة دروســـها ، فمن وعى هـــذه الحقيقة ، وخشي سطوات الله ، ولم يأمن مكره؟ ومن اتقى أخذه الشــديد في ســاعات الغفلة ، وكلّما همّ بمعصــية أو فكّر في ظلم أحد فكّر في نفسه : أو ليس الله يراقبني وهو بالمرصاد؟ من إذا همّ بظلم أحد تـــذكّر القهّــار العظيم الـــذي يأخذ الظــالمين بشــدّة ، وإذا تمــادى في الظلم ولم يــنزل به العـذاب تـذكّر أنّ ذلك قد يكـون كيـدا متينا له حـتى يؤخذ بشدة.

جـاء في الـدعاء المـأثور عن الإمـام السـجّاد ـ عليه السلام ـ :

«**اللهمّ صــــلّ على محمّد وآل محمّد ولا أظلمنّ وأنت مطيق للـدفع عـني ، ولا أظلمنّ وأنت القـادر على القبض مني**» [1].

وقال الشاعر :

---

(1) مفاتيح الجنان / دعاء مكارم الأخلاق.

تنام عيناك والمظلوم منتبه يـــدعو عليك وعين الله لم تنم

وأمّا المظلـوم والمستضـعف والثـائر المقهـور فـإنّهم جميعا يزدادون أملا واسـتقامة وتحـدّيا عند ما يعرفـون أنّ الله من الظــالمين بالمرصــاد ، فلا ينهزمــون نفســيّا ولا يستسلمون.

(15) لكي يتســامى الإنســان عن حتميّــات المــادة ومؤثّراتها الضاغطة ، ولكي يبقى مالكا للدنيا متصرّفا فيها لا مملوكا لها مسترسلا معها ، وبالتـــــــالي لكي لا تطغيه الـثروة والسـلطة وتجـرّه إلى الـترف والفسـاد ، يبصـرّنا الــذكر بحكمة المــال والقــدرة المتمثلة في اختيــار إرادة الإنسان وتجربة معدنه ومدى صبره على إغرائها وانسيابه مع جاذبيتها.

وليست الثروة دليل كرامة الإنســان عند الله واجتبائه من لدنه ، فلا يسـتبد به الغـرور فـيزعم أنّه على حق ، ثم يتســـــافل فـــــيزعم أنّه بذاته الحق ، ثم يبلغ به الســـــفه والطغيان إلى الزعم بأنّه الرب الأعلى!

كلّا .. الثروة مادة اختبــار ، وعلى الإنســان أن يتخلّص من إغرائها بإنفاقها والتقيّد بالحدود الشرعية في جمعها.

(**فَأَمَّا الْإِنْســانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَـهُ وَنَعَّمَـهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**)

بلى. الــــثروة بــــذاتها نعمة وكرامة ولكنّها في ذات الوقت ابتلاء واختبار ، وهذا هو الخط الفاصل والدقيق في ذات الـــوقت بين البصــيرة الإلهية والتصــوّر البشــري ، فليست الـــــــثروة رجسا ، وليست كرامة دائما ، بل هي حقيقة بلا هوية بلا صــبغة ، وإنّما تكتسب هويتها وصــبغتها من طريقة تصرّف الإنسان فيها.

(16) كما أنّ الفقر ليس بذاته نقمة ، وإنّما النقمة الاستسلام له ، والإعتقاد بأنّه دليل مهانة عند الله.

(**وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ**)

وكـانت حكمة ضـيق الـرزق ابتلاءه ، تـراه فقد ثقته بنفسه ، وزعم أنّه رجل مهان منبوذ ، وأنّ واقعة لا يتغيّر.

(**فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ**)

كلّا .. الفقر ليس إهانة ، بل هو اختبـار ، وربّ فقـير ذي طمـرين لا يؤبه به عند النـاس لو أقسم على الله لأبّره.

أليست الثروة قد تكـون على طـرق غـير مشـروعة ، بل عادة تكون كذلك؟

أوليس الفقر قد يكـون لأسـباب خارجة عن إرادة الإنسـان كـأن يولد الإنسـان في بلد فقـير ومن أبـوين معـدمين؟ فكيف تكـون الـثروة مقياسا للكرامة الإلهية ، وتتحـوّل بـذاتها إلى قيمة مقدّسة ، ويصـبح الفقر معيـارا للهوان عند الله ، أداة لتذليل الإنسان وتصغيره؟

(17) كيف يتخلّص الإنسـان من جـواذب المـادة وأثقالها؟ بإكرام الضعفاء ، والإنفاق عليهم ، وعدم انتهـاب أموال المحرومين.

أولئك الذين جعلوا المادة قيمة تراهم ممسوخين عن الفطرة السليمة ، فلا تجدهم يكرمون اليتيم الذي يسـتثير الرحمة والعطف عند البشر السـويّ ، أنّى كـان دينه ومستواه.

(**كَلَّا**)

ليس كما تزعمـون أنّ الغـنى دليل كرامة الفـرد عند الله ، وأنّ الفقر دليل هوانه ، إنّما هما ابتلاء وفتنة.

(**بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ**)

وهـذا عاقبة المجتمع المـادي المـرتكس في أوحـال المـادة وعبـادة الـثروة وإكـرام الغـني لغنـاه .. فهل هـذه العاقبة تنسجم مع العاطفة الإنسانية ، وهل يقبلها وجـدان بشر أنّى كان؟ كلّا .. إنّ بني آدم مفطـورون على العطف على الضعيف ، وبالذات الطفل الذي يفيض براءة وطيبا ، وإذا كـان الطفل يتيما لا يملك قـوّة ذاتية يـدفع عن نفسه الأخطـار والأطمـاع ، ولا حاميا يقيه الشـرور ، ولم يحظ بالقدر الكافي من العطف الأبوي ـ إنّه يذيب القلب حنانا ـ فما أقسى قلب من يهينه ويجافيه؟

كلّ ذي وجدان يحكم بأنّ المجتمع الـذي يقسـوا على اليتيم مجتمع ممسوخ منكـوس ، وأنّ قيمه باطلة ونظامه فاسد.

وذلك مقيـاس سـليم وفطـري يبيّنه القـرآن في المعرفة ، حيث أنّه يـدلّنا على عاقبة النظـام لمعرفة صـلاحه أو فسـاده ، فإنّنا لا نسـتطيع أن نحكم على نظـام اجتماعيّ بادّعاءاته أو شـعاراته ، ولكن نحكم عليه بعاقبته ، فإن وافقت وجداننا الإنساني وانتهى إلى حماية الضعيف وإكـرام اليـتيم والإنفـاق على المحتـاج وما أشـبه نعـرف صلاحه.

وهكـذا بالنسـبة إلى كـلّ شـيء لا تـدرس بدايته بل راقب نهايته وعاقبته ، حتى تعرف طبيعته.

(18) في المجتمع الجـاهلي حيث يصـبح المـال قيمة يعيش المعدمون الذين أسكنتهم الفاقة في عناء كبير ، إذ لا يشجّع الناس بعضهم للاعتناء بهم.

(**وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ**)

من هو المســــــكين؟ إنَّه بشر مثلي ومثلك أقعدته عوامل قـاهرة عن اكتسـاب رزقه ، ألا ترحمـه؟ تصـوّر لو كنت ـ لا سـمح الله ـ مثله كيف كنت تتوقّع من النـاس؟ أليس من الممكن أن تصـبح أنت أو واحـدا ممّن تحبهم مسكينا ، فهل ترضى أن يطوي ليله جائعا ، ويعيش الناس من حوله التخمة؟ وهل يرضى بذلك إنسان ذو ضمير؟

إنّ أقلّ ما نقدّمه للمسكين الطعام .. إنّه حقّ البهـائم والنباتات فكيف بمن هو نظير لنا في الخلق؟!

وقد ذكر الـرب أنّهم لا يـأمرون بعضـهم بإطعـام المسـكين لبيـان انتكـاس المجتمع عن قيم الإنسـانية ، فربما منع الواحد بخله عن إطعام المسكين ولكنّه مستعد لأمر غيره بذلك ، بل نرى البخيل عادة يتمنّى لو أنّ غـيره تكفّل عنه بإطعـام المحتـاج ، أمّا إذا تـردّى المجتمع إلى عـدم حضّ بعضـهم على إطعـام المسـكين فقد هبط إلى أسفل السافلين. وهذه هي نهاية اعتبار الغنى كرامة إلهية والفقر ذلّا وهوانا.

(19) والأسوء من ذلك أكلهم التراث ، والتهام أمـوال اليتـامى جميعا ، حـتى إذا كـبروا لم يجـدوا أمـامهم إلّا الحرمان والحسرة.

(**وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا**)

قـالوا : «لمّـا» يعـني جمعا ، ومنه قـولهم : لمّ الله شـعثه أي جمع ما تفـرّق من أمـوره ، ولعل هـذه الكلمة تشـير إلى الإسـراع في أكل الـتراث لئلّا يكـبر أهله فيطالبون به ، كما قـال سـبحانه : (**وَلا تَأْكُلُوها إِسْـرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا**) [1].

(1) النساء / 6.

(20) وهكذا ينحدر الذي يـزعم أنّ الـثروة هي أقصى كرامة عند الله إلى درك عبــادة المــال ، والانســياق مع مصادره ومن يملكه من المترفين.

(**وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا**)

أي حبّا كثيرا ، ومنه : جمّ الماء في الحوض إذا اجتمع وكثر ، وأنشدوا :

إن تغفر اللهمّ تغفر جمّا وأيّ عبد لك ما ألمّا

هـذه هي ملامح المجتمع الـذي يقـدّس المـال. إنّه لا يكــرم اليــتيم الــذي يســتدّر عطف كــلّ بشر ، ولا يأبه بمسكين ، ويسترسل مع المال.

(21) إذا تجب مواجهة هــذه القيمة الشــاذّة الــتي تحسب الكرامة في الــثروة ، والهــوان في الفقر ، ولكن أنّى يســـتطيع الإنســـان التســـامي من أرض خلق منها وعجنت طينته بحبّها وحبّ شـهواتها وزينتهـا! بلى. إذا آمن بالله ، وتطلّع إلى لقائه ، وعرف أنّ الحيـاة حقّا هي حيـاة الاخرة .. آنئذ تعـزف نفسه عن الـدنيا ، ويقـدّم من جهـده وماله لبناء مقرّه النهائي في الاخرة.

من أجل هـذا يصـوّر لنا السـياق مـدى الحسـرة الـتي تشمل الناس الـذين لم يعمـروا حيـاتهم الاخـرة ، وأذهبـوا طيباتهم في الدنيا تلك اللحظات الزائلة الـتي سـرعان ما تبخّرت ولم تخلّف لهم سـوى النـدم والحسـرات في يـوم الزلزال الكبير.

(**كَلَّا**)

ليست الدنيا نهاية المطاف ، وليست الثروة قيمة عند الله ، وليست تصـوّراتهم عن أنفسـهم صـحيحة .. ومـتى يتجلّى لهم ذلك؟ إنّما عند قيام الساعة.

(**إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا**)

فــإذا بالأبنية الــتي هي نتيجة تراكمــات جهد الملايين تنهار بفعل الزلـزال الـرهيب الـذي يـدكّ الأرض فيسـوّيها ويدعها قاعا صفصفا.

قــــالوا : أي زلــــزلت الأرض فكسر بعضــــها بعضا وتكسّرت الأشـياء على ظهرها ، وقـال بعضـهم : بل دكّت جبالها وأنشازها حتى استوت.

وأنّى كــان فــإنّ الأرض تنبسط كــالأديم لا تــرى فيها عوجا ولا أمتا ، ولا حفــــرة ولا ارتفاعــــا. فهل تبقى يومئذ قيمة لعقار أو ركاز أو ذهب وفضّة؟!

(22) هنالك يتجلّى الـربّ بعظمته للعـالمين ، فلا أحد يقدر على الهرب من سـطوته أو الشك في قهـره وقدرته ، حيث ترى الملك صافّين ينتظرون أوامره.

(**وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**)

أيّ آية عظيمة من آيـــات الله تتجلّى تلك الـــتي عبّر القــرآن عنها : «وجــاء ربــك»؟ لست أدري ، ولكنّه يــوم عظيم لا يمكننا ونحن نعيش حــــدود الـــدنيا الضــــيقة أن نتحسّس آفاق عظمته.

(23) إلّا أنّ من معـاني شـهود الله حضـور تلك القيم الـتي أمر بها ، وتلاشي قيم الزيف والضـلال الـتي امتحن الناس بها في الدنيا .. لذلك فـأوّل ما يـؤتى بجهنّم سـجن المجرمين الرهيب.

(**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ**)

أين جهنم اليوم ، وكيف يؤتي بها ذلك اليـوم؟ هل هي كرة ملتهبة عظيمة

كالشـمس وأعظم منها ، حـتى أنّ الشـمس حين تقع فيها تصيح من شدّة حرّها ، أم ماذا؟ لا نعرف ، ولكن جـاء في رواية مأثورة عن أبي جعفر (الباقر) ــ عليه السـلام ــ أنه قـال : «لمّا نـزلت هـذه الاية : «**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ**» سئل عن ذلك رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ــ ، فقـال : بذلك أخـبرني الـروح الأمين أنّ الله لا إله غـيره إذا بـرز الخلائق وجمع الأوّلين والآخــرين أتي بجهنّم يقــاد بــألف زمام يقودها مائة ألف ملك من الغلاظ الشـداد ، لها هـدّة وغضب وزفير وشهيق ، وإنّها لتزفر الزفـرة فلو لا أنّ الله أخّــرهم للحســاب لأهلكت الجميع ، ثمّ يخــرج منها عنق فيحيط بالخلائق البرّ منهم والفاجر فما خلق الله عبدا من عباد الله ملكا ولا نبيّا إلّا ينادي : ربّ نفسي نفسي ، وأنت يا نبيّ الله تنادي : أمّـتي أمـتي ، ثمّ يوضع عليها الصـراط أدقّ من حدّ السيف ، عليها ثلاث قناطر فأمّا واحدة فعليها الأمانة والرّحم ، وثانيها فعليها الصـلاة ، وأمّا الثالثة فعليها ربّ العــالمين لا إله غــيره ، فيكلّفــون الممــرّ عليهم فيحبسهم الرحم والأمانة فإن نجوا منها حبستهم الصـلاة ، فإن نجوا منها كـان المنتهى إلى ربّ العـالمين ، وهو قوله : (**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ**) ، والنـاس على الصــراط فمتعلّق بيد ، وتــزول قــدم ، ويستمسك بقــدم ، والملائكة حولها ينادون : يا حليم أعف واصفح وعد بفضـلك وسـلّم سـلّم ، والناس يتهـافتون في النـار كـالفراش فيها ، فـإذا نجا نـاج برحمة الله مــــــرّ بها فقــــــال : الحمد لله وبنعمته تتمّ الصالحات وتزكوا الحسنات ، والحمد لله الذي نجّاني منك بعد إياس بمنّه وفضله إنّ ربّنا لغفور شكور» [1]

وفي حديث أخر إضافة رهيبة حيث يقـول الرسـول ــ صلّى الله عليه واله ـ : «**جاء جبرئيل فأقرأني «وجيء يومئذ بجهنّم**» فقلت : يجاء بها؟ قال : يجيء بها سبعون ألف يقودونها بسبعين ألف زمام ، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت

(1) بحار الأنوار / 860 ص 193.

أهل الجمع!!» [1]

(**يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى**)

لا تنفعه الذكرى بعد فوات أوانها.

(24) ماذا يتذكّر؟ يتذكّر طيّباته التي بدّدها فيما زالت ، يتـذكر شـبابه الـذي أبلاه في شـرّة السـهو والتباعد عن الـرب ، يتـذكر أمواله الـتي جمعها من غـير حـلّ ، وأنفقها في غـير رضا الـرب ، يتـذكّر أوقاته الـتي أفناها في اللهو والغفلة والإشتغال بالتوافه ، وكل ساعة منها كان يستطيع أن يحصل بها على ملك كبير في الاخرة!

(**يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي**)

إنّها تلك الحياة حـقّ الحيـاة ، الحيـاة الخالـدة الـتي لا تزول.

(25) هنالك العـذاب الإلهي الـذي يتجلّى به الـرب ، والوثاق الإلهي الذي يتجلّى به غضبه.

(**فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ**)

لا أحد يعذّب كالله ، لأنّه الأعظم الأكبر الذي لا يقـاس أيّ شيء منه بأيّ شـيء من خلقـه. وإنّ الإنسـان ليهـرب من عـذاب الـدنيا ولا يعـرف أنّ عـذاب الله في الاخـرة لا يقاس ببعض الأذى في الدنيا.

جاء في دعاء أمير المؤمـنين علي ـ عليه السـلام ـ :

«**وأنت تعلم ضـعفي عن قليل من بلاء الـدنيا وعقوباتها وما يجري فيها من المكـاره على أهلها ، على أنّ ذلك**

---

(1) تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 576.

بلاء ومكروه قليل مكثه ، يسير بقاؤه ، قصير مدّته ، فكيف احتمالي لبلاء الاخرة وجليل وقوع المكاره فيها؟! وهو بلاء تطول مدّته ، ويدوم مقامه ، ولا يخفّف عن أهله ، لأنّه لا يكون إلّا عن غضبك وانتقامك وسخطك ، وهذا ما لا تقوم له السموات والأرض ، يا سيدي فكيف بي وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين؟!»[1]

(26) كما لا شيء يشبه سجن الله ووثاقه.

(**وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ**)

أي لا يشدّ أحد وثاقا بذات الشدة التي يشدّ الله وثاق الكفّار.

(27) أهذا خير أم مصير المؤمنين الذين قدّموا لحياتهم فعمروا آخرتهم ، فاطمأنت نفوسهم بسكينة الإيمان ، وتساموا فوق مؤثّرات المادة ، فربما ملكوها ولكنّها لم تمتلكهم أبدا ، فعاشوا أحرارا ، وماتوا سعداء ، إذا استقبلهم ملك الموت فبترحاب ، ونودوا في أوّل ساعة من حياتهم الأبدية بالبشرى.

(**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**)

يعيش المؤمن بين الخوف والرجاء ، فإن دعاه إلى الخوف إحساسه بالتفريط في جنب الله ، فقد دعاه إلى الرجاء يقينه بعظيم عفو الله وواسع رحمته. وكل خوفه من العاقبة السوئى ، ومن ألّا يتقبّل الله حسناته ، ولا يتجاوز عن سيئاته ، ومن أن يتبيّن في ساعة الرحيل أنّ حساباته كانت خاطئة ، وأنّه ليس كما كان يرجو من أصحاب الجنة. أو لم تسمع مناجاة الإمام السجّاد علي بن الحسين ـ عليه السلام ـ : «**ليت شعري أللشقاء ولدتني أمّي أم للعناء ربّتني ، فليتها لم تلدني ولم**

(1) مفاتيح الجنان / دعاء كميل.

تربّـني ، وليتـني علمت أمن أهل السـعادة جعلتـني وبقربك وجـــوارك خصصـــتني فتقر بـــذلك عيـــني وتطمئنّ له نفسي» [1]

(28) فـإذا جـاءه النـداء الإلهي عند وفاته : (**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**) اسـتراح ، وشـملته البشـرى ، وعمّه الفرح .. هنالك يستطيب المـوت لأنّه عـودة العبد الكـريم إلى الربّ الرحيم الذي يستضيفه بالقول :

(**ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً**)

لقد اطمأنت أنفسهم إلى بارئها ، وتوكّلـوا على الله ، وسلّموا لقدره وقضائه ، ولم يبطرهم الغنى ، وما اعتبروه صـكّ الغفـران ، ولم يهـزمهم الفقر ، وما اعتـبروه لعنة إلهية .. لذلك فإنّ الله يرضيهم بنعيم الأبد ، وينبّؤهم بأنّهم مرضيّون ، وما أحلى ساعة اللقاء بحبيبهم وأنيسـهم ، وما أروع كلمات الودّ المتبادلة ، جاء في الحديث القدسي عن الله عزّ وجلّ أنّه قال في حقّ الزاهدين وأهل الخـير وأهل الاخـرة : «فو عــزّتي وجلالي لأحــيينّهم حيــاة طيّبة إذا فارقت أرواحهم أجسادهم ، لا أسلط عليهم ملك الموت ، ولا يلي قبض روحهم غــيري ، ولأفتحنّ لــروحهم أبــواب الســماء كلّها ، ولأرفعنّ الحجب كلّها دوني ، ولامــرنّ الجنان فلـتزيّننّ ، والحـور فلـتزقّنّ ، والملائكة فلتصـلّينّ ، والأشجار فلتثمـرنّ ، وثمـار الجنة فلتـدلّينّ ، ولامـرنّ ريحا من الرياح التي تحت العـرش فلتحملنّ جبـالا من الكـافور والمسك الأذفر فلتصيرنّ وقودا من غير النار فلتـدخلنّ به ولا يكون بيني وبين روحه ستر فـأقول له عند قبض روحه : مرحبا وأهلا بقـدومك عليّ ، اصـعد بالكرامة والبشـرى ، والرّحمة والرضوان ، وجنّات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبـدا ، إنّ الله عنــده أجر عظيم ، فلو رأيت الملائكة كيف يأخذ بها واحد ويعطيها الاخر!» [2]

---

(1) مفاتيح الجنان / مناجاة الخائفين.

(2) كلمة الله / المؤلف السيد حسن الشيرازي ص 369.

وجـاء في نفس الحـديث : «وإذا كـان العبد في حالة الموت يقوم على رأسه ملائكة بيد كلّ ملك كأس من ماء الكـوثر وكـأس من الخمر ، يسـقون روحه حتّى تـذهب سكرته ومرارته ، ويبشّرونه بالبشارة العظمى ، ويقولـون له : طبت وطاب مثواك ، إنّك تقـدم على العزيز الحكيم ، الحبيب القريب ، فتطير الروح من أيـدي الملائكة فتصـعد إلى الله تعـالى في أسـرع (من) طرفة عين ، ولا يبقى حجاب ولا ستر بينها وبين الله تعالى ، والله عزّ وجلّ إليها مشـتاق ، وتجلس على عين عند العـرش ، ثمّ يقـال لها : كيف تـركت الـدنيا؟ فتقـول : إلهي وعزّتك وجلالك لا علم لي بالدنيا ، أنا منذ خلقتني خائفة منك ، فيقول الله تعالى : صدقت يا عبدي ، كنت بجسـدك في الـدنيا وروحك معي ، فأنت بعيني ، سـرّك وعلانيتك ، سل أعطك ، وتمنّ عليّ فأكرمك ، هذه جنتي فتجنّح فيها ، وهذا جـواري فاسـكنه ، فتقـول الـروح : إلهي عرّفتـني نفسك فاسـتغنيت بها عن جميع خلقك ، وعزّتك وجلالك لو كان رضـاك في أن أقطع إربا إربا ، وأقتل سبعين قتلة بأشدّ ما يقتل به الناس لكان رضـاك أحبّ إليّ ، إلهي كيف أعجب بنفسي وأنا ذليل إن لم تكرمني ، وأنا مغلوب إن لم تنصـرني ، وأنا ضـعيف إن لم تقوّني ، وأنا ميّت إن لم تحيني بـذكرك ، ولو لا سـترك لافتضـحت أوّل مـرّة عصـيتك ، إلهي كيف لا أرضـيك وقد أكملت عقلي حـتى عرفتك ، وعـرفت الحـقّ من الباطل ، والأمر من النهي ، والعلم من الجهل ، والنـور من الظلمة ، فقـال الله عـزّ وجـلّ : وعـزّتي وجلالي لا أحجب بيـني وبينك في وقت من الأوقات ، كذلك أفعل بأحبّائي» [1].

(29) ثم يـدخل الله روح المـؤمن بعد قبضـها برضـاه في حزبه المفلحين في عبـاده الصـالحين حيث المؤانسة والصفاء.

---

(1) المصدر / 375.

(**فَادْخُلِي فِي عِبادِي**)
أي انتظمي في سلكهم.
(30) وتسـتقبله دار ضـيافة الله ومـنزل كرامته الجنة التي من دخلها لم يخرج منها أبدا.
(**وَادْخُلِي جَنَّتِي**)
جعلنا الله من أهل جنته إنّه سميع الدعاء.

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ : من كان قراءته في فريضته «**لا أقسم بهذا البلد» كان في الدنيا معروفا أنّه من الصالحين ، وكان في الاخرة معروفا أن له من الله مكانا ، وكان يوم القيامة من رفقاء النبيين والشهداء والصالحين**»

تفسير سورة الثقلين / ج 5 / ص 578.

الإطار العام

حينما يولد ابن أدم تتساوى في كيانه فرص الخير والشر ، ولا يزال يختار ثم يستفيد من فرص الخير أو الشر الواحدة بعد الأخرى حتى تميل كفته نحو ما اختار. فرص الخير هي العناصر النورية التي لو رجحت حملته الى الجنة ، بينما فرص الشر هي العناصر النارية التي لو تكاثفت هوت به إلى جهنم وساءت مصيرا.

ولا أعرف شيئا يجري فيه تحول ذاتي كالإنسان. إنه يتمحض بالتالي للجنة أو للنار ، هنالك لا يعود مختارا ، ولا يعود يملك حرية اختيار واحد من النجدين ، بل يبقى كما اختار أولا : اما الى جنة النور خالدا فيها ، أو الى جهنم النار خالدا فيها ، أو لبعض الوقت.

كيف يتم اختيار الشر؟ انه ليس بحاجة الى العزم والوعي ، بل يكفي الغفلة والاسترسال سبيلا يؤدي به الى النار ، كما لو تسلق الإنسان الجبل لا يحتاج سقوطه في الوادي الى إرادة وحكمة ، بل ليدع نفسه لحظة فسوف نراه في الوادي مهشّما بعد لحظات ، بينما الذي يختار الجنة عليه ان يتسلح بوعي الذات وعزم الإرادة ، ولعل

هذه البصيرة هي محور سورة البلد.

ذلك أن القسم الاول من السـورة يبصـرنّا بأنفسـنا ، واننا في كبد (الأرض والمكـــان) وعلينا وعي ذلك حـــتى نتحدى الصعاب بعزم الارادة ، ونعـرف أن الله قـادر علينا فنراقبه ، وخبير بنا فلا نخدع أنفسنا ؛ خصوصا عند الإنفاق ، فنزعم : اننا أهلكنا مالا كثيرا.

أما القسم الثـاني فيـذكرنا بضـرورة اقتحـام العقبة ، وتجـاوز المنعطف الخطـير الـذي يجد الإنسـان نفسه بين أمـرين : بين السـقوط في أشـراك الهـوى أو التحليق في سماء الحق.

وبعد أن يـبين مثلين لاقتحـام العقبة هما : فك رقبة ، والإطعـام في يـوم ذي مسـغبة ، يهـدي الى قمة التحـول الايجـــابي عند البعض المتمثلة في الإيمـــان والتواصي بالصبر والمرحمة.

كما يشير في السياق في خاتمة السورة الى التحـول السلبي عند البعض الاخر متمثّلا في الانحياز الى المشأمة حيث النار المؤصدة.

سورة البلد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (2)**
وَوالِدٍ وَما وَلَدَ (3) لَقَـدْ خَلَقْنَا الْإِنْسـانَ فِي كَبَـدٍ (4)
أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً
لُبَـــــــــدا (6)
أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ عَيْنَيْنِ (8)
وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْناهُ

---

4 (كبد :) أصل الكبد من قولك : كبد الرجل كبـــــدا فهو كبد إذا وجعت كبده وانتفخت ، فاتسع فيه حتى اسـتعمل في كل تعب ومشـقة ، ومنه اشتقت المكابدة ، وأصل كبـده إذا أصـاب كبـده ، وقيل : الكبد : شـدة الأمر ، ومنه تكبّد اللبن : إذا اغلظ واشتد.

6 (لبــدا) الكثــير المــتراكم ، كما اللبــدة وهي اللحــاف الثخين ، ومنه اشتقت لبّدة الأسد.

النَّجْـدَيْنِ (10) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَـةَ (11) وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَـةٍ (13) أَوْ إِطْعـامٌ فِي يَـوْمٍ ذِي مَسْـغَبَةٍ (14) يَتِيمــاً ذا مَقْرَبَــةٍ (15) أَوْ مِسْـكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّـبْرِ وَتَواصَـوْا بِالْمَرْحَمَـةِ (17) أُولئِكَ أَصْـحابُ الْمَيْمَنَـةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (20))

---

10 (النجدين :) قيل النجد كالنجف ، وسـميت نجد نجـدا لأنها في رفعة من الأرض ، وســـميت النجف نجفا لـــذلك ، وقيل : نجد : هو الطريق الواضح على مرتفع من الأرض يبصره الرائي.

وما أدراك ما العقبة

بينات من الآيات :

(1) لكي نعي مدى خطورة قضية نقيسها بأخرى عـبر القسم ، وحينما يــأتي القسم في كلام الله ، يضــاف الى ذلك بعدان اخران : أولا : يعكس عظمة ما يقسم به بذات النســبة الــتي يعكس أهمية ما يقسم عليه ، ثانيا : يكشف عن علاقة خفية أو ظــــاهرة بين الأمــــرين ، وفي فاتحة ســـورة البلد نجد التلـــويح بالقسم بالبلد وبالوالد والولد ، لبيــان المشــاق الــتي يواجهها الإنســان ، فما هي العلاقة بينهمـــا؟ انها تتمثل في أن أعظم ما يكابـــده البشر يتصل بالأرض والأولاد.

(**لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ**)

قلنا : ان القسم يهـدف إلقـاء ظلال من العظمة على الموضوع ، وسوف يحقق هـذا الهـدف نفيه أو إثباته ، وقد يكون نفي القسم يوحي بأهمية ما يحلف به مما يبـالغ في العظمة ولـــذلك قـــال المفســـرون : ان لا هنا زائـــدة ، وبعضهم قال : انها تشبه كلمة

كلا ، تنفي أفكار الجاهليين.

والبلد ــ حسب أقـوال المفسـرين ــ : مكة ، وشـرف مكة واضح.

(2) ولكن مكة ليست بأشــرف من رســول الله ، بل شـرف كـلّ أرض بمن يسـكنها من عبـاد الله الصـالحين ، ولــذلك جــاء في الحــديث : «المــؤمن أعظم حرمة من الكعبة» [1] ويفسر ذلك حديث أخر : أن رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ـ نظر الى الكعبة فقال : «مرحبا بـالبيت ما أعظمك! وأعظم حرمتك على اللـه! والله للمـؤمن أعظم حرمة منك ؛ لأن الله حــرّم منك واحــدة ، ومن المــؤمن ثلاث : ماله ، ودمه ، وأن يظنّ به ظنّ الســـوء» [2] أو ليست الكعبة أول بيت وضع للنـــاس ، فالهـــدف إذا هو الإنسـان الـذي سـخرت له الأرض وما فيها ، وأي إنسـان أشرف من محمد بن عبد الله صلّى الله عليه واله.

(**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ**)

أي أنت تسـكن هـذا البلد وتحل فيه ، وقـال بعضـهم معـنى الاية : لأقسم بالبلد الـذي يسـتحل النـبي فيـه. وقد روي ذلك مـأثورا عن الامـام الصـادق عليه السـلام حيث قـــــــــــــــــــــــــــــــــال :

«وكان أهل الجاهلية يعظمـون الحـرم ، ولا يقسـمون به ، و(لا) يستحلون حرمة الله فيه ، ولا يعرضون لمن كان فيه ، ولا يخرجــون منه دابة ، فقـال الله تبـارك وتعـالى (**لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ* وَأَنْتَ حِلٌّ بِهـذَا الْبَلَـدِ.* وَوالِـدٍ وَما وَلَدَ**) قال : يعظمون البلد أن يحلفـوا به ، ويسـتحلون فيه حرمة رسول الله [3].

وعلى هذا يكون شرف المكان بتوفر حالة من الحرية والأمن لمن يسكنه.

(1 ، 2) موسوعة بحار الأنوار / ج 67 ص 71.
(3) تفسير البصائر ج 55 ص 533 نقلا عن الكافي.

(3) ثم يقسم القرآن بوالد وما ولد ، فيقول :

(**وَوالِدٍ وَما وَلَدَ**)

فمن همـا؟ يبـدو ان كل والد يكابد حـتى ينمو ولـده ويشب ، كما يكابد كل ولد حـتى يكتمل ويصـبح والـدا ، والقسم على هذا مطلق يشمل كل إنسان.

وقال بعضهم بل المراد أدم ـ عليه السـلام ــ وذريته ، أو إبراهيم ـ عليه السلام ـ ونجله إسـماعيل ، أو كل ذريته الصالحين.

(4) أيهما أيسر عليك إذا حملت ما يـــــــزن خمسة كيلوات وأنت تزعم انه عشرة ، أو كنت تـزعم انه ثلاثـة؟! كذلك حينما تواجه الحياة وأنت ترى أنها كما التسـلق على جبل أشـــمّ ، فانك تتغلب بســهولة ، بعكس ما لو زعمت انها مجرد رحلة سياحية.

والقــرآن الكــريم يريــدنا أن نعــرف حقيقة الحيـاة ، ونســموا الى مســتواها ، لأنه أفضل لـديننا ودنيانا من ان نتهرب منها بحثا عن الراحة ، القـرآن يريـدك قـويّ الظهر حـتى لا يثقل عليك أيّ حمل ، ولا يريــدك تبحث دائما عن الحمل الخفيف وقد لا تجــــده .. أو لم تقـــرأ قـــول الله سـبحانه : (**يا أَيُّهَا الْإِنْسـانُ إِنَّكَ كـادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَـدْحاً فَمُلاقِيهِ**).

بلى. وكل حيـاة الإنســان كــدح ، إلّا أنه قد يغفل عنه فيهرب الى ما هو أشد كـدحا ، أو يستسـهله ويتغلب على صعابه حتى لا يعود يعترف بأية صعوبة.

(**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ**)

وانى لك الفـــرار من أمر خلقت فيه وهو داخل كيانك بل هو أصل وجودك شئت أم أبيت؟!

قالوا : الكبد الشدة والنّصب.

الوجـود ذاته سلسـلة انتصـارات ضد العـدم ، أو ليس الوجود نـورا يجعل الشـيء واقعـا! تصـور أن النـور ذرأت متلاحقة متصلة ، فاذا توقفت فليس ثمة سوى ظلام.

والحيـاة بـدورها سلسـلة صـراعات ضد المـوت ؛ إنها هي الاخـرى نـور متجـدد ، وهي نتيجة ملايين من العوامل المتزامنة لو فقد بعضها انعدمت.

كما أن حيـــاة كل واحد منا صـــراع مع الطبيعة ، أو تعـرف كم مليـار جرثومة هجمت عليك خلال رحلة حياتك بهدف القضاء عليك ، وكم مرة تعرضت أو تتعـرض لخطر المــوت فنجــوت منها بــإذن الله ، وحــتى على مســتوى الظاهر تجد الإنسان في كبد ، يصـارع من أجل البقـاء في ظلمات الرحم ، ويواجه أكبر التحديات عند الولادة ، حـتى اعتبروا ساعتها كساعتي الموت والنشـور أشد مما يمر به البشر ، وفي الطفولة المبكرة يعاني من الجوع والعطش والألم ويتحـدى الأخطـار ، أو ليس تشـكل نسـبة الوفيـات عند الأطفـــال الأعلى في البلاد النامية ونســـبة عالية في غيرها؟!

راقب طفلا يتعلم المشي وانظر كم يقـــــــــدم وكم يســقط ، وراقبه عند تعلم اللغة كم يعــاني من صــعوبة ، وراقبه عند ما يسـعى لاقنـاع والديه برغبة ملحة كم يبكي وكم يجهد نفسـه. كل ذلك جـانب من معانـاة الطفـل. أما معانـــاة الكبـــار فإنها لا تنتهي لأن الإنســـان خلق شـــاعرا طموحا ، والشعور يفرز الألم ، والطموح سبيل المعانـاة ، وهذا هو الذي يميزه عن سائر الأحيـاء ، ومن هنا روي عن الامام الحسن ـ عليه السلام ـ انه قال : «**لا أعلم خليقة يكابد من الأمر ما يكابد الإنســـان ، يكابد مضـــايق الدنيا وشدائد الاخرة**» [1].

(5) وفي هـذه المكابـدة يسـتوي المـؤمن والكـافر ، والغـني والفقـير ، والكبـير ، والصـغير ، وكل من سـمي إنسان. قد لا تحس أنت بمعاناة رفيقك لأنك لست في

---

(1) المصدر ص 535.

قلبه ، فـتزعم أن غـيرك أفضل منك ، ولكن أوليسـوا هم أيضا بشرا أمثالك. بلى. إذا تعالوا نرضى بواقعنا ، ونتحمل المسؤولية ، ولا يقـول الواحد : الآن انا صـغير ، لو كـبرت لارتحت مما أعانيه ؛ لأن الكبار أفضل ، أو يقـول : انا الآن اعزب لو تزوجت ، أو إن سبب متاعبي فقري فلو أغنـاني الله بلغت الراحة ، أو إن سبب مشاكلي أن أولادي صـغار فلو كـبروا تخلصت من همـومهم ، ولكنه ما إن ينتقل من حـال إلى حـال ، أو من مرحلة لأخـرى حـتى تهجم عليه مشاكل جديدة ، كل مشـكلة أكـبر من أختهـا. لا تعيش إذا في الأمنيـــات الحلـــوة ، في أحلام اليقظة ، لا تقل لا يعاقبني الله ، ولماذا؟ هل أنت إلا بشر.

(**أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**)

قـــالوا معنـــاه : أيظن ابن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل؟ انه ينظر الى ما أوتي من نعم الله فيصـيبه الغـرور ولا يفكر ان ما لا يملكه أكـثر مما يملكه ، يقـول : لا أحد يقـــدر عليّ ، وهو يعيش في وسط المشـــاكل وكبد التحديات.

(6) أو تدري كيف يكبر الإنسـان؟ حينما يحمل قضـية كبيرة ، ونسبة أدائه لقضيته يكـون تسـاميه ، وهكـذا حمل الله عبـاده الصـالحين المزيد من المسـؤوليات ، وابتلاهم بأشد البلاء ، حـتى جـاء في الحـديث المعـروف : «البلاء للأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» بيد أن بعض النـاس كلما حمل رسالة أو قضية أو مسـئولية صـغرت نفسه في عينيه ، وقال : كيف أؤدي هذا العمل؟ وحاول الفرار منها. حقا عند هذه النقطة يفترق العظماء عن غـيرهم ، انهم لا يجدون أحدا أحقّ منهم بعمل الخير أو تحمل المسـؤولية ، بل تجد بعضهم يبحث عنها بحثا حثيثا.

ولعل الاية هـذه تعـالج هـذه الحالة الشـاذة في نفس الإنسان ، حيث تراه إذا أعطى قليلا كبر في عينيه ، وقـال : إنه مال كثير ، ولا يقول انه قدمه لحياته ، بل يراه

مغرما ويقول : انني أهلكته.
(**يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً**)
أي مالا كثيرا مجتمعا ولعله يكون كاذبا في ذلك ، فلم ينفق إلّا قليلا ، وعظم عمله في عينه ، بخلاف المـــــؤمن الذي لا يخرج أبدا عن حد التقصير في جنب الله ، ولــذلك فهو يتطلع أبدا الى عمل أكبر وأفضل.
(7) ثم إنه يــــزعم : أنه مــــتروك لشــــأنه كالبهيمة الســـائحة ، وأنه لا أحد يراقبـــه. كلا .. إن الله يراقبه وهو أقرب إليه من حبل الوريد.
(**أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ**)
(8) إن الـــذين يتهربـــون من مســـئولياتهم يفرغـــون حيـــاتهم من محتواها ، من لبها ، من هـــدفها. فلما ذا إذا جعل إنســانا ، وأوتي الأحاسـيس المختلفة : عينا يبصر بها فيعـــرف الحق والباطل ، ولســـانا ينطق به ، وشـــفتين ليطبقها على لسانه ان هم بكلام خاطئ.
(**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ**)
للبصر والبصيرة معا.
(9) وجعل الله للإنسان اللسان الذي ميّزه عن سـائر الأحياء بالنطق.
(**وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ**)
(10) وأعظم النعم أنه منحه الحرية فهداه الى ما هو طريق الحق وما هو طريق الباطل.
(**وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ**)

وأصل النجد الأرض المرتفعة ، وروي عن النــبي ــ صلّى الله عليه واله ـ أنه قال : «أيها الناس! هما نجدان : نجد الخير ونجد الشر» [1] ولعل تسمية الطريقين بالنجدين بسـبب أنهما طريقـان ، واضـحان ، متمـيزان ، ظـاهرة معالمهما ، ومعروف روادهما.

(11) كل ما في الإنسـان يعكس المسـؤولية الـتي حمّل إياها ، فقد ألهم الفجـور والتقـوى ، وأودع في داخله نـوازع الشر وحـوافز الخـير ، وسـخرت له الأشـياء لكي يستخدمها في واحد من السبيلين ، والسؤال : كيف ينبغي أن يتصرف حـتى يحقق المسـؤولية الـتي هي الهـدف من خلقه؟ عليه أن يقتحم ، وما لم يفعل ذلك يبقى وراء جـدر التخلف.

(**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**)

هل تسلقت الجبال ، وهل صـادفك طريق وعر ضـيّق بين الصـخور المتراكمة ، ومن تحتك الـوادي العميق ، الحالة النفسية التي يعيشها المتسـلق الشـجاع هي الحالة المطلوبة في تحـدي الصـعاب في الحيـاة وتحمل المسؤوليات ، قمة في الوعي ومضاء في العزم وشجاعة في الاقدام. اية وسوسة أو تردد أو ارتجاج للقـدم ، أو اية غفلة وتساهل تكفي سببا للسقوط في الهاوية السحيقة!

وقالوا عن الاقتحام : الدخول بسرعة وضغط وشدة ، والعقبة : الطريق الصعب الوعر الذي فيه صعود.

(12 ـ 13) وأي شيء العقبة؟ انها تجـاوز شح النفس ، ومصارعة هواها بالكرم والإيثار.

---

(1) تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 581.

(**وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ**)

قالوا عن فك الرقبة : إنه أشمل من عتق رقبة ، لأن العتق هو تحرير الرق بصورة كاملة ، بينما فك رقبة يكون ذلك بالمشاركة مع الآخرين ، وأوردوا في ذلك حديثا مأثورا عن رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ـ يقول الحديث المرفوع عن البرّاء بن عازب : جاء اعرابي للنبي ، فقال : يا رسول الله! علمني عملا يدخلني الجنة ، فقال : «ان كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة. أعتق النسمة وفك الرقبة» فقال : أوليسا واحدا ، قال : «لا. عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة ان تعين في ثمنها ، والفيء على ذي الرحم الظالم ، فان لم يكن ذلك فأطعم الجائع ، واسق الضمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فان لم تطق ذلك فكف لسانك إلّا من خير» [1].

(14) (**أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ**)

ان الإطعام جيد وعند المجاعة حيث يحضر النفوس الشح ، وينتشر الاستئثار ، ويصبح الناس في هلع شديد ، يكون الإطعام أعظم ثوابا ، لأنه يعتبر تجاوزا لحالة الشح ، واقتحاما لعقبة حب الذات.

(15) والإطعام قد يكون بهدف الحصول على مكسب ماديّ أو رياء وسمعة ، ويتبين ذلك عادة عند انتخاب موضعه ، فمن الناس من لا يعطي الفقير درهما ولكنه ينفق على الموائد الباذخة ألوف الدنانير. من هنا حدد الله كل الإنفاق وقال :

(**يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ**)

فأولى الناس بالاهتمام بالأيتام أقرباؤهم ، واليتيم ، حلقة ضعيفة في المجتمع ،

(1) الميزان ج 30 ص 295.

لضعفه وقلة احترام النـاس له ، ولـذلك تتـوالى النصـوص القرآنية التي تشجع على الاهتمام به.

(16) والمورد الضـروري الاخر للإنفـاق هو المسـكين القريب.

(**أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ**)

الذي ألصقته الفقر بالتراب.

(17) ويبــدو ان فك الرقبة والإطعـام مثلان لاقتحـام العقبة ، وأن الكلمة تشــمل كل اقتحـــام لعقبة الهــوى ، ومجاهدة لتيار الشهوات ، وإن أعظم ما ابتلي به الإنسـان عقبة التســـليم للحق ولمن يمثله من البشر كالرســـول وخلفائه عـبر العصـور ، فمن والى الرسـول وأئمة الهـدى من خلفائه فقد اقتحمها ، وإلّا هوى في النـار ، لـذلك عـبر القرآن عن هذه الطاعة بكلمة «ثم» وقال :

(**ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**)

فإن المسـافة بين فك رقبة والإطعـام ، وبين الايمـان التام بكل ما أنزل الله واتباع رسول الله مسـافة شاسـعة ، وأن البشر لا يزال يعمل الخيرات ويقاوم شـهوات نفسه حتى يعرج الى مسـتوى التسـليم لله والإيمـان برسـالاته ، واتباع الرسول وخلفائه المعصومين.

والصـــبر من الإيمـــان بمنزلة الـــرأس من الجسد ، وأعظم منه التواصي به ، فإنه قمة التسـليم للحق والرضا بالمكـاره الـتي في طريقه ، وأعظم من الصـبر الرحمة ، فقد تعبر على أذى الناس وأنت تـدعوهم الى الخـير ولكن يمتلأ قلبك بغضا لهم ، بينما المـؤمن حقّا هو الـذي يـرحم النـاس جميعا وحـتى أعدائه تسـعهم رحمته ، وأعظم من كل ذلك التواصي

بالمرحمة. واشاعة ثقافة الصبر والرحمة في المجتمع.

(**وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**)

(18) هؤلاء هم أصحاب الجنة الذين يحظــون بالعاقبة الحسنى.

(**أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ**)

وهكــذا جعل الله شــرطا لــدخول الجنة يتمثل في اقتحام العقبة ، ومن لم يحقق هذا الشرط الأساسي فـإن أمانيه في الجنة تــذهب عبثا ، وقد قــال الإمــام أمــير المؤمــنين عليه الســلام : «**هيهــات لا يخــدع الله عن جنته**»

وجــاء في حــديث مــأثور : «**حفّت الجنة بالمكـاره وحفت النار بالشهوات**»

(19) أما الكفـار الـذي سـقطوا في فخّ الهـوى ، ولم يتسـاموا الى مسـتوى التحـدي فـإنهم يتهـاوون في النـار وساءت مصيرا.

(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ**)

ولا يقبل إنفاقهم ؛ لأن الايمـان شـرط مسـبق لقبـول أي عمل صــالح ، والعــرب كـانت تتشــاءم من الشــمال ولذلك سمتها المشأمة.

(20) وكما ســجنوا أنفســهم في زنزانة الــذات ، وصدوها عن رحـاب الحق الواسـعة ، فـإنهم يعـذبون بنـار مطبقة عليهم ، مغلقة دونهم.

(**عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ**)

نعوذ بالله من هذه العاقبة السوأى.

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله ـ عليه السـلام ـ قـال : «**من أكـثر قراءة «والشمس ...» في يوم أو ليلة لم يبق شيء بحضــرته إلّا شــهد له يــوم القيامة ، حــتى شــعره وبشــــره ولحمه ودمه وعروقه وعصــــبه وعظامه ، وجميع ما أقلّت الأرض منه ، ويقــول الــرب تبــارك وتعــــالى : قبلت شــــهادتكم لعبــــدي وأجزتها له ، انطلقــوا به الى جنّــاتي حــتى يتخيّر منها حيث ما أحبّ ، فأعطوه من غير منّ ولكن رحمة مني وفضلا عليه ، وهنيئا لعبدي**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 585

الإطار العام

عـبر خمسة عشر آية ، وثلاثة مقـاطع تبصـرنا سـورة الشـــمس بأنفســـنا ، وكيف نحقق لها الفلاح ونمنع عنها الخيبة.

محـور السـورة ـ فيما يبـدو ـ الآيتـان (7 ـ 8) حيث توحيان بالبصيرة النافذة. إن بلوغ قمة الكمال عند النفس لا يتم إلّا بالتزكية ، بينما الفشل ينتظر من يــــدس نفسه في وحل الجاهلية وركامها.

وقبل بيــان هــذه البصــيرة تحملنا الآيــات الأولى إلى آفاق السـماء والأرض ، وظـواهر الليل والنهـار لكي نجعل من العالم المحيط مدرسة لنا ومحرابا.

وبعد بيانها تضــرب الآيــات الأخــيرة مثلا عليها بواقع ثمـود ، الـذين حملهم طغيـانهم الى تكـذيب رسـول الله وعقر الناقة التي كانت لهم آية مبصرة.

والســـورة عموما تعمّق حس المســـؤولية في نفس الإنســـان ، ومن عجب القـــول ان بعض المفســـرين المتأثرين بالفلسفة اليونانية زعموا أن السـورة تـدل على الجبر ، وهكذا

حمّلـوا ربهم سـبحانه مسـئولية ضـلالهم وفجـور كل قـوم ضـــال. كلا .. إنّ الإنســـان قد ســـويت نفسه ، وألهمت الفجـــور والتقـــوى ، وأمر بالتزكية ، فمن قـــام بها أفلح ، ومن دس نفسه خاب وخسر أهدافه.

سورة الشمس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**وَالشَّـمْسِ وَضُـحاها (1) وَالْقَمَـرِ إِذا تَلاها (2)**
وَالنَّهـــارِ إِذا جَلاَّها (3) وَاللَّيْـــلِ إِذا يَغْشـــاها (4)
وَالسَّـــــماءِ وَما بَناها (5) وَالْأَرْضِ وَما طَحاها (6)
وَنَفْسٍ وَما سَـــوَّاها (7) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها (
8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (9) وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (10)
كَـذَّبَتْ ثَمُـودُ بِطَغْواها (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْـقاها (12)
فَقـالَ لَهُمْ رَسُـولُ اللـهِ ناقَـةَ اللـهِ وَسُـقْياها (13)
فَكَـــذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْـــدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِـــذَنْبِهِمْ
فَسَوَّاها (14) وَلا يَخافُ عُقْباها (15))

---

6 (**طَحاها**) : أصل الطحو البسط الواسع ، يقـــال : طحا بك همك ، يطحو بك طحوا : إذا انبسط بك الى مـذهب بعيد ، يقـال : طحا القـوم بعضهم بعضا إذا تدافعوا دفعا فانبسطوا ، والطـواحي : النّسـور تنبسط حول القتلى ، وهي في هذه الحالة فقط تسمى طواحي.

فألهمها فجورها وتقواها

بينات من الآيات :

(1) هل للطبيعة لسان ينطق؟ بلى. يلهج بحمد ربها ، ولكن ليس لكل الناس أذن تتلقى. ان إشاراتها خفيّة فمن التقطها كانت له الكائنات مدرسة مسجدا وطهورا ، ولعل من غايــات القسم في القــرآن تعليمنا لغة الكائنــات. أو تـدري بأيّة صـورة؟ إن لنفس البشر شـفافية تغطي عليها الرغبات الملحة والهموم الطاغية ، فالنفس شـاعرة تحب الجمــال ، وتعشق النــور ، وتنجــذب الى روعة النظــام ، ودقة التنـاغم ، ولكن الـذين يشـتغلون أبـدا بلـذات البطن وما دونه ، وتلعب بعقــولهم خمــرة التفــاخر والتكـاثر أنى لهم الاســتماع الى همســات روحهم ، والاهتمــام بلــذات عقلهم من هنا يحتــاجون الى من يــذكرهم بها ، ويســتثير في نفوسهم الإحساس بجمال الطبيعة وروعتها وتناســقها ونظمها الدقيق ، يجعلهم ينظـرون الى الشـمس وضـحاها بــبراءة الطفل ، واحســاس الشــاعر ، وشــفافية الواله العاشق ، كلما أشرقت الشـمس على البسـيطة ونشـرت ضحاها فوق الروابي والسهول ، وبثت أشعتها عبر النوافذ والمـداخل ، استلهموا منها درسا جديـدا بل روحا جديـدة. وزخّة عاطفية.

(**وَالشَّمْسِ وَضُحاها**)

قســـما بها .. أنظر إليها وكأنك لم تعرفها من قبل ما هذه الكتلة العظيمة من النيران ، التي لا تزال تحترق منذ ملايين الســـــنين ولا زالت في كهولتها ؛ لأن احتراقها يتم بالتفاعل النــووي ، ونحن لا زلنا على الأرض نتمتع بــدفئها وضــوئها وفوائــدها ، وننتظر نتــائج القمر الصــناعي الــذي بعثنــاه أخــيرا إلى مــدارها ، وسيصل بــإذن الله هنــاك بعد حوالي ثلاث سنوات ، وربما زوّدنا بالمزيد من المعلومــات عنها ، ولكن دعنا ــ ونحن ننتظر ذلك ــ نتــدبر في ضــحوة الشمس وهي كما قيل ضد الظــلّ أي أشــعتها المنبســطة على الأرض ، وتتجلى عند ارتفاع الشمس وقال بعضــهم : ضــحى الشــمس هي النهــار كله ، ويبــدو أن القــول الاول أظهر وهو أن الضحى من الضح وهو نور الشمس.

(2) للشــمس جمالها النــاطق وروعتها الصــارخة ، أما القمر فجماله صـــامت وروعته هادئة ، لـــذلك اختـــاره الشــعراء لســهراتهم ، والعشــاق لنجــواتهم ، وأهل الطاعة لســبحاتهم. ما هــذا الفيض المتــدفق من النــور الهــادئ؟ يسبح في الفضاء وينتعش به جمــال الطبيعة ، ويهتــدي به السريّ!

(**وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها**)

اي يلي الشـــمس ، ومن أوتي حسّـــا رهيفا ســـمع ســـبحات الشـــمس والقمر ونورهما فاهتـــدى الى ربهما العزيز.

(3) قسما بضحوة الشمس ونور القمر. قسما بالنهار الذي يحيط الأرض بضيائه ودفئه وحيويته.

(**وَالنَّهارِ إِذا جَلَّاها**)

يبـدو أنّ الضـمير يعـود هنا الى الأرض وإن لم تـذكر كقوله سـبحانه عن الشـمس : «حـتى تـوارت بالحجـاب» ولم تذكر الشمس في السياق.

وقيل : جلى الظلمة وان لم يجر لها ذكر كما نقـــول أضحت باردة نريد أضـحت الغـداة بـاردة أو الليلة بـاردة ، وأنى كــان فــإن التــدبر في النهــار ونــوره وجماله يزيد الإنسان بصيرة وهدى.

(4) بعد نهـــار طويل مجهد يغشى الأرض ظلام الليل وهدوئه ، فيسـتريح على كفه النـاس والأحيـاء والنبـات ، ومن يتـدبر في النهـار وضـيائه ونشـاطه وحركته يصـعب عليه كيف يغشى الأرض بعد ساعات الليل بسـباته ودجـاه وسكونه وسكوته. دع فكرك يقارن بينها وينطلق في آفاق المعرفة.

(**وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها**)

والضمير هنا كما الضمير في الاية السـابقة يعـود إلى الأرض ، وجاء في بعض النصوص تأويل هذه الكلمـات في الجـــوانب المعنوية من حيـــاة المجتمع ، وان الشـــمس رسـول الله ـــ صـلّى الله عليه واله ـــ بينما القمر أمـير المؤمنين ـ عليه السـلام ـ أما النهـار فأئمة الهـدى ، بينما الليل أئمة الضلال [1].

(5) عند ما يستجلي المتدبر في ظواهر الطبيعة آيات الله فيها يعي الإنســان عظمة الســماء وبنائها المــتين ، والأرض وإعدادها لراحة البشر ، فيذكره الله سبحانه بهما قائلا :

(**وَالسَّماءِ وَما بَناها**)

أيّ تدبير عظيم ، وأيّة حكمة بالغة ، وأيّة قوة واســعة ، وأي علم محيط وراء بناء

---

(1) تفسير نور الثقلين ج 5 ص 585.

السماء وما فيها من أجرام سماوية مسـخّرة في أفلاكهـا. لا يكـــاد حـــتى الخيـــال العلمي الخصب ملاحقة أبعادها وآفاقها ومبتدئها ومنتهاها.

(6) أنظر إلى الأرض الـتي تعتـبر بالقيـاس الى سـائر أجرام السـماء كسـمكة صـغيرة على شـاطئ المحيط إذا قستها الى الحيتان الكبار التي تجوب البحار الواسـعة ، أو كأصغر حرف من أصـغر كلمة في كتـاب متواضع بالنسـبة الى مكتبة تضم ملايين الأسـفار ، فـاذا نظـرت إلى الأرض وبحارها وسـهولها وجبالها وأنـواع الخلق فيها ـــ مما لا يحصيها العلم ـ كلّ نظرك ونصب مخك ، وقلت : سـبحان الله! ما أعظم تلك القوة التي دحت الأرض وهيأتها للحياة بعشرات الملايين من وسائل الحياة والراحة وأسبابها.

(**وَالْأَرْضِ وَما طَحاها**)

قالوا : الدحو والطحو واحد ، ومعناهما البسط ، وقال المـاوردي : ويحتمل أنه ما خـرج منها من نبـات وعيـون وكنوز لأنه حياة لما خلق عليها ، ويبدو أن أصل الطحو هو تهيئة الشيء وتمهيده والله العالم.

(7) لمـاذا خلقت السـماء والأرض ، وأحكمتا البنـاء أوليس للإنسان؟! تعالوا وفكـروا في هـذا العـالم الكبـير : إنه آية على ما خلقهم الله في الأرض من احياء وأشياء.

(**وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها**)

في أعماق هذه النفس آيـات لا يتسـنى لغـير صـاحبها بلـوغ أغوارها ، كـذلك في أعمـاق سـائر النفـوس وسـائر الحقائق. انك ترى الشمس من ظاهرها ، تلامس جـدرانها الخارجية فهل تعـرف ما يجـري هنـاك في داخلها ، كـذلك القمر والنهار

والليل ، بينما نفسك أقــرب الكائنــات إليك لا تقــدر على اكتشاف جانب من اغوارها الذاتية ، فتفكر أيّ خلق عظيم هـــذه النفس الـــتي هيئها الله ســـبحانه ، ونظم أمرها ، بأحسن تنظيم.

(8) وأعظم ما في النفس العقل الـذي هـداها الله به إلى خيرها وشرها ، تقواها وفجورها ، ما يصـلح لها وعليها ان تأتي به ، وما يفسدها وعليها أن تتركه.

(**فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها**)

كما قــال ســبحانه : (**وَهَـدَيْناهُ النَّجْـدَيْنِ**) ومعرفة الفجـور قـدمت على معرفة التقـوى إذ أنّ النفس تعـرف أولا أســباب الهلاك ، ثم تعـــرف كيف تتجنبها بوســـائل الصـلاح. علما بـأن أكـثر الواجبـات هي سـبل للتخلص من المفاسد.

جاء في الحديث المأثور عن النـبي ـــ صـلّى الله عليه واله ـــ أنه كــان إذا قــرأ هــذه الاية : (**فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها**) رفع صـــوته بها وقـــال : «**اللهم آت نفسي تقواها. أنت وليها ومولاها ، وأنت خـير من زكاها**» [(1)].

وجـاء في حـديث مـأثور عن الامـام الصـادق ـــ عليه السلام ـ أنه قال : في تفسيرها : «**بين لها ما تأتي وما تترك**» [(2)].

(9) عظيمة جدّا نعمة العقل الذي هو مـرآة للطبيعة ، تعكس ما فيها من خـــير وشر ، وحسن وقبح ، وجمـــال ودمامة ، وأعظم منها المشـــيئة الـــتي بها يتم انتخـــاب الإنســـان لواحد منهما ، ويبلغ بها البشر أرفع درجـــات الكمـال المتمثلة في الفلاح ، أوليس الفلاح بلـوغ المـنى ، وتحقيق أبعد الأهداف والغايات؟!

---

(1) القرطبي ج 20 ص 76 ، وفي تفسـير نـور الثقلين ج 5 ص 586 مثله بتغيير قليل.

(2) تفسير نور الثقلين ج 5 ص 586.

بلى. ولكن كيف يبلغ الإنســان ذلــك؟ بتزكية النفس وتطهيرها من حوافز الشر ، ورواسب الشرك ، ووساوس الشيطان.

(**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها**)

قــالوا : الزكــاة بمعــنى النمو والزيــادة ، ومنه زكــاة الــزرع إذا كــثر ريعه ، ومنه تزكية القاضي للشــاهد لأنه يرفعه بالتعديل.

ويبــدو لي ان أصل معــنى الزكــاة التطهــير ، وبما أن الشيء الطـاهر ينمو بينما لا يكـون الخـبيث إلّا نكـدا تلازم معنى الزكاة والتطهير.

وقـال بعضـهم إن أجـواد العـرب كـانوا يـنزلون الرّبا والمرتفعات ليسهل على أصحاب الحاجة الوصـول إليهم ، بينما اللئام كانوا يختارون الأطراف والمنخفضات هربا من الفقراء وطالبي المعروف ، فأولئك علوا أنفســهم وزكوها ، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها.

(10) كما أن من زكى نفسه وطهرها من أدرانها وأنقـذها من قيودها وأغلالها ينطلق في معـارج الكمـال ، ويبلغ الفلاح ، فـــإن من دس نفسه في أوحـــال الجهل ، وسلاسل العبودية ، للمـال والجـاه ، فإنه يخيب ولا يبلغ أيّا من أهداف وجوده.

(**وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها**)

وأصل الـدس من التـدريس ، وكما قـالوا : هو إخفـاء الشــيء في الشــيء ، فأبــدلت ســينه يــاء ، كما يقــال : قصّـــيت أظفـــاري ، وأصـــلها قصصت اظفـــاري ، وقد استخدمت الكلمة في الإغواء كما قال الشاعر :

وأنت الـذي دسست عمـرا   فأصبحت جلائله منه أرامل ضـــيعا

والسؤال : ما هي علاقة الدس وهو الإخفـاء بالخيبـة؟ إنهما تعبيران متناسقان ، ذلك أن الخيبة التي هي خسـارة غــير متوقعة ، وفشل غــير محتمل تــأتي نتيجة الإحجــام والانطـــــــــواء والانغلاق ، والنفس مثل كتلة عظيمة من الأحجــار الكريمة أخفيت تحت ركــام من الرمل والحجر ، مـاذا تنفع هـذه الكتلة لو زدناها ركاما فـوق ركامها ، إنما تنفع إذا اســتخرجناها ، ونظفناها ، وأبعـدنا عنها الأجسـام الغريبة ، كـذلك أنت كتلة هائلة من المـواهب والفـرص ، بإمكانك أن تســـتغل كل لحظة من حياتك في العـــروج بنفسك درجة من الكمال ، ولكن إذا استسلمت للضـغوط ، واشـتغلت بالتوافه ، وتعللت بـالتبريرات والاعـذار فـإن عمرك يذهب عبثا. وتخيب ظنونك.

(11) والدس لا يأتي من فراغ بل ضـمن سلسـلة من العلل ، تبدء بالطغيان الذي هو صفة ملازمة للإنســان ، أو ليس الطغيـان نتيجة الكـبر الـذاتي. والكـبر يلازم الجهل ، والفــرح بما تملكه النفس دون النظر إلى ما لا تملكـــه؟ ومن الطغيـان يـأتي التكـذيب بآيـات الله ، والانغلاق دون الإنــذار ومن التكــذيب ينتج الحرمــان ، أرأيت لو دعــاك صـاحبك الى مائـدة في يــوم مجاعة فكذبته كيف تحــرم نفسك! كـذلك الرسل دعونا الى رحمة الله فكـذّبهم قـوم فخابوا مثل ثمود الذين دعاهم طغيانهم الى تكـذيب آيـات الله.

(**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها**)

قالوا : اي بطغيانها فيكون الطغيـان سـبب التكـذيب. وبه جـاءت الرواية المـأثورة عن الامـام البـاقر ـــ عليه السلام ـ قال : في تفسير الاية : **والطغيان حملها على التكذيب** [1].

وقال بعضهم : بل الطغوى هو العذاب الطـاغي الـذي كذبوا به ، والأول أظهر.

(1) المصدر.

(12) والتكذيب كان صفة عامة لثمود ولكنه تركز في شخص واحد هو الـذي عقر ناقة صـالح من بعد أن طلبوها آية لهم.

(**إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها**)

وهكذا يقوم شـخص أو اشـخاص معـددون بالجريمة ، ولكن الآخرين يرضون عنهم لأنهم لا يقومون بها إلّا ضـمن سياق اجتمـاعي يسـاعدهم عليها : سـكوت أهل الصـلاح ، ومجاهرة المكذبين ، وصلافة المجرمين. من هنا روي عن الامام علي ـ عليه السلام ـ أنه قال :

«أيها النــاس! انما يجمع النــاس الرّضى والسّــخط ، وانّما عقر ناقة ثمود رجل واحد ، فعمّهم الله بالعـذاب لما عمّــوه بالرضا ، فقــال ســبحانه : (**فَعَقَرُوها فَأَصْـبَحُوا نـادِمِينَ**) فما كـان الّا أن خـارت أرضـهم بالخسـفة خـوار السكّة المحماة في الأرض الخوّارة» [1].

ومعنى انبعث : نهض ، وإنما سمي عاقر الناقة أشقى ثمــود لأنه قـام بما لم يجـرأ عليه غـيره منهم ، وجـاء في حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ أنه قـال له النــبي ــ صـلّى الله عليه واله ــ : «**أتـدري من أشــقى الأولين؟ قلت الله ورســوله أعلم؟ قــال : عاقر الناقة ، قال : أتدري من أشقى الآخـرين قلت : الله ورسوله أعلم : قال : قاتلك**» [2].

وروي عن عمار بن ياسر قال : كنت أنا وعلي بن أبي طـالب في غـزوة العســرة نـائمين في صــور من النخل ودقعـاء من الـتراب فوالله ما أهبّنا إلّا رسـول الله يحركنا برجله ، وقد تتربنا من تلك الدقعاء ، فقال : «**ألا أحدثكما بأشقى الناس من**

---

(1) نهج البلاغة خ 201 ص 319.

(2) القرطبي ج 20 ص 78.

رجلين؟» قلنا : بلى يا رسـول الله قـال : «**أحيمر ثمـود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذه ــ ووضع يــده على قرنه ــ حــتى يبل منها هــذه وأخذ بلحيته**» [1].

(13) حينما يكون الـذنب تحـدّيا لسـلطان الـرب يحل بصاحبه العذاب العاجل ، كما كـان عند ثمـود ، إذ أنهم هم الذين طالبوا نبيهم صالحا بآية مبصرة ، واقـترحوا عليه أن تكـون ناقة تخـرج من الجبل ، وتعهـدوا بتصـديقه عندئذ ، والتسـليم لأمـره ، ولكنهم كـذبوه وعقـروا الناقة بعد ان حذرهم نبيهم من مغبة ذلك طغيانا وعتوا ، فـنزل العـذاب بساحتهم.

(**فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ناقَةَ اللهِ وَسُقْياها**)

قـالوا : معنـاه احـذروا ناقة الله ، كما يقـال : الأسد الأسد : اي احـــذره ، والصـــبي الصـــبي : أي احفظه من الوقــوع في البـئر ، ونسـبت الناقة الى الله تشـريفا لها باعتبارها آية مبصرة ، وكان عليهم أن يتقوا الله فيها ، اما كلمة «سـقياها» فتعـني ذروها تشـرب ، وكـان لها شـرب يوم معلوم ، ولهم مثله.

(14) ولكنهم كــذبوا رســول الله ، وعقــروا الناقة ، وتحدوا أمر ربهم وإنذاره ، فأطبق عليه العذاب ، ولم يبق من قراهم شيئا.

(**فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ**)

يقـال دمـدم على الشـيء إذا طبق عليه ، ودمـدمت على الميت الـتراب اي سـويت عليه ، ويبـدو أن الدمدمة هي الاطباق بتدريج ، أي بتكرار مرة بعد أخرى.

---

(1) الصـور : المجتمع من النخل ، الـدقعاء : الـتراب الـدقيق على وجه الأرض. انظر نور الثقلين ج 5 ص 587.

(**بِذَنْبِهِمْ**)

فلم يفعل بهم ظلما. حاشاه ، وانما جـزاء لأفعـالهم ، وكل من يذنب يهيء نفسه لمثل تلك الدمدمة.

(**فَسَوَّاها**)

كما يسوي القـبر بعد ان يهـال الـتراب عليه طبقا بعد طبق.

(15) وهل سـأل الله أحـدا في أولئك الهلكى لمـاذا اهلكهم؟! كلا ..

(**وَلا يَخافُ عُقْباها**)

سـبحان الله وتعـالى كيف يخـاف عقـبى دمدمة وهو جبار السموات والأرض؟!

وهكـذا لم تنفعهم الشـركاء والأنـداد ، ولم تنقـذهم الأعذار والتـبريرات. أفلا نرتـدع بمصـيرهم ، كـذلك كـانت عاقبة قـوم دسّـوا أنفسـهم فخـابوا أشد الخيبة ، وكـذلك تكون عاقبة كل من ضيّع نفسه ودسها ، إنها الخيبة والندم أعاذنا الله منهما.

سورة الليّل

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله ــ عليه السـلام ــ قـال «**من أكـثر قــراءة ... والليل إذا يغشى ... في يــوم أو ليلة لم يبق شيء بحضـرته إلّا شـهد له يـوم القيامة ، حـتى شعره وبشره ولحمه ودمه وعروقه وعصبه وعظامه ، وجميع ما أقلّت الأرض منه ، ويقـول الـرب تبـارك وتعالى : قبلت شهادتكم لعبدي وأجزتها له انطلقوا به الى جنّـــــاتي حـــــتى يتخيّر منها حيث ما أحبّ ، فأعطوه من غير منّ ولكن رحمة مني وفضلا عليه ، وهنيئا لعبدي**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 585

الإطار العام

ليس الذكر والأنثى سـواء ، ولا الليل والنهـار ، كـذلك فعل الخـيرات وارتكـاب المـآثم ليسا بسـواء. أو يحصد الشعير من زرع القمح ، وهل يحصد من زرع الريح سـوى العاصفة؟!

النفس البشـرية تهـوى الخلط بين الحـقّ والباطل لتتهـرب من المسـؤولية ولكن هيهـات ، وتتواصل آيـات الـذكر وسـوره للفصل الحاسم بينهما ، ويبـدو أن محـور هـذه السـورة التـذكرة بهـذه البصـيرة ، وأن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فإن الله يوفقه للحيـاة اليسـرى ، بينما الذي كذب بالحسنى فيدفعه الله للحياة العسرى.

ونتـائج التكـذيب تمتد من الـدنيا حـتى الاخـرة ، حيث النـار الملتهبة تنتظر المكـذبين ، أما الـذين يتقـون ربهم ، ويؤتون أموالهم سعيا وراء التزكية فإن عاقبتهم الحسنى ، ولأنهم ابتغـوا رضـوان ربهم فـان الله يعطيهم من النعم حتى يبلغون الرضا.

سورة الليل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى (1) وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2) وَما
خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا
مَنْ أَعْطى وَاتَّقى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى (6)
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى (8)
وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (10) وَما
يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (12)
وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (
14) لا يَصْلاها إِلاَّ الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (
16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى
(18) وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (19) إِلاَّ ابْتِغاءَ
وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضى (21))

إنّ سعيكم لشتى

بينات من الآيات :

(1) لا يحس الأعمى بـاختلاف الألـوان والابعـاد ، ولا يشعر من عطب ذوقه أو شمّه بتفاوت الاطعمة والـروائح ، كـذلك الجاهل لا يعـرف اختلاف الأشـياء ، وكلما ازداد الإنسـان علما ازداد معرفة بحـدود الأشـياء واختلافها ، وميزات كل واحد على الاخر ، مثلا : الخبير بالاقمشة يميز بين نوع وآخر ، أما الجاهل فلا يشـعر لمـاذا تتفـاوت قيمة أنواعها. أليس كذلك؟

الحق والباطل هما صبغتا الطبيعة ، لا يفـرق بينهما إلّا العالمون ، وليست المشكلة في هذه القضـية عقلية فقط إذ الهوى أيضا يخالف التمييز بين الحق والباطل ، فهي إذا مشـكلة نفسـية أيضا ، وآيـات القـرآن تـترى في تحـذير الإنسـان من خلط الأمـور ، فكما أن الليل غـير النهـار ، والذكر غير الأنثى ، كذلك يختلف سـعي الخـير عن سـعي الشر.

(**وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى**)

أي يغطي الطبيعة بظلامه وهدوئه.

(2) قسما بالليل إذ يحيط بالأشياء ، وبالنهار إذ يتجلى بنوره ونشاطه ودفئه.

(**وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى**)

(3) منذ نعومة أظفارها تحب الطفلة اللعب بتماثيل تــزعم أنها أولادها ، ومنذ نعومة أظفــاره يحب الطفل ما يزعم أنه سـلاحه ، ما الـذي فـرق بين مشـاعرهما؟ وتنمو الطفلة وتتميز عن الطفل أكثر فأكثر بيولوجيا وسـيكلوجيا ، وكما يتميز الجنسان عند البشر كذلك في سـائر الأحيـاء والنباتات ، فسبحان الذي خلق الزوجين ، يتكامل أحــدهما بالآخر!

(**وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى**)

(4) وكما اختلف الذكر عن الأنثى ، والليل عن النهــار ، كذلك يختلف سعي الإنسان.

لو نظرت إلى خلية هل تسـتطيع أن تتنبأ بأنها سـوف تتفتق عن مولـود ذكر أم أنـثى؟ كلا .. ولكن الله يقـدر لها ذلك حسـبما يـرى من حكمة بالغة ، كـذلك حين تنظر الى فعلة يرتكبها شــخص قد لا تعــرف أنها ســتكون وســيلة لانشــاء حضــارة أو تــدمير حضــارة ولكن الله يعلم ذلك ويهدينا اليه بفضله. هناك إنفاق في سبيل الله ينمي المال ، ويــزكي القلب ، وينشط الــدورة المالية في المجتمع ، وهناك إنفاق يماثله في الظاهر ، ويناقضه في المحتــوى ، يوقف مسيرة التكامل في المجتمع. هناك قتال في سبيل الله يكون بمثابة عملية جراحية ناجحة ، وآخر يكون في

سبيل الطاغوت ، يهدم المجتمع ، ويبيد الحضارة ، والناس لا يـرون إلّا ظـاهر القتـال دون ان يعرفـوا هدفه ووجهته ونفعه وضره .. ولكن الله يهدينا الى ان هـذا سـعي حسن وأن ذاك سعي هدام.

(**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**)

(5) كل ابن أنثى يكدح في حياته ، ويسعى ، ويصـارع الأقـدار ، ولكن الـذي يعطي ماله في سـبيل الله ، ويتقي الحرام هو الذي ينتفع بعطائه.

(**فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى**)

انه يختلف عمن يعطي ويمن أو يعطي مما ســـرقه من الناس ، أو يختار أفسد ما عنده للعطاء ، أو يضعه في غير محلّه للمـدّاحين والمتملقين من حوله ، أو يهـدف من عطائه رياء وسـمعة وسـيطرة على المستضـعفين ؛ فـان عمله لا يتقبل منه لان الله يقول : (**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللـهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**) بل يكون وبالا عليه يوم القيامة ، وضيقا وحرجا في الدنيا.

(6) ما الذي يجعل سـعي الإنسـان وعطـاءه زكيّا نقيّا مرضيّا؟ إيمانه بالله ، وتصديقه برسالاته ورسله.

(**وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى**)

لان الايمان بالله يحـدد وجهة الإنسـان ، فليس سـواء من يســعى الى المســجد ومن يســعى الى الملهى! ثم هناك من يريد المسجد ولا يعرف السبيل اليه ، فمن يحدد لنا سبل السلام ، ويضعنا على المحجة البيضاء حـتى نصل الى حيث الخيرات؟ الرسل. فمن كذّب بهم ضل السبيل ، وكان كمن يريد مكة ولكنه

يضل طريقه فيصل الى اليمن.

وسـميت الرسـالة بالحسـنى لأنها تهـدينا إلى أحسن السبل لأحسن الاهداف.

وقد جاء في الحديث المأثور عن رسول الله ــ صـلّى الله عليه واله ـ قال : «ما من يوم غربت شـمس إلّا بعث بجنبتها ملكـــان يناديـــان ، يســـمعهما خلق الله كلهم إلّا الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفـا» [1]. وقد استوعب الكثير من أصحاب رسول الله هـذا الـدرس فــتراهم يــؤثرون على أنفســهم ولو كــان بهم خصاصة ، وينفقون أموالهم بلا حساب ابتغاء وجه ربهم. هكــذا أدبهم رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ـ حتى تسـاموا على شح أنفسهم ، جاء في رواية مأثورة عن الامـام البـاقر ــ عليه السلام ـ : قال : «**مرّ رسـول الله برجل يغـرس غرسا في حائط فوقف له وقـــال : ألا أدلك على غـــرس أثبت أصلا وأسرع إيناعا وأطيب ثمرا وأبقى؟ قـال : بلى. دلّــني يا رســول اللــه؟ فقــال : إذا أصــبحت وأمســيت فقل : ســبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلّا الله ، والله أكبر ؛ فـإن لك أن قلته بكل تسـبيحة عشر شـــجرات في الجنة من أنـــواع الفاكهة ، وهو من الباقيات الصالحات قـال : فقـال الرجل : فـاني أشـهدك يا رســول اللــه! ان حــائطي هــذا صــدقة مقبوضة على فقراء المسلمين أهل الصدقة**» [2].

(7) حينما تكــون النية صــالحة ، والقلب زكيّا ، فــان سبل الخير تحمل أصحابها إلى حيث السعادة والفلاح.

(**فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى**)

أي الحيـاة اليسـرى ، والعاقبة الحسـنى ، والسـؤال : كيف؟ الالكترون الصغير

---

(1) القرطبي ج 20 ص 83.

(2) نور الثقلين ج 2 ص 591.

المتناهي في الصغر داخل عالم (الذرة) يسـير في سـبيله المحدد له ، وهكذا المجرة المتناهية في الكـبر تسـبح في أفلاكها المحددة ، وكذلك ما بينهما لكل شيء سبيله ، فإذا عرفت سبل الأشـياء ، واسـتطعت ان تضـبط حياتك عليها فإنك تسير لاهدافك ، وإلّا فسوف تصطدم مع سبل الحياة وسنن الله فيها ، ولا تبلغ المنى.

(8 ـ 9) الحيـاة منظمة بـأدقّ مما نتصـور ، وأدق مما يعرفه كبار العلمـاء ، حـتى قـال أحـدهم وقد بهرته عظمة تنظيم العالم : العالم كتب بلغة رياضية. ان الجــزء الواحد من مليـــون جـــزء من الثانية محســـوب عند الله ، وان المثقـــال من ذرة خفيفة مـــوزون عند الله ، وان اللمحة والخطفة والنية محســـوبة عند الله ، ولكن بعض النـــاس يزعمـــــون بجهلهم أنهم في غابة تســــودها الفوضى ، فيكـذبون بـالحق ، ويبخلـون ، ويسـتكبرون في الأرض ، ونهايتهم العسرى.

(**وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى**)

فلم ينفق ، وتشبّث بما يملك ، وزعم أن المال يخلده ، وينقذه من الهلكة ، واضافة على ذلك كذب برسالة ربّه.

(10) انه يجد طريقا سهلا الى المهالك ، كمن يسقط من عـلّ لا يحتـاج الى وعي وإرادة وعـزم واختيـار. أرأيت الـذي يقـود سـيارة سـريعة في طريق جبلي لو غفل عن المقود هل يحتاج الى عـزم إرادة لكي يـرتطم بالصـخور ، أو تهوي به في الوادي؟ انه يتيسر لمصيره.

(**فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى**)

كما قـال ربنا سـبحانه : (**وَمَنْ أَعْـرَضَ عَنْ ذِكْـرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً**) [1].

---

(1) طه / 124.

(11) من ضيق نفس البشر ومحدودية أفقه أنه يفرح بما أوتي حتى يستغني به عما لا يملك ويتملكه الغرور به ، والاستغناء والغرور يدفعانه إلى الطغيان ، كما يقول ربنا سبحانه : (**إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى**) [1].

ومن فرط غرور المرء بماله يزعم أن ماله يصنع له المعجزات ، وانه يمنع عنه كل سوء ، ولكن هيهات.

(**وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى**)

أي سقط في الهاوية بفعل ذنوبه! وقيل : معناه إذا مات.

وقد جاء في حديث مأثور عن الامام الرضا ـ عليه السلام ـ في تفسير هذه الاية : انها نزلت في أبي الدحداح ، قال : ان رجلا من الأنصار كان لرجل في حائطه نخلة ، فكان يضربّه ، فشكا ذلك إلى رسول الله فدعاه ، فقال : أعطني نخلتك بنخلة في الجنة ، فأبى ، فسمع ذلك رجل من الأنصار يكنّى أبا الدحداح ، فجاء الى صاحب النخلة فقال : بعني نخلتك بحائطي ، فباعه فجاء إلى رسول الله ، فقال : يا رسول الله! قد اشتريت نخلة فلان بحائطي ، فقال رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ـ تلك بدلها نخلة في الجنة ، فأنزل الله تعالى على نبيه : (**وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى**) ... الآيات [2]

(12) من المسؤول عن عملك أنت أم ربك؟ كلّ منا يجيب بفطرته وبلا تردد أنه هو الذي اختار نوع عمله ، فهو إذا مسئول عنه ، ومجزي به ؛ إنما يوفر الله سبحانه له فرص الهداية كاملة ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها ، وهكذا أتم السياق بيان مسئولية الإنسان عن أفعاله ، وأن سعيه شتى ، فمن اختار العطاء

(1) العلق / 6.
(2) نور الثقلين ج 5 ص 589.

والتصـــديق يسّـــره الله للحســـنى ، ومن اختـــار البخل والتكذيب يسّره الله للعسرى. أقول : أكمل هذه البصـيرة ببيان : أن الهدى عليه ، والسعي علينا ، ولـذلك فالإنسـان هو الذي يتحمل مسئولية سعيه.

(**إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى**)

وقال سـبحانه : (**وَعَلَى اللهِ قَصْـدُ السَّـبِيلِ**) وقـال (**إِنَّ عَلَيْنا بَيانَــهُ**) وعلى الإنســـان ان ينتظر هـــدى الله وبيانه. فإذا هداه بادر باتباع هداه وتنفيذ بيانه.

(13) وإن الــرب الجبــار هو المسـيطر على شـؤون الاخـرة والـدنيا ، فـإذا اتبع أحد هـداه فبتوفيقه وتيسـيره ، وإذا ضـلّ وعصى ففي اطـــار قدرته ، فلا يعصي الله عن غلبة أو ضعف ، ولا يتهرب العصاة عن حدود مملكته.

(**وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى**)

ان العصـــاة يتّكلـــون على أنفســـهم ، ويزعمـــون أن هـامش الاختيـار والامتلاك الـذي أوتـوا يـوفر لهم إمكانية تحـــدي مـــالكهم ومليك الســـموات والأرض ، ولكنهم في ضـلال بعيد ، فالله هو مالك الـدنيا كما هو ملك الاخــرة ، ولذلك فبيده أمرهم وجزاؤهم في الدارين جميعا.

(14) ولـذلك فهو يعـاقبهم في الـدنيا بتسـهيل سـبيل العسر لهم ، واســـتدراجهم فيه بســـوء اختيـــارهم له ، ويعاقبهم في الاخرة بنار تتقد وتبتلع الأشقياء.

(**فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى**)

انها نـار ملتهبة ، تنتظر كـلّ الأشـقياء ، وعلينا الحـذر منها ، لان الله قد أنـذرنا جميعا ، فلا يقـولن أحد : أنا بعيد عنها لاني أملك مالا ، أو جاها ، أو انتمي

ـ ظاهرا ـ الى دين الإسلام ، وأوالي الرسول وآل بيته. كلا .. إنما يتقي النار من اتقى الله في الدنيا.

(15) أما الأشقى فانه يحترق بلهيبها ، ويصطلي بحرها لانّه لم يصنع لنفسه من دونها سترا من الايمان وصالح الأعمال.

(**لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى**)

(16) وعلامة الأشقى الكفر بالرسالة ، وعصيان الشريعة.

(**الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى**)

يبدو أن التكذيب حالة نفسية وعقلية ، بينما التولي حالة عملية ، أي كذب بقلبه ولسانه ، وتولى بعمله ومواقفه.

(17) أما الذي اتقى الله ـ فقد اتقى نار غضبه. صلاته تقيه ، صومه يجنبه ، إنفاقه يستره ، نيته الصالحة تحميه من تلك النار المتقدة.

(**وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى**)

ولماذا لم يقل ربنا : التقي ، ربما لان التقي الذي لم يبلغ مستوى «الأتقى» كان قد ارتكب بعض الخطايا فاستحق به لهبا من النار بقدرها ان لم يغفرها الله له ، وقد قال ربنا سبحانه : (**وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**) [1].

وهكذا الذي شقي ببعض الموبقات قد يغفر الله له كما قال سبحانه : (**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرى**

---

(1) التوبة / 106.

إِثْماً عَظِيماً) [1]

وإلى ذلك تشـيرالرواية المـأثورة عن الامـام البـاقر عليه السلام : «**النيران بعضها دون بعض**» [2].

وهكذا يبين السـياق حـالتين متقـابلتين تماما لتكونا ـ كما الليل يقابل النهار ـ مثلا لاختلاف السعي.

(18) ومن أبــرز صــفات : «الأتقى» التصــدّق بماله لكي يطهر قلبه من الشح والبخل وحب الدنيا.

(**الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى**)

كل من يملك مــالا ينفقه ، ولكن أكــثرهم ينفقـــون أمـوالهم ، ثم تكـون عليهم حسـرة ؛ لأنهم لا يبحثـون عن الزكــاة ، ونقــاوة القلب بقــدر ما يبحثــون عن الــذات وتكريس الانانية ، إلّا المتّقون الذين يعرفون أن حب الدنيا أصل كل انحراف ، فيطهرون بالزكاة قلوبهم من حبها.

(**وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى**)

فلم ينفق ماله جــــزاء على نعمة ســــبقت إليه من المنفق عليه ، ولم يطلب لانفاقه جزاء حـتى ولو كـان من نـوع طلب الشـكر ، أو محاولة إخضـاع الفقـير لسـلطته ، وتكـريس حالة الطبقية بهـذا الإنفـاق ، كإنفـاق الكثـير من المترفين والمسرفين.

(20) كلّا .. إنما ينفق لوجه الله ، وابتغــاء مرضــاته ، وسعيا وراء الجنة التي

---

(1) النساء / 48.

(2) نور الثقلين ج 5 ص 592.

وعد الله المنفقين.

(**إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى**)

ووجه الله رضـــــــاه وما أمر به ، ومما أمر به طاعة أوليائه.

(21) لأنه ابتغى رضوان الله فإن الله يرضيه بفضله.

(**وَلَسَوْفَ يَرْضى**)

وهل هنـاك غاية أسـمى من الرضـا؟ أليس الإنسـان دائم التطلع عــريض الطمــوح ، فكيف يرضــى؟ بلى. أنّى كـانت رغبـات الإنسـان عظيمة فـإن الجنة أعظم ، وفضل الله أكبر.

وهذه السـورة بمجملها ولا سـيما خاتمتها تكـرس في الإنسـان حس المسـؤولية ، بيد أن بعض القدرية حـاولوا تفسـيرها بما يتناسب ونظرية الجـبر الـتي تنـتزع حس المسؤولية عن القلب ، فإذا كـان كـلّ شـيء كتب بـالقلم وحتى عمل الإنسان فأين مسـئولية؟ ولمـاذا يحرضـنا الله على العطـاء ولا نملك من أنفسـنا شـيئا ، ولمـاذا يحـذرنا النار ولسنا الذين نقرر الدخول فيها أو اجتنابها؟ هكذا جـاء في صحيح مسلم عن أبي الأسود الـدؤلي قـال : قـال لي عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أين قضي ومضى عليهم من قـــدر ســـبق ، أو فيما يســتقبلون مما آتــاهم به نــبيهم. وثبتت الحجة عليهم؟! فقلت : بل شــيء قضي عليهم ومضى عليهم ، قـــال : فقال : أفلا يكون ظلما؟ ففـزعت من ذلك فزعا شـديدا ، وقلت : كل شــيء خلق الله وملك يــده ، فلا يســأل عما يفعل وهم يسألون ، فقـال لي : يرحمك اللـه. إني لم أرد فيما سألتك إلّا لاحرز عقلك.

وأن رجلين من مزينة أتيا رســول الله ـــ صــلّى الله عليه واله ـ فقالا : يا

رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليـوم ويكـدحون فيـه. أشـيء قضى عليهم ومضى ، من قـدر قد سـبق ، أو فيما يسـتقبلون به مما آتـاهم به نـبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال : «لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم ، وتصـديق ذلك في كتـــاب الله عز وجل (**وَنَفْسٍ وَما سَـــوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها**) [1].

ويبدو لي أن هناك خلطا فظيعا حـدث عند البعض بين الايمان بالقضاء والقدر ، وبين الأخذ بنظرية الجبر اليهودية الـتي زعمـوا فيها : أن يد الله مغلولة ، وأن الله لا يقـدر على تغيير شيء مما قـدّر سـبحانه ، وأن العبـاد مكرهـون على ما يفعلـون ، وأن الله يجـازيهم بغـير صـنع منهم في أفعالهم أو مشيئته.

ومنشأ هذا الخلط تطـرف بعض المؤمـنين ضد نظرية التفويض للقدرية التي زعمت أن الله ترك عباده لشـأنهم ، دون أن يأمر أو ينهى أو يقدّر شيئا.

والنظرية القاصـدة هي الوسـطى الـتي فـاتت الكثـير من المفسرين ، وهي الـتي تصـرح بها آيـات الله ، والـتي هي لب الشريعة وخلاصة الرسالات الالهية وهي : أن الله قضى وقــدّر ، وكـان مما قضى حرية الإنسـان في حـدود مشيئته ، ومسئوليتهم عن أفعالهم ، وأنه سبحانه هو الذي منح العبادة قدرة المشيئة ، كما أعطـاهم سـائر القـدرات ليفتنهم فيها ، وبيّن لهم الخـــير والشر وألهمهم الفجــــور والتقوى.

والرسـول ــ صـلّى الله عليه واله ــ بيّن ذلك ، ولكن النـاس فسّـروا كلام الرسـول بالخطإ كما فسـروا القـرآن كـذلك ، فالرواية السـابقة ــ مثلا ــ لا تخطأ القـرآن في مــدلولها ، إذ أن الرسـول بين أن الله قد قضى عليهم ما ألهمهم من الفجور والتقوى ، فإن فجروا فبإذنه (لا بـأمره ولا بفعله) وإن اتقوا فبإذن وبأمره (لا بفعله).

---

(1) أنظر القرطبي ج 20 ص 76.

وكذلك النص التالي انما يدل على أن الله سبحانه لم يترك عباده سدى. وفي النص ـ كما نقرأه ـ تصريح بضرورة السعي والكدح ، وإذا كان كل شيء قد تم فلم السعي ، ولماذا الكدح؟

جاء في الصحيحين والترمذي عن علي ـ عليه السلام ـ قال : «كنا في جنازة بالبقيع ، فأتى النبي ـ صلّى اله عليه واله ـ فجلس وجلسنا معه ، ومعه عود ينكت به في الأرض. فرفع رأسه الى السماء فقال : ما من نفس منفوسة إلّا قد كتب مدخلها» فقال القوم : يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا ، فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة. ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء؟ قال : اعملوا فكل ميّسر. أما من كان من أهل السعادة فإنّه ييسّر لعمل السعادة ، وأمّا من كان من أهل الشقاء فإنه ييسّر لعمل الشقاء» ثم قرأ : (**فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى**) [1].

ماذا نفهم من هذا الحديث؟ هل الجبر أم المسؤولية؟ إن تلاوة الرسول للآية تدل على أنه ـ صلّى الله عليه واله ـ حرّضنا للعطاء والبذل ، ولكنه ربط العاقبة بأمر الله ، بلى. لسنا نحن الذين نقرر السعادة والشقاء ، وإنما الله سبحانه ولكن بأعمالنا وبما نختاره ، أولم يقل سبحانه : (**كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**) [2] وقال : (**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**) فنسب السعي الى الإنسان ، والرسول رفض فكرة الجبر ، والاتكال على الكتاب الذي لا يفيد فيه حسب زعمهم.

---

(1) القرطبي ج 20 ص 84.
(2) المدّثر / 38.

سورة الضّحى

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**من أكثر قراءة والضحى في يوم أو ليلة لم يبق شيء بحضرته إلّا شهد له يوم القيامة ، حتى شعره وبشره ولحمه ودمه وعروقه وعصبه وعظامه ، وجميع ما أقلّت الأرض منه ، ويقول الرب تبارك وتعالى : قبلت شهادتكم لعبدي وأجزتها له ، انطلقوا به الى جنّاتي حتى يتخيّر منها حيث ما أحبّ ، وأعطوه من غير منّ ولكن رحمة مني وفضلا عليه ، وهنيئا لعبدي**».

تفسير نور الثقلين ج 5 ص 585.

الإطار العام

من رحم الظلام يتنفس الفجر ، ومن رحم المأســـاة يولد أمل التغيـير ، وعند ما تـأخّر الـوحي قليلا ، وزاد قلب الرســول شـــوقا ، ونفـــوس المؤمـــنين وجلا ، وأراجيف المشركين انتشارا ، هنالك جلجل الوحي في هضـاب مكة من جديد ، وشـقّ فجـره طريقه إلى القلـوب العطشى ، إلى النـور والـدفئ والحنـان ، فاسـتقبلته بحفـاوة ووعته بعمق.

هكـذا رحمة الله تهيأ الظـروف من قبل لتكـون أوقع أثرا وأبلغ نفاذا ، أرايت اليـتيم حين تتناوله يد الرحمة كيف يحن على الأيتـــام والمحـــرومين ، أو رأيت الضـــال حين يهتـــدي كيف يمتص قلبه الهـــدى كما تمتص حبة الـــتراب الندى في ضحوة الهجير؟! هكـذا يرضى المـؤمن بالقـدر ، فلو لا الليل إذا ســجي لم يعــرف القلب قيمة الضــحى ، ولــولا العطش لم يتلــذذ الكبد بشــربة مــاء هنيئــة. ولــولا التحــديات لما حــدث التطــور ، ولو لا الماسي لما قــامت القدرات.

ويبدو أن محور سورة الضحى كما ســورة ألم نشــرح هي هذه البصيرة التي مهدت

لها بالقسم بالضــحى ، والليل إذا ســجي ، ثم ببيــان أن تـأخير الـوحي لم يكن للـوداع ، بل لحكمة بالغة قد تكـون تكريسه في النفـوس ، ثم ذكّـرت الرسـول ــ صـلّى الله عليه واله ـ كيف منّ الله عليه بألوان النعم بعد الصـعاب ، عليه أن يسعى لإسعاد النـاس وهـدايتهم بكل ما أوتي من حول وقوة.

سورة الضحى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(وَالضُّـحى (1) وَاللَّيْـلِ إِذا سَـجى (2) ما وَدَّعَـكَ
رَبُّكَ وَما قَلى (3) وَلَلْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لَـكَ مِنَ الْأُولى (4)
وَلَسَـوْفَ يُعْطِيـكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (5) أَلَمْ يَجِـدْكَ يَتِيمـاً
فَـآوى (6) وَوَجَـدَكَ ضَـالاًّ فَهَـدى (7) وَوَجَـدَكَ عـائِلاً
فَـأَغْنى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَـرْ (9) وَأَمَّا السَّـائِلَ
فَلا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11))

بينات من الآيات :

(1) لماذا لا يجوز للناس ان يحلفـوا بخلق الله ، بينما يحلف الله يمينا بما خلق ، وجـاء في حـديث مسـتفيض ما يلي :

عن الامام البـاقر عليه السـلام : «**ان لله عـزّ وجـلّ ان يقسم من خلقه بما شـــــاء ، وليس لخلقه أن يقسموا إلّا به**» [1].

وفي هذا المعنى جاءت روايات كثيرة أخرى.

الجــواب : اننا حين نحلف بشـــيء نعطيه قيمة ذاتية يخشى أن تتحـول الى حالة من التقـديس المنافية لصـفاء التوحيد ونقائه ، وبينما ربنا حين يقسم بشــيء فإنه يعطيه قيمة ، ويجعلنا نلتفت إلى أهميته كــذلك في فاتحة هــذه الســورة القسم بالضـحى حيث ارتفـاع النهـار ، وميعـاد الإنسان مع الكد والنشاط.

(1) نور الثقلين ج 5 ص 588.

(**وَالضُّحى**)

(2) وما يلبث النهــار ينقضي ، وخلايا جسد الإنســان تتلف ، وأعصابه تتعب ، ويحتـاج الى راحة وسـبات فيـأتي الليل بظلامه الشامل ، وسكونه الوديع.

(**وَاللَّيْلِ إِذا سَجى**)

قالوا : سجي : يعني سكن ، وليلة ساجية : أي ساكنة ، والبحر إذا سجي : اي سكن وأنشدوا :

فما ذنبنا ان جاش بحر ابن عمّكم وبحرك ساج لا يواري الدّعا مصا

(3) وكما جسد الإنسان بحاجة الى سبات الليل ، فان روحه عطشى إلى الوحي ، أو ليس للنفوس إقبال وادبـارّ ، وكما أن الليل لا يــدل على نهاية النــور ، كــذلك تــأخر الـوحي لا يعكس انتهـاءه ، بل كـان الـوحي يتـنزل حسب الحاجة ، ولم يهبط جملة واحدة ليكون أثبت لافئدة النــبي والمؤمنين ، وقال سبحانه : (**وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَـوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً**) [1].

هكذا تأخر الوحي قليلا عن الرسول ـ صـلّى الله عليه واله ــ ليعـرف الجميع أنه ليس بشـعر منه ، ولا باكتتـاب لصــحف الأولين ، ولا بإبــداع من ذاته ، وإنما هو الــوحي الذي يتنزل بأمر الله متى شاء وكيفما شـاء ، ولكي تنتشر أراجيف قريش وتتراكم كما انتشرت حبال سحرة فرعون فخيّل الى النـــاس بأنها ســـحر عظيم ، هنالك أمر الله موسى ـ عليه السلام ـ بـأن يلقي عصـاه تلقف ما أفكـوا. فكانت أشد وطأة ، وأبعد أثـرا ، كـذلك الـوحي حينما عـاد الى هضاب مكة كما الضحى يـأتي بعد ليل سـاج فتتلاشى ظلام الاشاعات من أرجاء البيت الحـرام ، وتتبـدد شـكوك ضعاف المسلمين ، ويبدأ نهار الرسالة نشيطا مندفعا.

---

(1) الفرقان / 32.

(**ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى**)

أي ما ودعك الـوداع الأخـير ، ولا أبغضك ــ حـتى ولو بصـورة مؤقّتة ــ وقد اختلفت أحـاديث الـرواة عن سـبب تـأخر الـوحي ويمكن الجمع بينهما ، ونحن نـذكر فيما يلي طائفة منها لما فيها من فوائد هامة ، بالاضــــافة إلى أنها توضّح جانبا من حياة الرسول ، وتساهم بقـدر ما في فهم القرآن :

روي عن الامـام البـاقر ــ عليه السـلام ــ في تفسـير السورة أن جبرئيل ـ عليه السلام ـ أبطأ على رســول الله ، وأنه كانت أول سورة نـزلت أقـرأ باسم ربك الـذي خلق ثم أبطأ عليه ، فقــالت خديجة ــ رضي الله عنها ــ : لعل ربك قد تركك فلا يرسل إليك ، فأنزل الله تبارك وتعالى : (**ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى**) [1].

وفي حديث آخر : ان المسلمين قـالوا لرسـول الله : ما ينزل عليك الوحي يا رسول الله؟! فقال «وكيف يــنزل علي الـــوحي وأنتم لا تنقّـــون بـــراجمكم [2] ولا تقلّمـــون أظافركم» ولما نزلت السـورة قـال النـبي لجبرئيل : «**ما جئت حـــــــتى اشـــــــتقت إليك**» فقــــــال جبرئيل : «**وانا كنت أشدّ إليك شوقا ، ولكني عبد مأمور ، وما نتنزّل إلّا بأمر ربّك**» [3].

وروي عن ابن عباس : أنه احتبس عنه الوحي خمسة عشر يوما ، فقال المشركون : إن محمدا ودعه ربه وقلاه ، ولو كـان أمـره من الله لتـابع عليه كما كـان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء [4] فنزلت السورة.

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 564.
(2) اي العقد التي تكون في ظهر الأصابع.
(3) مجمع البيان ج 10 ص 504.
(4) القرطبي ج 20 ص 92.

وهـذه الأسـباب متداخلة ، فقد يكـون سـبب تـأخير الـوحي الظـاهر أكـثر من سـبب واحد ، وأنّى كـان فقد امتحن المؤمنون ، وزاد شـوق الرسـول الى الـوحي ، كما ذهبت إشاعات المشـركين أدراج الريـاح ، وعـرف النـاس أن كلامهم باطل ، وأمرهم فرط.

(4) وكما يتفجر ضحى الشـمس بعد ليل سـاج ، وكما يتنزل الوحي بعد انقطاع وانتظار كذلك الاخرة التي تتـأخر زمنيا عن الاولى خير وأبقى ، وعلى المـؤمن ألّا يسـتعجل النتائج فقد يكون في تأخيرها مصلحة كبري.

(**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى**)

قيل : ان له في الاخـــــرة ألف ألف قصر من اللؤلؤ ترابها من المسك ، وفي كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم ، وما يشتهي ، على أتم الوصف [1].

وقال بعضهم : الاخرة تعني المستقبل ، وفيها بشـارة للنبي بأنه سيفتح له فتحا مبينا.

(5) ويبدو لي أن أعظم ما بشربه النـبي لقـاء جهـاده في الله ، وعنائه الشـديد الـذي فـاق عنـاء الأنبيـاء جميعا كـانت الشـفاعة ، ذلك أن قلبه الكبـير كـان ينبض بحب الإنسـان ، وهدفه الأسـمى كـان إنقـاذ البشـرية من إصر الشرك والجهل وأغلال العبودية والتخلف والفقر والمرض ، وحـتى في يـوم القيامة حيث كـان يقـول جميع النـاس والأنبياء معهم : نفسي نفسي ، ترى رسـول الله ـ صـلّى الله عليه واله ـ يدعو ربه بالشفاعة ويقول : أمتي أمـتي ، وفي أشد لحظات حياته عند ما نزلت به سـكرات المـوت كان يقول لقابض روحه : شدّد عليّ وخفف عن أمـتي. إن هـذا القلب الكبـير لا يملـؤه إلّا حبّ الله وحب عبـاده ، ولا يرضيه سوى إنقاذ عباد الله في الدنيا من

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 505.

الضلال بالدعوة والجهاد ، وفي الاخرة من النار بالشـفاعة ، ولذلك جاءت الاية التالية تفسيرا للآية السابقة :

(**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى**)

وماذا يرضي الرسول غير الشفاعة في أمته؟ من هنا جاءت الرواية المأثورة عن الامـام علي ــ عليه السـلام ــ حيث قال : «**قال : رسول الله ـ صـلّى الله عليه واله ـ : يشفّعني الله في أمّتي حتى يقـول الله سـبحانه لي : رضيت يا محمد! فأقول يا ربّ رضيت**» [1]

وروي عنه ــ عليه السـلام ــ انه قـال لأهل القـرآن : إنكم تقولون ان أرجى آية في كتاب الله تعـالى : (**قُـلْ يا عِبـادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَـةِ اللـهِ**) قـالوا : إنا نقـول ذلك ، قـال : ولكنا ــ أهل البيت ـ نقـول : إن أرجى آية في كتـاب الله قوله تعـالى : (**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى**) [2].

وفي حــديث آخر : «**إنها الشــفاعة ليعطينها في أهل لا إله إلّا الله حتى يقول : ربّ رضيت**» [3].

وقد أتعب رسول الله نفسه ، وحمل ذوي قربـاه على أصــعب المحامل من أجل الله ، ولبلــوغ درجة الوســيلة (التي أظنها هي الشفاعة بذاتها) جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـــ انّه دخل يوما على فاطمة ـ عليها السلام ــ وعليها كسـاء من ثلّة الإبل ، وهي تطحن بيــدها ، وترضع ولــدها ، فــدمعت عينا رســول الله لما أبصرها ، فقال : يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الاخرة ، فقد أنزل

(1) القرطبي ج 20 ص 95.
(2) المصدر.
(3) المصدر ص 96 ونص هذان الحديثان في حديث واحد عن علي (ع) في نور الثقلين.

الله عليّ «**وَلَسَــوْفَ يُعْطِيــكَ رَبُّكَ فَتَرْضى**» وقــال الصادق ـ عليه السـلام ـ : «**رضا جدّي أن لا يبقى في النار موحّد**» [1].

(6) لقد ترعـرع رسـول الله يتيما ، فقد والـده وهو لا يـزال في بطن امه ثم فقد والدته في الطفولة المبكـرة ، وذاق ـ كبشر ـ كلما يعانيه يـتيم الأبـوين من حرمـان عاطفي ، فجعله الله ينبوع الحب والحنان.

(**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى**)

كـان رسـول الله بطلعته البهية ، وجذابيته الاخّـاذة ، وبما حبـاه الله من بركة تفيض على من حوله مـأوى القلـوب الـتي تهـوي التقـرب اليه وتتنـافس على خدمته ، ألم تسمع قصة عبد المطلب ـ جـده العظيم ـ كيف كـان يشرف شخصيّا على راحته ، ومن بعده عمه أبو طـالب ـ سيد بني هاشم ـ يستميت في الدفاع عنه ، ويفضّـله على أولاده في الخدمة.

سـبحان اللـه! كيف يتجلى بآياته للخلق ، فيجعل يـتيم الأبـوين أعظم شخصـية عـبر التـاريخ ، الـذي أحبه أهل الأرض وأهل السماء ، فلم يحبّوا أحدا مثله.

وقد أثار البعض السؤال التـالي : لايّة حكمة جعل الله خاتم أنبيائه يتيم الأبـوين؟ تجيب الرواية التالية على ذلك : يقـول الامـام الصـادق ـ عليه السـلام ـ : «**لئلّا يكـون لمخلوق عليه حقّ**» [2].

وهناك تفسير آخر لليتيم نجده لليـتيم نجـده في بعض النصوص سنذكره ضمن تفسير الآيات التالية إنشاء الله.

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 595.

(2) نور الثقلين ج 5 ص 595.

(7) (**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى**)

لقد قدر الله للنبي ـ صلّى الله عليه واله ـ ان يكون خاتم النبيين قبل ولادته ، بل كان نورا يحدق بعرش الله ، وقد قال ـ صلّى الله عليه واله ـ : «**كنت نبيا وآدم بين الماء والطين**». بل كان مثلا للنور الذي خلقه الله في البدء ثم خلق الخلق به. جاء في حديث شريف : «**أول ما خلق الله نوري**» [1].

وقد قلّبته يد الرحمة الالهية في أصلاب شامخة ، وأرحام مطهرة ، حتى قال ربنا تعالى : (**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**).

وعند ولادته من أبوين كريمين ـ عبد الله سلام الله عليه ، وامنة بنت وهب سلام الله عليها ـ أظهر الله آيات عظيمة في العالم ، إيذانا بولادته فسقطت شرفة من ايوان كسرى ، وغاضت بحيرة ساوة ، وفاضت بحيرة سماوة ، وانطفأت نار المجوس بعد مئات السنين من اشتعالها.

وقرن الله به منذ ولادته ملكا يسلك به طريق المكارم ، قال الامام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ :

«**ولقد قرن الله به من لدنّ كان فطيما أعظم ملك من ملائكته ، يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن أخلاق العالم ، ليله ونهاره**» [2].

وهكذا أدبه الله فأحسن تأديبه كما قال ـ صلّى الله عليه واله ـ عن نفسه.

إلّا أن ذلك كله لا يعني أن القرآن من وحي نفسه ، بل إنه كان غافلا عن القرآن من قبل ان يقضي اليه وحيه ، لذلك قال سبحانه :

---

(1) موسوعة بحار الأنوار ج 1 ص 97.

(2) نهج البلاغة خ 192 ص 300.

(**وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِـهِ لَمِنَ الْغـافِلِينَ**) [1] وقـال : (**وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِـهِ مِنْ كِتـابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِـكَ إِذاً لَارْتـابَ الْمُبْطِلُـونَ**) [2] وقـال : (**وَكَـذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتـابُ وَلَا الْإِيمـانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا**) [3]

وبهـذا المفهـوم كـان الرسـول ضـالّا عن الشـريعة الجديدة ، وليس ضالا عن أيّة شريعة ، وعن الهدى الجديد لا عن اي هدى. هكذا قال بعض المفسرين.

بينما نجد تفسيرا آخر ينسجم مع مقام الرسـول : انّه كان ضالة العالمين ، يبحثون عنه ، فهـدى الله إليه النـاس ، وهذا تفسير أهل الـبيت عليهم السـلام ، وهو إن لم يكن تفسير ظاهر القرآن فلا ريب انه تفسير بطن من بطونه ، أو ليس للقرآن سبعة أبطن؟

هكذا روي عن الامام الرضا ـ عليه السلام ـ في قوله : «**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى**» قال : «فـردا لا مثيل لك في المخلوقين ، فآوى الناس إليك «**وَوَجَدَكَ ضَالًّا**» أي ضـالّا في قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك «**وَوَجَدَكَ عائِلاً**» تعول أقواما بالعلم فأغناهم الله بك» [4].

وهناك تفسيرات أخرى للآية تعكس اهتمام المؤمـنين بمقـام الرسـول ـ صـلّى الله عليه واله ـ وعـدم نسـبة الضلالة اليه كأن يكون الضلال بمعنى الضياع عن الطريق في طفولته ، أو عند ما سافر الى الشـام للتجـارة ، ولكن التفسيرين الأولين اولى.

(8) وكان الرسول يعيش في قبيلة بني هاشم ، الـتي كـانت تتمـيز بالسـؤدد ، والخلق الرفيع ، وتعتـبر المرجع الديني في مكة المكرمة ، ولكنها لم تكن ذا مال كبير ،

---

(1) يوسف / 3.
(2) العنكبوت / 48.
(3) الشورى / 52.
(4) نور الثقلين ج 5 ص 595.

وبالذات أبو طالب الـذي أصـبح شـيخ بـني هاشم بعد عبد المطلب بالرغم من فقره حتى قيل : ما ساد فقـير إلا ابو طالب ، ومن المعـروف تاريخيّا انه ــ عليه السـلام ــ قبل بتكفل أولاده من قبل أخوته لضيق ذات يده.

ولكن الله منّ على الرسـول بالسـعة ، حيث آمنت به واحــدة من أثــرى قــريش وهي خديجة بنت خويلد الــتي تزوجها الرسول ـ صلّى الله عليه واله ـ فأصبح غنيّا بفضل الله.

(**وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى**)

وقد مضى تفسـير آخر للآية : ان الرسـول كـان يعيل الناس ، فأغناهم الله بعلم الرسول وهداه.

(9) لقد نهض النبي من أرض الحرمان ، فكـان نصـير المحرومين ، وقد أوصاه الرب بمداراة اليـتيم ، ونهـاه عن قهره ، وتجاوز حقه.

(**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ**)

ان احسـاس اليـتيم بـالنقص يكفيه قهـرا ، ولا بد أن يقوم المجتمع بتعويض هذا النقص بـالعطف عليه ، لكي لا يتكـرس هـذا النقص في نفسه ، فيصـاب بعقـدة الضّـعة ، ويحاول أن ينتقم عند ما يكبر من المجتمع ، ويتعـالى على أقرانه ، ويستكبر في الأرض و.. و..

ولعل التعبير بعدم القهر يشـمل أمـرين : الاول : دفع حقـوق اليـتيم إليه ، الثـاني : عـدم أخذ الحق من عنـده بالقهر والتسلط.

وقد راعى القـــرآن الجــانب النفسي لليـــتيم مع انه بحاجة عادة الى معونة ماديّة

أيضا ، أو تدري لماذا؟ أولا : لان كل الأيتـام يحتـاجون الى عطف معنويّ ، بينما قد لا يحتاج بعضهم الى عون ماديّ ، ثانيا : لان النهي عن قهـــــرهم يتضـــــمن النهي عن استضعافهم المادي أيضا.

وقد وردت نصوص كثيرة في فضيلة الاهتمام بالايتـام والنهي عن ظلمهم ، فقد روي عن رسـول الله ـ صـلّى الله عليه واله ـ «**من مسح على رأس يـتيم كـان له بكل شعرة تمرّ به على يده نور يوم القيامة**» [1].

وقال : «أنا وكافل اليتيم كهـاتين في الجنة ، إذا اتقى الله عز وجل» وأشار بالسبّابة الوسطى [2].

وروي عن رسـول الله ـ صـلّى الله عليه واله ـ «**إنّ اليـتيم إذا بكى اهـتز لبكائه عـرش الـرحمن ، يقـول الله تعـالى لملائكته : يا ملائكـتي من ذا الـذي أبكى هـذا اليـتيم الـذي غيّبت أبـاه في الـتراب؟ فيقـول الملائكة : ربنا أنت أعلم ، فيقـــول الله تعـــالى لملائكته : يا ملائكـــتي! اشـــهدوا أنّ من أســكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة**» [3].

(10) وكما اليتيم الفقـير السـائل ، أوصى الإسـلام به خيرا ، فقال ربنا سبحانه :

(**وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ**)

ومن عـاش ورأى الحرمـان ، ولدغته لسـعات الجـوع كان أحرى باحترام مشاعر السائل كإنسان ، وسـواء وفّق لمساعدته أو لا فإنّ عليه أن يتجنب نهره وزجره ، وإغلاظ القول له ، فإن في ذلك إفسـاد لنفسه ، حيث يشـرع في التعالي على الناس والاستكبار في الأرض ، وعبادة الـدنيا وزينتها ، كما أن في ذلك إفساد نفسية

(1) نور الثقلين ج 5 ص 597.
(2) المصدر.
(3) القرطبي ج 20 ص 101.

السائل ، وزرعها بعقدة الضّـعة ، فربما دار دولاب الـزمن واستغنى السائل وافتقر المسؤل! كما أن في ذلك إفساد للمجتمع بتكريس الطبقية فيه.

وقد وصّى الإسلام بالسـائل كثـيرا ألّا ينهر ، فقد روي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ـ : «**ردّوا السـائل ببذل يسير ، أو ردّ جميل ، فإنه يـأتيكم من ليس من الانس ولا من الجن ينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله**» [1].

ونهى الإسلام من السـؤال ، واعتـبره ذلّا ، ولكنه نهى أيضا عن رد من يسأل ، جاء في حديث مـأثور عن الامـام الباقر ـ عليه السـلام ـ أنه قـال : «**لو يعلم السـائل ما في المسألة ما سأل أحد أحد ، ولو يعلم المعطي ما في العطيّة ما رد أحد أحدا**» [2].

(11) الرزق طعـام الجسد ، وشـكره طعـام الـروح ، ومن فقد الشـكر أحسّ بجـوع دائم ، أوليس أعظم الغـنى غنى النفس؟

أولئك الــذين يستشــعرون الفقر النفسي يشــبهون تماما المصــابون بمــرض الأفكل ، تســري في عــروقهم قشعريرة باردة ولو تحت عشرين دثارا.

والعطف على اليتيم ، ورد السائل بالإنفاق أو بـالكلام الطيب مظهـران للشـكر ، إلّا أن لشـكر نعم الله مظـاهر شــتى أمر الإســلام بها جميعا عــبر كلمة حكمة جامعة ، فقال :

(**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**)

والحديث عن النعمة يشمل ثلاثة أبعاد :

---

(1) المصدر.

(2) نور الثقلين ج 5 ص 598.

أولا : الاعـتراف به ، وبيانه أمـام الملا لكي لا يحسـبه النــاس فقــيرا وهو مســتغن بفضل الله ، فقد روي عن الامام الصادق ـ عليه السلام ــ في تفسـير الاية : **فحدث بما أعطاك الله ، وفضـلك ، ورزقك ، وأحسن إليك ، وهداك** [1].

ثانيا : أن يـــرى أثر نعمته على حياته ، فلا يبخل على نفسه مما رزقه الله ، مما يخالف حالة الترهب الـذي نهى عنه الإسلام فقد جاء في الحديث المأثور عن الامام أمــير المؤمنين ـ عليه السلام ـ حين اشتكى اليه الربيع بن زيــاد أخاه عاصم بن زياد ، وقال : انه لبس العباءة ، وترك الملا ، وأنه قد غمّ اهله وأحــزن ولــده بــذلك ، فقــال أمــير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : «عليّ بعاصم بن زيـاد» فجيء به فلما رآه عبس في وجهه وقــال له : أما اسـتحيت من أهلك ، أما رحمت ولـدك؟ أتـرى الله أحل لك الطيبـات ، وهو يكره أخـذك منهـا! أنت أهـون على الله من ذلك ، أو ليس الله يقول : (**وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ* فِيها فاكِهَـةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ**) أو ليس يقـول : (**مَـرَجَ الْبَحْـرَيْنِ يَلْتَقِيـانِ* بَيْنَهُما بَـرْزَخٌ لا يَبْغِيـانِ**) الى قوله : (**يَخْـرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ**) فبالله لابتـذال نعم الله بالفعل أحبّ اليه من ابتذالها بالمقال ، فقد قال عز وجل : (**وَأَمَّا بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ فَحَـدِّثْ**) فقـال عاصم : يا أمـير المؤمـنين! فعلى ما اقتصـــرت في مطعمك على الجشـــوبة ، وفي ملبسك على الخشــونة؟ فقــال : «**ويحــك! إن الله عز وجل فـرض على أئمة العـدل ان يقـدّروا أنفسـهم بضـعفة النـاس كيلا يتـبيغ بـالفقير فقـره**» فـالقى عاصم بن زياد العباء ولبس الملاء [2].

وينبغي أن يأخذ الإنسـان من زينة الحيـاة الـدنيا بقـدر حاجته ، فقد روي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ــ أنه قـــال : «**إنّ الله جميل يحب الجمـــال ، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» [3].

---

(1) المصدر.
(2) المصدر ص 601.
(3) القرطبي ج 20 ص 102.

ثالثا : شكر من أنعم عليه من أرباب النعم ، والإنفـاق على الآخرين ، فقد جاء في الحديث المـأثور عن النـبي ــ صـــلّى الله عليه واله ـــ : «**من لم يشـــكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر النـاس لم يشـكر الله ، والمتحــدّث بـــالنعم شـــكر ، وتركه كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب**» [1].

وبقي ذكر رسول الله ـ صـلّى الله عليه واله ــ خالـدا رغم أنف المعانـــدين له ، فقد روي عن معاوية أنه ســمع المؤذن يقول : اشهد ان لا إله الا الله وان محمـدا رسـول الله ، فلم يملك إهابة ، واندفع يقول :

«**لله أبـــــوك يا ابن عبد الله ، لقد كنت عـــــالي الهمة ، ما رضيت لنفسك إلا ان يقرن اســمك باسم رب العالمين**» [2]

وروى مطرف بن المغيرة قـال : وفـدت مع أبي على معاوية ، فكـان أبي يتحـدث عنـده ثم ينصـرف إلي ، وهو يـــذكر معاوية وعقله ، ويعجب بما يـــرى منه ، واقبل ذات ليلة ، وهو غضبان فأمسك عن العشاء ، فانتظرته ساعة ، وقد ظننت انه لشيء حـدث فينا أو في عملنا ، فقلت له : مـــالي أراك مغتما منذ الليلـــة؟ قـــال : يا بـــني! جئتك من أخبث الناس ، قال : ما ذاك؟

قال : خلوت بمعاوية فقلت له : إنك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين! فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا ، فانك قد كـبرت ، ولو نظـرت الى إخوتك من بـني هاشم فوصـلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه.

فثار معاوية واندفع يقول :

---

(1) المصدر.

(2) حياة الامام الحسين / باقر شريف القرشي / ج 2 ص 151.

«هيهات!! هيهات ملك أخو تيم فعدل ، وفعل ما فعل ، فوالله ما عدا ان هلك ذكره ، إلا أن يقول قائل : ابو بكر ، ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين ، فوالله ما عــدا ان هلك ذكــره ، الا أن يقــول قائل : عمر ، ثم ملك أخونا عثمـــان ، فملك رجل لم يكن أحد في مثل نســـبه ، فعمل به ما عمل فوالله ما عــدا ان هلك ذكــره ، وان أخا هاشم يصــرخ به في كل يــوم خمس مــرات : اشــهد ان محمدا رسول الله ، فأي عمل يبقى بعد هذا ، لا أمّ لك إلّا دفنا دفنا ..» [1].

(1) شرح نهج البلاغة لابن الحديد المعتزلي / ج 2 ص 297.

سورة الشرّح

الإطار العام

بسم الله الرّحمن الرّحيم

جـاء في النصـوص المـأثورة عن أهل الـبيت ــ عليهم السلام ـ أن هذه وما سبقتها كسورة واحدة ، يجـوز الجمع بينهما في صـــــــلاة فريضة بخلاف غيرها ، فقد روي عن الصادق ــ عليه السـلام ــ أنه قـال : «**لا يجمع سـورتين في ركعة واحــدة إلّا الضـحى وألم نشــرح ، وألم تر كيف ولإيلاف**» [1] وذلك لتعلق إحـــداهما بـــالأخرى ، والسؤال : كيف؟

إنّ الله سـبحانه عـدّد طائفة من مننه على الرسـول في السورة الاولى ، وبين طائفة أخرى في الثانية ، ولعـلّ السورة الاولى تتصل بالنعم الشخصـية ، بينما الثانية تـبين النعم المتصلة به كصاحب رسالة.

ويؤيّد الوصل بينهما ما روي عنه ـــ صـــلّى الله عليه واله ــ من سـبب نـزول السـورة حيث قـال : سـألت ربي مسألة وددت أني لم أسألها ، قلت : يا رب!

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 593

اتخـذت إبـراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، وسـخّرت مع داود الجبال يسبحن ، وأعطيت فلانا كذا .. ، فقال عــزّ وجلّ : ألم أجدك يتيما فآويتك؟! ألم أجدك ضالا فهديتك؟! ألم أجـدك عـائلا فأغنيتـك؟! ألم أشـرح لك صـدرك؟! ألم أوتك ما لم أوت أحدا قبلك ، خواتيم سـورة البقـرة؟! ألم أتخذك خليلا كما اتخذت إبراهيم خليلا؟! قلت : بلى يا رب [1]

(1) القرطبي / ج 20 ص 102

سورة الشرح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنا عَنْـكَ وِزْرَكَ (**
2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْـرَكَ (3) وَرَفَعْنا لَـكَ ذِكْـرَكَ (4)
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْـرِ يُسْـراً (5) إِنَّ مَـعَ الْعُسْـرِ يُسْـراً (6)
فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8))

---

7 (**فَـرَغْتَ**) : قيل : ان الفـراغ هو الهم والحـزن ، واسـتدلوا بقوله : «**وَأَصْبَحَ فُـؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغـاً إِنْ كـادَتْ لَتُبْـدِي بِـهِ**» أي مهموما محزونا ، وعلى هذا المعنى : فاذا أصابك الهم ، فانصب لله قائما.

ألم نشرح لك صدرك

بينات من الآيات :

(1) هكـذا جـاء الخطـاب الالهي لرسـوله يفيض حنانا وعطفا ، ويذكر المسلمين بفضـيلة رسـولهم ، ويلقي حبه واحترامه في روعهم ، ويقول :

(**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**)

لقد بلغ محمد بن عبد الله ـــ صـلّى الله عليه واله ـــ أسمى درجة من الكمـال مما لم يبلغ أحد قبله ، ولا يمكن لأحد أن يبلغه غـــيره ، كل ذلك بفضل الله ومنّه وتوفيقه ، وعلينا أن نميّز تماما بين إكرام مخلوق لكرامته عند الله ، ووصـفه بالكمـال الـذي حبـاه ربه وإعظامه ؛ لانّ الله أمر بذلك وفي حـدود أمر الله ، وبين أن نفعل مثل ذلك بعيـدا عن الله .. ألا تـرى أنّنا حين نشـهد للنـبي بالرسـالة في الصلاة ، نقول : وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ، فلما ذا نؤكّد على أنّه عبد اللـه؟ أحد أسـباب ذلك لكي لا يـدفعنا حبنا للرسـول إلى الغلو فيه ، كما فعل النصـارى في ابن مريم

ـ عليهما السلام ـ.
والآيات في سورة الضحى وهذه ترفع شـأن الرسـول إلى أسمى المراتب ، ولكن بصـيغة تنفي في ذات الـوقت بدعة الغلو الــتي ابتليت بها الأمم فيما يتصل بالصــالحين منهم ، وإنّك لترى ـ مع كل هذا الوضـوح في التعبـير ــ أنّ عامّة المسلمين لا تخلوا نظراتهم حول النبي وسائر أولياء الله من شوائب الغلو ، جهلا بأنّ مقاماتهم السامية ليست بـــذواتهم ، بل بما حبـــاهم الله ســـبحانه ، وإلّا فهم بشر كسائر البشر لولا رحمة الله.
وقد شرح الله صدر النبي بالايمان ، وشرحه باليقين ، وشـرحه بالرسـالة ، حـتى جعله يتحمل ما تشـفق الجبـال من حمله ، حـــــتى واجه ذلك المجتمع الجـــــاهلي الفظ الجافي الحاد العنيف بتلك الأخلاق الحميدة التي نعتها الله جل ثناؤه بالقول : (**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**) [1].
لقد وسع قلبه لما مضى من الزمــان ولما قد يــأتي ، وهيمن بقلبه الكبير عليهما جميعا ، ولا يزال الزمن يتقــدم ويتطور ورسول الله يقوده وحتى قيام الساعة.
ولقد شــرح الله صــدر الرسـول بأولئك الصـفوة من أصـحابه الـذين حملـوا رسـالته ، وتـابعوا مسـيرته وفي طليعتهم ابن عمه الامام علي ـ عليه السلام ــ الـذي كـان منه بمنزلة هــارون من موسى ـــ حسب الحـديث المتفق عليه ـ أو لم يؤيد الله كليمه موسى ـ عليه السلام ــ بأخيه هارون ، وكان استجابة لدعائه ، حيث قـال : (**رَبِّ اشْـرَحْ لِي صَدْرِي**) الى قوله : (**وَاجْعَـلْ لِي وَزِيـراً مِنْ أَهْلِي* هارُونَ أَخِي**).
(2) حينما يشـــــرح الله القلب بالايمـــــان فإنه يتسع للمشاكل والصعاب ، ويقدر

(1) القلم / 4

على مواجهة أعتى التحديات ، أو تـدري كيـف؟ لان القلب يومئذ يضـحى طـاهرا من وسـاوس الشـيطان ، نقيّا من رواسب الشرك ، بعيدا عن أغلال التبرير والخداع الذاتي ، سليما من البغضاء والضغائن والحسد والظنون والتمنيـات ، وآنئذ يكون صاحبه خفيف المؤنة ، نشـيط التحـرك ، كما لو نشط من عقال ، ولعل القرآن يشير الى ذلك بقوله :

(**وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ**)

لان الــــوزر هو الحمل الثقيل ، ووضع الحمل رفعه ، فأي حمل أشـدّ ثقلا من حب الـدنيا ، والخـوف من أهلها ، والتثاقل إلى الأرض؟ ونجد تأييد ذلك في الحديث المـأثور عن النبي ـ صلّى الله عليه واله ـ حيث سـئل فقيل له : يا رسـول اللـه! أينشـرح الصـدر؟ قـال : «نعم» قـالوا : يا رسول اللـه! وهل لـذلك علامة يعـرف بهـا! قـال : «**نعم. التجـافي عن دار الغـرور ، والانابة إلى دار الخلـود ، والاعداد للموت قبل نزول الموت**» [1]

فاذا كان شرح الصدر ـ في حسب هذا الحـديث ـ يتم بالتجافي عن الدنيا ، فان وضع الوزر يكون أحد مظاهره ، كما نجد تصـديق ذلك في قوله سـبحانه صـفة الرسـول :

(**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ**) [2]

والإصر هو الحمل الثقيل ، وقد فســـرت بالشـــرك والخرافات ، كما أن أحد معاني الأغلال : القيـود النفسـية التي تمنع التحرك.

وقد تم كل ذلك بـالوحي المتمثل في الكتــاب ، وأي مــؤمن ليســتفيد منه نصــيبا عند ما يتلــوه حق تلاوته ، فينشرح به صدره ويتخفف عن وزره وأثقاله.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 603

(2) الأعراف / 157

(3) وأيّ وزر عظيم هو ضـيق النفس وحـرج القلب؟! إنه ينقض ظهر صاحبه ، وبالذات إذا حمل رسـالة الله إلى العـالمين ، انه وقر كبـير لا يقـدر عليه إلّا من شـرح الله صدره بالايمان واليقين والتوكل عليه ، وتفويض الأمر اليه ، هكذا قـال شـعيب ــ عليه السـلام ــ حينما تحـدى فسـاد قومه وقـال : (**إِنْ أُرِيـدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْـتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**) [1].

(**الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ**)

قـالوا : أي أثقله ، حـتى سـمع نقيضه ، وهو صـريره الذي يكون من شدّة الحمل.

(4) عند ما يخلص العبد لربه حياته ، ويصـــــــفو من أدران الــدنيا ومصــالحها وشــهواتها ، ويتخلص من قيــود المادة أو أغلالها فإنه يصـبح قـرين الرسـالة ، يسـمع بها ، ويعلو ذكـره بسـبب تصـدّيه لنشـرها وذوبانه في بوتقتها ، كذلك سيد المرسلين استخلصه الله لنفسه ، فأصبح ذكره قـــرين ذكر الله ، وطاعته امتـــدادا لطاعة الله ، وكلامه وسـنته وسـيرته وآدابه جـزء من احكـام الله ، فقـال ربنا سبحانه : (**وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهـاكُمْ عَنْـهُ فَـــانْتَهُوا**) [2] هكـــذا رفع ذكـــره ، الا تـــرى كيف يهتف المؤذنــون باسـمه مع كل شـارقة وغاربة ، وعــبر ملايين الحناجر المؤمنة.

(**وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ**)

وذكر الرسول مرفوع في الدنيا بتأييد الله لدينه الذي يظهره على الدين كله وبقبول شـفاعته في الاخـرة الـتي يرضـــيه بها ، واليـــوم وبعد أربعة عشر قرنا من نـــزول القرآن الكريم نجد اسم الرسول محمد ــ صـلّى الله عليه واله ـ هو أشهر اسم في العالم ، وشخصيته الكريمة أحب الى قلوب الملايين من أيّ شخصية أخرى ، وإذا

---

(1) هود / 88

(2) الحشر / 7

ذكروا أعظم شخصية عبر التاريخ فسوف يكــون هو الاول ، لا ريب حتى عند غير المسلمين.

(5) من يـتيم عائل يحيط به الأعـداء اضـحى رسـول الله سيّد قومه ، ثم بـاني أمة ، ثم شـيّد البشـرية جميعا ، من فعل ذلك به أو ليس اللــه؟ فلما ذا نيـأس من روحه ، ونتراجع ببعض الأذى الذي يصيبنا في سبيله؟

(**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً**)

انه يلازمه أنى سار ، لان العسر يحمل في ذاته بــذور اليسر ، ولان العسر حالة عــابرة في حيــاة الإنســان ، أوليس قد خلق الله الخلائق لــــــيرحمهم ، وانما يبتليهم بالعسر والشدة؟ أو ليس قد سبقت رحمة ربنا غضبه؟ إذا فالعسر لا يدوم ، والدليل على ذلك سـيرة الرسـول الـتي أخلــدها القــرآن للعــبرة بها ، لأنها مثل أعلى لحياتنا نحن المســـلمين ، نتبع هــــداها فيرزقنا الله روحها وعقباها ، وبتعبير آخر : الذي يتبع سيرة الرسـول بقـدر أو آخر فـإنّ الخطـوط العريضة لحياته سـوف تتشـابه مع تلك السـيرة في عسرها ويسرها ، في صعابها وفي عواقبها الحسنى.

ولقد قــال ربنا ســبحانه : (**لَكُمْ فِي رَسُــولِ اللــهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) [1] فمن تأسى برسول الله في حياته حصل على جزء من مغانم سيرة الرسول ومكتسباتها.

(6) وراء العسر الواحد يسران : يسر في الدنيا وآخر في الاخــرة ، يسر نــابع من رحمة الله الــتي وســعت كل شيء ، ويسر منبعث من الصبر والاستقامة ، وبالتالي من رحمة الله الخاصة بالمؤمنين ، لذلك كرّرت الاية :

(**إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً**)

---

(1) الأحزاب / 21

قالوا : إن من عادة العرب إذا ذكـروا اسـما معرّفا ثم كـرروه فهو هو ، وإذا نكّـروه ثم كـرروه فهو غـيره ، وهما اثنان ليكون أقوى للأمل وأبعث للصبر.

ولذلك جاء في الحديث المروي عن الرسول ـ صـلّى الله عليه واله ـ : أنّه خـرج مسـرورا فرحا ، وهو يضـحك ، ويقول : «**لن يغلب عسر يسرين**!» [1]

وجاء على لسان الشاعر :

إذا ضاقت بك الأحوال يوما	توسّـل بـألم نشـرح تجد عسـرين مع يسـرين

لا تحزن ولا تفرح

(7) كيف جعل الله مع عسر واحد يسرين إثنين؟ إنما بتوكل المـؤمن على ربه ، واجتهـاده في العمل ، حـتى إذا فـرغ من مسـئولية لمسـؤولية أخـرى فمن دون تـوان أو انقطاع.

(**فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ**)

قالوا : فإذا فـرغت من الصـلاة فانصب للـدعاء ، قبل أن تقـوم من مقامك ، أو إذا فـرغت من أمـور الـدنيا فانصب للعبادة ، أو إذا فرغت في نهارك عن أمـور الخلق فانصب بالليل في طاعة الحق.

ويبدو أن كل هذه المعاني صحيحة لان الكلمة تسـعها ، ومعناها ـ فيما يظهر ـ الفـراغ من عمل والاجتهـاد في عمل جديد ، والعمل الاول يكون أسهل من الثـاني لأنه قد بذل جهده فيه ، ولذلك جاء التعبير ب «فانصب».

ذلك أن القلب المتّقد شـوقا إلى رضـوان الله ، وولها الى الزلفى منه لا يني يحمل

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 604

الجسد على الأعمال الصالحة ، لا يفرغ من واحد حتى تراه يشتغل بالثاني ويجتهد فيه وينصب لتحقيقه ، إنّ نفسه منه في نصب لان أهدافه كبيرة ، وتحسّسه بالزمن وسرعة انصرامه عنه ، وبالموت وتسارع خطاه إليه ، وبالأجل الذي لا يستأخر ولا يستقدم ساعة حلوله ، وبالقبر الذي ينتظره لنومة طويلة ، وبالحساب ينتظره بكل هيبته ودقّته .. أقول : إن عمق تحسّسه بكل ذلك يقضّ مضجعه ، ويسلب راحته ، ويلهيه عن اللهو ، ويشغله عن اللعب ، ويصوّمه عن لذّات الدنيا إلّا بقدر حاجته ، ويزهّده في درجاتها الزائلة.

هكذا كان أولياء الله الصالحين ولا يزالون فطوبى لهم ثم طوبى لهم ، وهكذا تجدهم عند نزول الموت بهم يتحسرون لا لفراق الأحبة ، وانعدام لذات الدنيا. كلا .. وإنما لأنهم بالموت يفقدون لذة قيامهم بالليل ومناجاتهم مع رب العباد ، كما يفقدون لذّة العطش في صيام الهواجر.

كذلك يصفهم الامام علي ـ عليه السلام ـ في خطبة المتقين حيث يقول : «**ولولا الأجل الّذي كتب الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين ، شوقا إلى الثّواب ، وخوفا من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم ، فهم والجنّة كمن قد رآها ، فهم فيها منعّمون ، وهم والنّار كمن قد رآها ، فهم فيها معذّبون. قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة. صبروا أيّاما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة. تجاره مربحة يسّرها لهم ربّهم. أرادتهم الدّنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها. أمّا اللّيل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتّلونها ترتيلا. يحزّنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم. فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها**

طمعا ، وتطلّعت نفوسهم إليها شـوقا ، وظنّـوا أنّها نصب أعينهم. وإذا مـــرّوا بآية فيها تخويف أصـــغوا إليها مســـامع قلـــوبهم ، وظنّـــوا أنّ زفـــير جهنّم وشـــهيقها في أصـــول آذانهم ، فهم حـــانون على أوساطهم ، مفترشـون لجبـاههم وأكفّهم وركبهم ، وأطـراف أقـدامهم ، يطلبـون إلى الله تعـالى في فكـاك رقـابهم. وأمّا النّهـار فحلمـاء علمـاء ، أبـرار أتقيـاء. قد بـراهم الخـوف بـري القـداح ينظر إليهم النّاظر فيحسـبهم مرضى ، وما بـالقوم من مـرض ؛ ويقول : لقد خولطوا!» [1] وقد كـان رسـول الله المثل الأعلى لهذه الصفات ، فقد قام الليل حتى تورمت قـدماه ، وعـانى من الجـوع حـتى شد على بطنه حجر المجاعة ، وطلبته الدنيا فكشح عنها.

ولم يـزل خلال أيـام رسـالته المحـدودة يهـدم بـنى الجاهلية في كـلّ يـوم ليقيم مكانها صـرح الإسـلام ، فما فــرغ من مهمّة الا لينصب للثانية ، حـتى إذا أكمل الله به الدين نصب نفسه لمهمة الخلافة من بعده ، فاستوزر عليا ــ عليه السـلام ــ إماما من بعـده ، وكـانت تلك أصـعب مراحل حياته ، حيث واجه مخالفة واســـــــعة من بعض أصحابه ولكنه نهض به بكل عزم واستقامة.

من هنا جاء في تفسير الاية عن الامام الصادق ـ عليه السـلام ــ : «**فـإذا فـرغت من نبوتك فانصب عليّا ، وإلى ربّك فارغب في ذلك**» [2]

(8) وما الـــذي يجعل المؤمـــنين في حركة ذاتيّة ، ونشـــاط لا ينقطـــع؟ إنه حب الله والرغبة اليه ، ومن وله بأحد استســـهل الصـــعاب من أجله ، وأي حبّ أكـــبر في صـــدور المؤمـــنين من حبهم لله وقد قـال الله : (**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**) [3] لذلك جاء النداء

---

(1) نهج البلاغة / خ 193 ص 303
(2) تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 605
(3) البقرة / 165

للرسول ومن خلاله للامة :

(**وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ**)

لقد كـان قلبه عند ربه ، تنـام عينـاه ولا ينـام قلبه ، وكـان إذا جنّ عليه الليل تفـرغ للابتهـال والاجتهـاد ، دعنا نستمع الى قصة ترويها عائشة عن قيامه بالليل ، حسـبما جاء في رواية الامام الصادق ـ عليه السلام ــ قـال : كـان ليلة النصف من شعبان وكان رسول الله ـ صلّى الله عليه واله ـ عند عائشة ، فلما انتصف الليل قـام رسـول الله ــ صـلّى الله عليه واله ــ عن فراشه ، فلما انتبهت وجـدت رسول الله ـ صـلّى الله عليه واله ــ قد قـام عن فراشه ، فداخلها ما يدخل النساء (اي الغـيرة) وظنّت أنه قـام إلى بعض نسـائه ، فقـامت وتلففت بشـملتها ــ وأيم الله ما كانت قزّا ولا كتانا ولا قطنا ، ولكن سداه شعرا ولحمته أو بـار الإبل ــ فقـامت تطلب رسـول الله في حجر نسـائه حجرة حجرة فبينما هي كـذلك إذ نظـرت إلى رسـول الله سـاجدا كثـوب متلبّد بوجه الأرض ، فـدنت منه قريبا فسمعته يقول في سجوده :

«**سجد لك سـوادي وخيـالي ، وآمن بك فـؤادي ، هذه يـداي وما جنيته على نفسي ، يا عظيم! تـرجى لكلّ عظيم ، اغفر لي العظيم ، فإنه لا يغفر الـذّنب العظيم إلّا الربّ العظيم**».

ثم رفع رأسه وأهـوى ثانيا الى السـجود ، وسـمعته عائشة يقول :

«**أعـوذ بنـور وجهك الـذي أضـاءت له السـموات والأرضون ، وانكشفت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخـرين من فجـأة نقمتك ، ومن تحويل عافيتك ، ومن زوال نعمتك. اللهم ارزقني قلبا تقيّا نقيّا ، ومن الشرك بريّا ،**

لا كافرا ولا شقيّا»

ثم عفر خديه في التراب وقـال : «عفّـرت وجهي في التراب وحقّ لي أن أسجد لك» [1]

(1) مفاتيح الجنان (اعمال النصف من شعبان) ص 169

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثـواب الأعمـال للشـيخ الصـدوق ، بإسـناده عن أبي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قـال : «**من قرأ «والتين» في فرائضه ونوافله أعطي من الجنّة حيث يرضى**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 606

الإطار العام

من لا يضع معلوماته في إطــار علمي رصــين لا ينتفع بها شيئا ، والقرآن الكريم يمنحنا ذلك الإطار. أرأيت لو لم تعرف نفسك من أنت ، من أين جئت ، والى أين تــذهب ، ومـاذا يصـلحك ، ومـاذا يضـربك ، كيف تسـتطيع أن تنتفع بمعلوماتك عما حولـك؟ فهل تفيـدك معرفة الـدواء لو لم تعرف المريض ومرضه؟

وسورة التين تهـدينا الى بصـيرة الـذات .. والـتي هي تمهيد لبصائر الحياة ، بل هي خلاصتها.

سورة التين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُـونِ (1) وَطُـورِ سِـينِينَ (2) وَهـذَا
الْبَلَــدِ الْأَمِينِ (3) لَقَــدْ خَلَقْنَا الْإِنْســانَ فِي أَحْسَــنِ
تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْـفَلَ سـافِلِينَ (5) إِلاَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْـرٌ غَيْـرُ مَمْنُـونٍ (6)
فَما يُكَــذِّبُكَ بَعْــدُ بِالــدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللــهُ بِــأَحْكَمِ
الْحاكِمِينَ (8)**)

(طور سينين) : قيل : هو جبل الطور بسيناء ، وقيل : كل جبل ذا شجر مثمر.

(ممنون) : الممنون : المقطوع ، يقال : منّه السير يمنّه منّا إذا قطعه ، والمنين : الضعيف.

أليس الله بأحكم الحاكمين

بينات من الآيات :

(1) وتفتتح هذه السورة بالقسم بما يصلح إطارا لهذه البصيرة. فما هو التين والزيتون؟

(**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ**)

تتميز الفاكهة عن سـائر الطعـام بسـهولة تناولها دون معالجة ، فــاللحم لا يستســاغ نيّا ، والحبــوب بحاجة الى معالجة وإعـداد ، بينما العنب مثلا يجـنى ويؤكل بلا معالجة ، بينما يتميز أنـواع من الطعـام بامكانية تخزينه ، وبزيـادة فوائـــــــــده للجسم ، بيد أنّ ألوانا من الفاكهة تجمع إلى ميزاتها كفاكهة مــيزات الطعــام ، بإمكانية تخزينها وغناها بالمواد الضرورية للجسد ومنها التين ، فهي سهلة التنـاول كأنها قد صنعت بقدر فمك ، طيبّة المذاق ، جليلة الفائــدة ، تجفّف لاوقات الحاجة ، وقد روي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في فضلها أنه قال : «**لو قلت أن فاكهة نزلت من الجنة**

لقلت هـذه هي ، لان فاكهة الجنة بلا عجم ، فكلوها فإنها تقطع البواسير ، وتنفع من النقرس» [1].

وكـذلك فاكهة الزيتـون الـتي هي من أعظم الفواكه نفعا للجسد وبالذات لان زيتها يعتبر الدهن النـادر الـذي لا يضر الجسد شـيئا ، وجـاء في حـديث مـأثور عن النـبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «**كلوا الزيتون وادّهنـوا به فإنه من شجرة مباركة»** [2].

(2) في كنف جبل مشـــجّر تحلو الحيـــاة لما فيه من فوائد ومنظر وحماية ، من هنا جـــاء ذكر الطـــور بعد ذكر طعام الإنسان فقال ربنا :

(**وَطُورِ سِينِينَ**)

وقيل في معنى «سـينين» الحسن باللغة السـريانية ، وقيل : ان كل جبل ذا أشجار مثمرة يسمى بسينين ، فقد قال مقاتل والكلبي : «سينين» كلّ جبل فيه شـجر مثمر [3]

(3) وأنى كان فإن الصورة تنسـجم مع القسم بـالتين والزيتـــون من جهة وبالبلد الأمين من جهة أخـــرى ، حيث قال ربنا سبحانه :

(**وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**)

ذلك أن أصـول مدنيّة الإنسـان : الطعـام ، والأرض ، والسلام. فإذا كان التين والزيتون مثلا لارقى أنواع الطعام ، وطور سـينين لأحسن الاراضي وأكثرها بركة ، فـان البلد الأمين مثل لأفضل البلاد وهي بلاد الأمن ، ويتناسب هـــذا الإطار مع

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 607.

(2) القرطبي ج 20 ص 112.

(3) المصدر.

محور السورة المتمثل في خلق الإنسـان بأحسن تقـويم ، ذلك لان تســخير الحيــاة له ، وإعـــداد طعامه وأرضه ، وتوفـير الأمن ، وبالتـالي توفـير وسـائل المدنيّة له بعض جوانب حسن صنعه إليه ، وجميل عطائه له.

وقد فسرت هذه الكلمات تفسيرات أخـرى لا تتنـافي وسعة كلمات القرآن وتخومها المتعددة ، فقـالوا : (**الْبَلَـدِ الْأَمِينِ**) : مكة شرفها الله (**وَطُورِ سِينِينَ**) : الجبل الذي نـادى الله جل ثنـاؤه فيه موسى ـــ عليه السـلام ـــ أما (**التِّينِ**) فقيل : انه البيت المقدس أو المسجد الحـرام أو مســجد دمشق ، بينما الزيتــون الجبل الــذي عليه بيت المقـدس ، أو ان الـتين هو مهبط سـفينة نـوح حيث جبل الجودي.

وجـاء في رواية مـأثورة عن النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ـ : ان الله تبارك وتعالى اختـار من كل شـيء أربعـة. إلى أن قـال : واختـار من البلـدان أربعة : فقـال تعـالى : (**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ* وَطُورِ سِينِينَ* وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**) فالتين : المدينة ، والزيتون : بيت المقدس ، وطور سينين : الكوفة ، وهذا البلد : مكة [1].

(4) قسما بتلك الـديار المقدسـة. وقسـما بتلك النعم التي تصنع حضارة البشر إن الإنسـان قد خلق خلقا سـويّا حسنا.

(**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**)

تتجلى قــدرة الله في صــنع جســده ، من اســتقامة قامته ، إلى شبكة أعصابه ، الى قدرات مخه ، الى مرونة جسمه وما فيه من قدرة احتمال للظروف المختلفة ، مما يدل على أنه قد اعدّ لدور أعظم من مجرد دوره الحيـاتي أو البنائي ؛ إنه ليس مجرد فرد متطوّر ، أنه مخلوق مكرّم ، سخر الله له الأحياء والنباتات والطبيعة ، فاذا دوره

(1) نور الثقلين ج 5 ص 606.

الحقيقي ليس في جســــــــمه وإنما في روحه ، في تلك الومضة المباركة من نـــور المشـــيئة الـــتي منح من دون ســـائر الأحيـــاء ، في ذلك القبس من نـــور العقل والعلم والمعرفة الذي زود به وميز به عن سائر الخلائق.

وهـذا المعـنى هو الـذي ينسـجم مع سـياق السـورة ، فـــالقوام الحسن الـــذي منّ الله به على الإنســـان ليس تقويم جسـده فقط ؛ لان هـذا التقـويم مقدمة لما هو أهم وهو قوام روحه ؛ ولان المؤمن والكـافر يشـتر كـان فيه ، ولا معنى لردّ الكفار وحدهم إلى أسفل سافلين.

إن الإنســـان قد خلق ليكـــون ضـــيف ربه الأعلى في جنان الخلد ، ليكون جليس مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ليكـــون مثل ربه العظيم يقـــول : للشـــيء كن فيكـــون ، ليكون في خطّ ذلك الإنسـان الـذي يعـرج الى ربه ويعـرج حتى يكون قاب قوسين أو أدنى.

(5) ولكن هـــذه الفرصة المباركة الـــتي منحت له تنعكس تماما عند ما لا يسـتفيد منها ، فيكـون كالمتسـلق جبلا عظيما ان زلت قدمه هوى إلى الوادي السحيق.

(**ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ**)

إلى اين؟ إلى جهنم وساءت مصـيرا ، حيث يتمـنى لو يكون ترابا.

(6) ما دام الإنسان قد خلق في أحسن تقويم فليترك نفسه مع الأقــــــدار تحمله أنى اتجهت؟ كلا .. إذ أن ذلك يؤدي به الى أسـفل سـافلين ، لا بد من الـوعي والنشـاط حـــتى لا يهبط الى الـدّرك الأسـفل ، ومثله في ذلك مثل الـــذي يوضع في قمة جبل ســامق ، فتهب عليه عاصـــفة شديدة ان لم يستخدم كل وعيه وقوته وعزمه لطوّحت به الى الوادي.

هكـــذا اســـتثنى الـــذكر (**الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ**) فقط ، وهم الـــذين يبقـــون في القمة حيث وجعلهم الله.

(**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْـرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**)

لا ينقطع أجــرهم ، وتتــواتر عليهم نعم الله ، أو ليس ربّنا لا تزيده كثرة العطاء إلّا جودا وكرما.

(7) لا يحتــاج أي حيــوان إلى العناية في أمــور حياته بقـــدر ما يحتـــاج الإنســـان ، فالطفل البشـــري تتضـــاءل احتمالات بقائه من دون عناية مناسبة قد يظل يعتمد على والديه فـــــترة طويلة ، كما أن الإنســـــان نفسه لا يملك وســائل دفاعية كافية في مقاومة ســائر الاخطــار ، بينما أوتي كل حيـــوان أدوات كافية للـــدفاع ، بينما أوكل هـــذا الأمر بالنســـبة إلى الإنســـان الى عقله وذكائه ، كل ذلك يـــدل على أنه مخلـــوق متحضّـــر ، يحتـــاج في وجـــوده وفي تكامله الى النظام.

(**فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ**)

ما الذي يدعوك إلى تكذيب الجزاء أيها الإنسان! ومن دون الايمان بالجزاء لا يمكن أن يبقى الإنســان حيث جعله الله في قمة الخلائق ، كما أنّه من دون الايمان بــالجزاء لا معنى للالتزام بالدين (الشريعة) بينما الدين ضرورة عقلية يهتدي إليها الإنسان ، أليس الإنسان قد خلق اجتماعيا فهو بحاجة الى نظام ، وأفضل نظام هو الذي يوحي به الرب ، أو ليس في الإنسان فرص التكامل الروحي والتقــرب إلى الله ، فهو إذا بحاجة الى رسل ورسالات ينجــزون له هــذه الفرص ، ومن جهة أخرى : الا تجدون الإنسان كيف ينهــار إلى منتهى الوحشية والفســاد من دون روادع ، فيســتخدم ذكاءه وقدراته في تدمير نفسه ، ألم تر كيف نشر الفساد في البر والبحر؟ ألم تسمع أنباء الحــروب العالمية ، أو لم تقرأ عما يعده لنفسه من وسائل التدمير؟! كل

ذلك يشهد على أن هذا الكائن العظيم لا يتكامل إلا بنظام إلهي عظيم .. إنه من دون الدين سفينة جبـارة بلا ربّـان ، طائرة كبيرة بلا طيّار ، فما هو مصيره يا ترى؟!

(8) ولو لا الجزاء الموعود لكان خلق الإنسـان عبثا أو حتى ظلما سبحان الله!

فكيف يتساوى عند الله من يهبط إلى أسفل سـافلين فينشر الفساد في الأرض ، ومن يتسـامى الى قمة الخـير والإحسـان؟ إن ايـات الله في الخليقة تهـدينا الى أن ربنا هو أحكم الحـاكمين ، فتشـهد ذلك على أنه جعل لهـذا الإنسان جزاء يبلغه في يوم الدين.

(**أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ**)

جاء في الحديث عن قتادة : وكان رسول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ـ إذا ختم هذه السورة قال : بلى. وأنا على ذلك من الشاهدين [1].

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 512.

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ قال : «**من قـرأ في يومه أو ليلته اقـرأ باسم ربك ثم مـات في يومه أو ليلته مـــات شـــهيدا ، وبعثه الله شـــهيدا ، وأحياه شهيدا ، وكان كمن ضرب بسـيفه في سـبيل الله عزّ وجل مع رسول الله صلّى الله عليه وآله**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 608

الإطار العام

في نفس ابن آدم كبر دفين ، يستثيره شعوره بالغنى ، ويذهب به إحساسه بالحاجة ، وإذا لم ينتبه الإنسـان الى هذا الداء العضال فـإن نعم الله عليه لا تزيـده إلّا طغيانا ، والطغيان مطية الهلاك.

وأما إذا تذكر الإنسـان ، وعـرف أنه بذاته جاهل فقـير مسـكين مسـتكين ، وأنّ الله هو الـذي علّم بـالقلم ، وأنّه حينما يقــرأ فــإنّ الله هو الأكــرم ، أهل الحمد والكبريــاء وليس هـذا المتعلّم الـذي يطغى بعلمه وعـرف أنّ الـثروة نعمة من الله لا بدّ من حمد الله عليها وشكره لا الطغيان بها ، ومواجهة الحق بها ، وكذلك الجاه والعشيرة.

لو عرف ذلك اطمأنت نفسه ، بل اسـتطاع أن يعـالج بإذن الله كـبر ذاته عـبر نعم ربه ، فكلّما زادت النعم ازداد شكرا لله وتواضعا لعباد الله ، وأداء لحقوق الله.

هكــذا يبــدو محــور ســورة العلق : معالجة طغيــان الإنســـان عند ما يحظى بنعمة العلم أو المـــال والجـــاه. معالجته بالمزيد من التعبد ، وهكـذا تختم السـورة بـالأمر بالسجود الذي هو معراج الإنسان إلى ربه.

سورة العلق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ (1) خَلَـقَ الْإِنْسـانَ
مِنْ عَلَــقٍ (2) اقْــرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْــرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ
بِـــالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسـانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلاَّ إِنَّ
الْإِنْســانَ لَيَطْغى (6) أَنْ رَآهُ اسْــتَغْنى (7) إِنَّ إِلى
رَبِّكَ الــرُّجْعى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى (9) عَبْــداً إِذا
صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كـانَ عَلَى الْهُـدى (11) أَوْ أَمَـرَ
بِالتَّقْوى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَــوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ
بِأَنَّ اللهَ يَرى (14) كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ
(15) ناصِـيَةٍ كاذِبَـةٍ خاطِئَةٍ (16) فَلْيَـدْعُ نادِيَـهُ (17)
سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (18) كَلاَّ لا تُطِعْـهُ وَاسْـجُدْ وَاقْتَـرِبْ (
19))

إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى

بينات من الآيات :

(1) لم تكن المرة الاولى للوحي ولكنها كانت الاخيرة ، وكــانت العظمى حيث جلجل الــوحي في جبــال مكة ، وهبط الأمين جبرئيل ، وحمل معه نـورا يتـألق سـناه عـبر الزمن.

كان النبي محمد ـ صـلّى الله عليه وآله ـ يقلّب وجهه في السـماء ينتظر سـاعة الانطلاق الكبـير ، كـان يعلم أنه رسـول الله ولكن مـتى يتـنزل عليه الـوحي ليـأمره بـأن يصدع بالحق؟ هذا الذي كان يبحث عنه بشوق كبير.

كانت الكعبة تستصرخه لينقذها من الصـخور الصـمّاء الــتي نصــبت من حولها وعبــدت من دون الله جهــارا ، وكانت تسـتنجد به لانّها حـوّلت من بيت الله الـذي وضـعه للناس جميعا ، إلى عاصمة مسـتكبري قـريش ، يفرضـون باسمها على الجزيرة سيادتهم الظالمة.

وكانت الانسانية المعذّبة في أرجـاء الجزيـرة تنتظـره بفارغ الصبر ، فهنا البنات يقتلن بغير ذنب ، وهناك يقتلون الأولاد أيضا ، والحقـــــوق تنتهك ، والزنا يتفشى ، والفقر والمســكنة والتخلف أصــبحت ســمة المجتمع أنّى يمّمت شطرك.

وأمّا الثقافة فقد أصـــــبحت في خدمة الطغـــــاة والمـــترفين ، على أنّها كـــانت ركاما من الأســـاطير والخرافــات ، ووســيلة لاثــارة النعــرات العشــائرية ، والعصــبيات التافهة ، والمفــاخر الكاذبة ، وأداة لتكــريس الأحقــاد والضــغائن ، والعلاقــات الاقتصــادية أصــبحت مجموعة أغلال وقيــود على نشــاط الإنســان ، على انها كانت قائمة على أساس الظلم والقهر والطبقية المقيتة.

وكانت الأوضـاع خـارج الجزيـرة ليست بأحسن أبـدا ، حيث جــرف التحريف والنفــاق اتبــاع موسى وعيسى ــ عليهما السلام ـ الى أبعد حدود الضلال.

وكـانت الثقافة ربّانية إلى هـذا الإنســان الغـارق في أوحـال الجهل والتخلف ، وبعث الله أعظم ملائكته الـروح القــدس ليــؤدب مصــطفاه من خلقه ، المختــار محمد ، وبعث جبرئيل الأمين ليلقي في روعه الوحي.

وإليك بعض ما جـاء عن أمـير المؤمـنين (ع) في نهج البلاغة :

«وأشــهد ان محمــدا عبــده ورســوله ، أرســله بالـــدين المشـــهور ، والعلم المـــأثور ، والكتـــاب المسطور ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، والأمر الصـــادع. إزاحة للشـــبهات ، واحتجاجا بالبينـــات ، وتحــذيرا بالآيــات ، وتخويفا بــالمثلات والنــاس في فتن انجــذم فيها حبل الــدين وتزعــزعت ســواري اليقين ، واختلف النجر ، وتشـــتت الأمر ، وضـــاق المخرج ، وعمي المصـدر ، فالهـدى خامل ، والعمى شــامل. عصى الــرحمن ، ونصر الشــيطان ، وخــذل الايمان فانهارت دعائمه ، وتنكرت معالمه ، ودرست سـبله ، وعفت شـركه ، أطـاعوا الشـيطان فسـلكوا مسالكه ، ووردوا مناهله.

بهم سـارت أعلامه وقـام لـواؤه. في فتن داسـتهم بأخفافها ، ووطئتهم بأظلافهـــــا. وقـــــامت على سـنابكها .. فهم فيها تـائهون حـائرون ، جـاهلون مفتونون. في خير دار وشر جيران. نومهم سـهود ، وكحلهم دمـــــوع. بـــــأرض عالمها ملجم ، وجاهلها مكرم». [1]

وقـال : «**ان الله بعث محمـدا ــ صـلّى الله عليه وآله ــ نـذيرا للعـالمين ، وأمينا على التنزيل ، وأنتم معشر العرب على شر دين ، وفي شر دار ، منيخون بين حجـارة خشن ، وحيّـات صـم. تشـربون الكـدر ، وتـأكلون الجشب ، وتسـفكون دمـاءكم ، وتقطعـون أرحــامكم. الأصـــنام فيكم منصــوبة ، والاثــام بكم معصوبة**» [2].

وقـــال : «**أرســله على حين فــترة من الرسل ، وطـــــول هجعة من الأمم ، واعـــــتزام من الفتن ، وانتشــار من الأمــور ، وتلظ من الحــروب. والــدنيا كاسـفة النـور ، ظـاهرة الغـرور. على حين اصـفرار من ورقها ، وإيـاس من ثمرها ، واغـوار من مائهـا. قد درست منــار الهــدى ، وظهــرت أعلام الــردى ، فهي متجهمة لأهلهـــــا. عابسة في وجه طالبهـــــا. ثمرها الفتنة ، وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف ، ودثارها السيف**» [3].

وقـــال (ع) عن بعثة النـــبي (ص) : «**بعثه والنـــاس ضلّال في حيرة ، وخابطون في فتنة. قد استهوتهم الأهواء ، واستزلتهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء. حيـــــارى في زلـــــزال من الأمر ، وبلاء من الجهل. فبالغ ـ صلّى الله عليه وآله ـ في النصـيحة ، ومضى على الطريقة ، ودعا الى الحكمة والموعظة الحسنة**» [4].

لم يشك محمد ـ صلّى الله عليه وآله ــ ان هـذا وحي يوحى إليه ، لان الله

---

(1) نهج البلاغة خ 2 ص 46.
(2) المصدر خ 26 ص 68.
(3) المصدر خ 89 ص 121.
(4) المصدر خ 95 ص 140.

لا يختار من رسله من يشك في وحيه ، لم يشك إبراهيم ـ عليه السلام ــ أن رؤياه حق فبادر ليقتل ابنه ، ولم يشك موسى ـ عليه السلام ــ أن الذي يكلمه عند الشجرة هو الله ، فأخذ يناديه بكل جوارحه ، ولم تشك مريم أن الله قد رزقها غلاما زكيا ، كما لم يشك عيسى بن مريم ــــ عليهما السلام ــــ أنه عبد الله ورسول الله الى بني إسرائيل ، فهل من المعقول أن يشك خاتم النبيين في ذلك وهو أشرفهم وأعظمهم؟!

نور الشمس دليلها ، ونور العلم دليله ، واطمئنان اليقين هو ذاته شاهد صدق عليه ، والوحي أشد وضوحا من الشمس ، وأبهى ضياء من العلم ، وأكبر سكينة واطمئنان من اليقين.

أو ليس الوحي من الله والله شاهد عليه ، فكيف يرتاب رسول الله فيه ، أو ليس الله بقادر على أن يري رسوله ما يجعله على يقين من أمره ، أو يبعث الى الناس من لا يزال يشك في الوحي حاشا لله!!

وأني لا يمكنني أن اصدق بتلك الروايات التي تنقل حول الرسول ، وأنه قال لخديجة بعد ان نزل عليه الوحي : ما لي يا خديجة! وأخبرها الخبر ، وقال : خشيت على نفسي ، فقالت له : كلا .. أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر.

بلى. لا أستطيع أن أفهم هذا النوع من النصوص التي تخالف ظاهر القرآن ، وتكون ذريعة للمستشرقين للنيل من رسول الإسلام ، وأعتقد أن الرسول كان ينتظر الوحي بفارغ الصبر ، فلما نزل عليه جبرئيل عرّفه الله بصدقه ، فلما نودي :

(**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**)

قرأ : باسم الله الرحمن الرحيم ، وكانت تلك بداية الرسالة بالرغم من أن فاتحة

الكتـاب هي سـورة الحمد ، إلّا أنّها كـانت فاتحة الكتـاب حسب ما قدر الله له ان يكون في صـورته النهائية ، بينما كـانت الآيـات الخمس الأوائل في سـورة العلق فاتحة التنزيـل. ومن المعـروف أن هنـاك فرقا بين ما أنـزل في ليلة القدر حين أنزل الكتاب كله وبين ما نزل منجّما خلال ثلاث وعشـرين عاما من دعـوة الرسـول صـلّى الله عليه وآله.

من هنا جاء في الحديث : عن الامـام الصـادق ـ عليه السـلام ـ : «أول ما نـزل على رسـول الله (**بِسْـمِ اللـهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**) وآخره (**إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**)» [1].

والسـؤال : ما هي دلالات هـذه الكلمة الاولى من الوحي؟

لعل الـوحي كـان يفتتح على البشـرية عهد القـراءة باعتبارها ظاهرة ملازمة للإنسـان بعد عهد النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ وفعلا وبـالرغم من وجـود ظـاهرة الكتابة منذ مئات السنين قبل الإسـلام إلا أنّها انتشـرت بالإسـلام بصـورة مطـردة حـتى أصـبحت اليـوم سـمة الإنسـان الظاهرة.

والقـراءة أشد وضـوحا من الاسـتماع ، لانّها تفـرض التفاعل بين الإنسـان والنص الـذي يتلى عليه أكـثر من مجـرد الاسـتماع إليه ، وربما سـمي لـذلك كتـاب ربنا بالقرآن.

ولكن القـراءة ليست مطلوبة بصـفة عامة إنّما الـتي تكون باسم الله ، لمـاذا؟ لان اسم الله يحـدد الهـدف من القـراءة. لا يكـون من أجل التعـالي على النـاس ، وخدمة الطغـاة وتضـليل السـذّج من النـاس ، بل تكـون من أجل تزكية النفس ، وخدمة الناس وهدايتهم.

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 609.

وحين يكون العلم ـ ووسيلته القراءة ـ باسم الله ترى الملـوك صـافين على أبـواب العلمـاء ، والنـاس ملتفـون حـــولهم ، وهم يقـــودونهم في معـــاركهم ضد المــترفين والمستكبرين.

(2) لقد خلق الله الإنســـان من علقة ، من دم جامد يعلق ، ومن قبل خلقه من مـــاء مهين ، ثم أكرمه حـــتى فضلّه على كثـير مما خلق تفضـيلا. أيّة نقلة عظيمة كـانت بين حالته كعلقة ودم ، وبينه كإنســان يمشي ســـويّا على قدميـه؟ إن من يعـرف قليلا عن خلقة الإنسـان وما أودع الله في جســـده وروحه من آيـــات عظمته لا بد ان ينبهر بتلك النقلة العظيمة أليس كـــــــذلك؟ ولكن نقلة عظيمة أخرى تنتظـره الآن ، هـذه المـرّة لا بد أن تتم هـذه النقلة بعزيمة من عنــده ورحمة من ربــه. هي النقلة الحضــارية بين إنسان أمّي وآخر يقرأ باسم ربه ، ولعله لـذلك جـاءت الاية تذكرنا بأصل خلقة الإنسان.

(**خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ**)

ومن شك في قدرته على أن يسمو إلى درجات عالية فلينظر إلى نعمة الله كيف خلقه من علقة ، إنه قادر على أن يبعثه خلقا آخر بالعلم والهدى.

(3) تعـــال نفكر في أبعـــاد القـــراءة : كيف علّم الله الإنســـــان الكتابة فأخذ ينقل تجاربه من جيل لاخر ، ومن أمة لأخرى ، وتراكمت التجارب حتى أضـحت اليـوم سـيلا متــدفّقا لا تكــاد قنواتها العلمية على ســعتها تقــدر على اســتيعابها. أرأيت لو لم يعلّم الإنســان الكتابة هل كـان إلّا مثل فصيل من القـردة أو من الانعـام. سـبحان اللـه! انك ترانا لا زلنا نكفر بنعمة الله ، بل كلما زادت نعم الله على البشر ازدادوا كفـرا بها طغيانا ، فمن أجل الّا يصـبح العلم سـببا للطغيـان ، واداة للظلم والفسـاد يـذكرنا الـرب بأنه أنّى تقـــدم البشر في آفـــاق العلم فعليه أن يشـــكر ربه ، ويعترف بأن الله هو

الأكـرم ، لأنه علّم بـالقلم ، ولم يكن الإنسـان شـيئا لو لم يعلّمه ربه.

(**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ**)

كما نقول : كل واحمد الله ، أو اصـبر وربك الكـريم ، أو أعط والله يخلف على المنفقين ، كذلك ـ فيما يبدو لي ـ ذكرتنا الاية بأن الله هو الأكـرم ، فـأيّ صـفة حميـدة هي منه ، فهو الجواد الذي أعطى الإنسـان موهبة القلم ، وهو الأعلى الذي لا يتسامى أحد في مـدارج العلم والكمـال إلّا به.

(4) ومن آيات كرمه وحمده أنه علم الإنسـان بسـبب القلم فلم يكن القلم سـوى وسـيلة ، أرأيت لو قـرّرت أن تعلّم الجـدار هل يتعلّم شـيئا؟ أو ليس لأنه ليس بـذي أهل للتعلم؟ كـذلك كلّما تقـدم الإنسـان في حقـول العلم لا بد أن يزداد لربّه تواضعا ، ولا يصـبح كفراعنة المـال يطغـون في الأرض ويسعون فيها فسادا.

(**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**)

(5) (**عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ**)

وهكـذا جـاءت النصـوص تـترى في ضـرورة التواضع والزهد عند العلماء :

فقد جاء في حديث مأثور عن الامـام الصـادق ـ عليه السلام ـ : «**تواضـعوا لمن تعلمونه العلم ، وتواضـعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولا تكونـوا علمـاء جبّـارين ، فيذهب باطلكم بحقكم**» [1].

عن البرقي مرفوعا إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قال : قال عيسى بن مريم ـ عليه السـلام ـ : يا معشر الحواريّين! لي إليكم حاجة اقضوها لي ، قالوا :

(1) أصول الكافي ج 1 ص 36.

قضيت حاجتك يا روح الله! فقام فغسل أقدامهم ، فقـالوا : كنّا نحن أحقّ بهذا يا روح اللـه! فقـال : إن أحـقّ النـاس بالخدمة العالم ، إنّما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعـدي في الناس كتواضعي لكم ، ثم قال عيسى ـ عليه السلام ـ بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبّر ، وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل [1].

(6) ومشـــكلة الإنســـان أنه لا يســـتوعب نعم الله ، فيطغى بها ويهلك نفسه بــذلك وقد يهلك الآخــرين معــه. أرأيت لو أعطيت قنبلة نوويّة لمن لا يعـرف كيف يتصـرف بها فطغى بها ، أو يكون في ذلك خير أم شرّ مستطير؟

(**كَلَّا**)

إن الإنسـان ليس بطبعه في مسـتوى اسـتيعاب هـذه الحقيقة وهي أن العلم من عند الله وعليه الا يطغى به ، أو أن المال من عنده سبحانه ، وعليه أن يتصرف فيه كما يريده الله.

(**إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى**)

(7) متى يطغى؟ عند ما يحس أنه أصبح غنيّا.

(**أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى**)

أي رأى نفسه قد استغنى ، وفي أدب العـرب لا يرجع ضـميرين متصـلين إلى مصـدر واحد ، فلا يقـال : ضـربه ، نظرتني ، بل يقولـون : ضـرب نفسه ونظـرت نفسي ، إلا أفعـال القلـوب الـتي تتعـدى الى مفعـولين مثل حسب ، فيقولون : (حسبتني) وقـال الله تعـالى : «أرأيتـك» ورأى هنا ليس بمعنى النظر بالعين إذ ان

---

(1) المصدر ص 37.

ذلك من أفعال الجوارح ، بل بمعنى النظر بالقلب.

وســـــياق الاية يهـــــدينا الى أن خطأ علميا ينشأ عن الإنسان فيزعم أنه قد استغنى ، ويتسع ذلك لاحتمالين :

الاول : أن يـــرى نفسه مســـتغنيا بما أوتي من علم فينطبق على علماء السوء كما قال سبحانه : (**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُـونَ بِما أَتَـوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَـدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا**) [1] وينسجم ذلك أيضا مع قوله ســبحانه : (**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى**) إذ ان هـذا من شـأن علمـاء السوء وأنصاف المثقفين ، الذين يتصـدّون لأمـور الـدين ، ويـأمرون وينهـون بما تشـاء أهـواؤهم ، ويشـير إلى هـذا التأويل الحديث المأثور عن الامـام علي ـ عليه السـلام ـ أنه خرج في يوم عيد ، فرأى أناسا يصلون فقال : «يا أيها النـاس! قد شـهدنا نـبي الله في مثل هـذا اليـوم فلم يكن أحد يصلي قبل العيد أو قال النـبي» فقـال رجل : يا أمـير المؤمنين! الا تنهى أن يصـلوا قبل خـروج الامـام؟ فقـال : «**لا أريد أن أنهى عبدا إذا صـلى ، ولكنا نحـدثهم بما شهدنا من النبي أو كما قال**» [2].

وهكذا لا ينبغي لعلمـاء الـدين أن يفرطـوا في الأمر ، والتي فيما لا يتصل بالبدع الظاهرة في الامة ، فقد ينهون أحــدا عن عمل صــالح وهم لا يشـعرون ، كما يفعل بعض المتصـدّين للشـؤون الدينية اليـوم ، يسـتغلون ثقة النـاس فيهم ، وفي نهيهم عن التعــاون مع المؤمــنين أو عن دعم المؤسســـــات الخيرية لأنها ليست تحت ســــيطرتهم ، أو لأنهم يخـــالفون الخـــطّ الـــذي ينتهجه أصـــحاب تلك المؤسسات.

الثـاني : أن يظنّ أنه مسـتغن بما أوتي من فضل الله ، فيزعم أن المال هو كل شيء

---

(1) آل عمران / 188.

(2) نور الثقلين ج 5 ص 610.

في حياته ، فلا يأبه بنواقصه ونقـــاط ضـــعفه من الناحية الدينية أو العلمية أو الخلقية أو الاجتماعية ، إنما يختصر نفسه في زاوية المـال حـتى تفسد علاقاته مع أهله وذوي قرباه ، ويتعامل معهم بروح اسـتكبارية. لمـاذا؟ لأنه يملك بعض المـال. كلا .. إن الـثروة واحـدة من فـرص الحيـاة ، فلما ذا تضيّع سائر أبعـاد حياتك لها ، أرأيت لو كنت غنيّا لا تأكل أو لا تنـام أو لا تمـارس الجنس. بلى. تفعل كل ذلك لأنها فرص حياتك أليس كذلك؟ فلما ذا تسـجن نفسك في زنزانة الطغيـان ، وتفصـلها عن إخوانك وأسـرتك وسـائر البشر ، وتضـيع عن نفسك التمتع بلـذة العلم ، وجمـال الأدب ، وجلال الأخلاق ، وحتى تحرمها من كمالات الدين.

وقد أولت الاية في أبي جهل الـــذي طغى بماله ، وحاول أن ينهى رسـول الله عن صـلاته ، ومعـروف ان أبا جهل واحد من أولئك المترفين ، وان في كل عصر طاغية يسير على خطاه ، فكم هجمت شـرطة الانظمة الفاسـدة على مواقع الصلاة ، وكم ذبحوا أبنائها المؤمنين ، ولطخوا اروقة الجوامع بدماء الصالحين الزاكية!!

(8) ان تملك مالا أو تحـوز علما أو شـرفا حسن ، بل إنك خلقت لتعمر الأرض ، وتسخر ما فيها لمصـلحتك ، ثم تتكامل روحيّا عبرها ، ولكن ان تستغني بما تملك وتفرح ، وتنسى نصـيبك من الاخـرة. إنها نكسة في وجـودك ، لأنه يحرمك عن خيرات أعدّت لك.

والســؤال : كيف يتخلص الإنســان من الاحســاس بالاسـتغناء ، أوليس قلب البشر ضـيّق ، وصـدره حـرج ، أوليس قد خلق هلوعا : يطـــير فرحا إذا امتلك دينـــارا ، ويتميّز غيضا إذا فقده!

إنما يعيد الإنسـان توازنه إذا تصـور الاخـرة وما أعـدّ فيها من نعيم لا يقــاس بما في الــدنيا ، وما أعد فيها من عــذاب عظيم ، فآنئذ تتضــاءل في عينه الــدنيا وما فيها ، ولذلك

أمرنا الإسلام بزيـارة المقـابر عند هجمة المشـاكل ، فمن تصور المـوت وأهواله خفّت عنه لسـعة المشـاكل ، أو لم يقل الشاعر العربي : والجرح يسكنه الذي هو آلم.

من هنا ذكّرنا الـرب هنا بـالرجوع الى الله لأنه العلاج الأمثل لطغيان النفس.

(**إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى**)

(9) وعاد السياق الى بعض ممارسات الطغاة.

(**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى**)

تفكّر في ذلك فإن على الإنسان أن يعـود الى فطرته ليحكّمها في شؤون الناس.

(10) أرأيت كيف يقطع سبيل الخير ، ويصد العبد عن التقرب الى الرب.

(**عَبْداً إِذا صَلَّى**)

إن الصـلاة والتعبد والابتهـال إلى الله أبسط حقـوق الإنسان ، إنه كالتنفس ، كالطعـام ، كالسـكن كيف يتجـرأ البعض سـلبه من البشر ، حقا .. إنها جريمة كـبري. وهي تكشف عن مـــدى الظلال الـــذي يبلغه الإنســـان حينما يستغنى فيطغى.

(11) قد يـبرر الـذي ينهى العبد عن صـلاة ربه فعلته الشنيعة بـأن هـذه الصـلاة باطلة بسـبب أو آخر ، ولكنه لا يفكر فيما لو كـانت صـحيحة ، وكـان العبد على الهـدى ، فأيّ جريمة كبري يكون قد ارتكب.

(**أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى**)

(12) كيف وبـأي مقيـاس تـرى نفسك ــ يا من تنهى عباد الله عن صلاتهم ـ أفضل منهم ، فلعل هذا الذي تنهاه عن صلاته إمامك وقائدك ، لأنه يتأمرك

بالتقوى. وأنت تنهاه عن الصلاة؟!

(**أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى**)

(13) بينما يكـون من ينهـاه مكـذّبا بالرسـالة ، كـافرا بها.

(**أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى**)

ما هي تكـون عاقبتـه؟ أليست النـار يصـليها مـذموما مدحورا.

(14) كيف يجعل نفسه مقياسا للحق والله سـبحانه يـراه ويحيط علما به وبما يتعلم وبما يخطر بباله من نيّة سوء؟ انه قد يخـدم النـاس ويـبرر لهم عمله بأنه انما نهي عن الصـلاة لأنها تضر النـاس ، أو لأنها غـير متكاملة أو ما أشبه ، إلّا أنه لا يستطيع ان يخفي عن ربه نيته السيئة.

(**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى**)

(15) وتتواصل آيات الذكر تقرع هؤلاء الذين يفـترون على الله كـذبا ، ويسـتكبرون في الأرض بغـير الحق بـأن الله سبحانه سيأخذهم بشدة وعنف من نواصيهم.

(**كَلَّا**)

ليس كما يـزعم بـأن الله لا يـراه. انه سـبحانه يـراه ، ويحصي عليه ذنوبه ، فيأخذه ان لم يتب أخذا شديدا.

(**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ**)

قـالوا : إذا قبضت على شـيء وجذبته جـذبا شـديدا يسمّى سفعا ، ويقال : سفع

بناصية فرسه ، وانشدوا :

قوم إذا كثر الصياح رأيتهم   من بين ملجم مهـــــره أو ســـــــــــــــــــافع

ولعل اختيار الناصية لانّها واجهة الإنسان وأعزّ ما فيه.

حينما تدخل قوة الغيب في معادلة صراع الإنسان مع نظـــــــــــــــيره تتغـــــــــــــــير المعادلة كليّا ، أفليس في ذلك ظلم؟ كلا .. لان الله ســــبحانه لا يفعل ذلك عبثا ، إنما بعد إنذار من عنده وتحدّ من قبل الفرد.

(**نـاصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ**)

كـذبت بـالحق ، وافـترت على الله ، وأخطـأت بالعمد في اختيـار طريقه ، وتنسـجم هـذه الأوصـاف مع علمـاء السوء الذين يصدون عن سبيل الله باسم الدين.

(17) إنهم يزعمون أن الأنداد ينفعونهم شيئا في ذلك اليـوم الـرهيب كما في الـدنيا. ويتهربـون ـ بهـذا الـزعم الساذج ـ من شدة وقع الإنـذار. كلا .. دعهم يجمعـون كـلّ من يحضر نـــاديهم ، ولينظـــروا كيف يـــدعو الله زبانية العذاب!

(**فَلْيَدْعُ نادِيَهُ**)

يبــدو لي أن اســتخدام كلمة النــادي الــتي هي اسم لمحل الاجتماع ـ مكان أهل النادي ـ للإشـارة الى كل أهل النادي ، كما قال سـبحانه : (**وَسْـئَلِ الْقَرْيَـةَ**) أي كل من في القرية.

(18) (**سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ**)

قالوا : العـرب تسـمى الشـرطة بالزبانية ، المـأخوذة من كلمة زبن ، بمعنى الدفع ،

وانشدوا :

مطـــاعيم في القصـــوى مطـــاعين في الـــوغى زبانية غلب عظـام حلومها

وفي نزول الاية ورد عن ابن عباس قال : لما أتى أبو جهل رسـول الله انتهـره رسـول الله ، فقـال ابو جهل : أتنتهرني يا محمد! فوالله لقد علمت ما بها أحد أكـثر ناديا مني ، فانزل الله سبحانه : فليدع ناديه [1].

وقد روي عن ابن عباس أيضا أنها نزلت في أبي جهل حينما صـفع ابن مسـعود عند ما تلا على قـريش سـورة الرحمن ، فعاد ابن مسعود الى النبي باكيا ، فنزل جبرئيل يبشر الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ بـالفتح ، وكـان من أمر ابن مسعود أنه مر في يوم بـدر على أبي جهل ينـازع المـوت فجلس على صـدره ليحز رأسه ، فقـال له : لقد جلست مجلسا عاليا ، فنهره ابن مسـعود قـائلا : الإسـلام يعلو ولا يعلى عليه ، فلما قطع رأسه أخذ يجـــــره على الأرض من ناصـــيته ، وهكـــذا تحققت بشـــارة جبرئيل ، وتؤوّلت الاية في الدنيا قبل الاخرة.

(19) وفي ختـام السـورة ينهى القـرآن من طاعة أولئك الطغاة الذين استغنوا بما لديهم من مـال أو معرفة ، لان طـاعتهم عصـيان لله ، وقد يكـون شـركا ظـاهرا أو خفيا ، وهو ـ بذلك ـ يحـرم الإنسـان من التقـرب الى الله سبحانه.

(**كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**)

وحين يكفر الإنسـان بطغـاة المـال وأدعيـاء العلم بـالرغم مما لهم من إغـراء وتضـليل وإرهـاب ، يسـتعيد استقلاله الذي هو جوهر إنسانيته ، ويستعدّ نفسيا للسجود ، ومن خلال السجود للتقرب الى الله.

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 610.

والاية تهدينا : إلى أن السجود معــراج البشر إلى الله ، فاذا سجدت اقتربت الى الله ، بلى. أليس ذات الإنســان فقر وعجز وذلّة ، أو ليس يتحسس البشر هــــذه الحقيقة عند السجود ، عند ما يضع ناصيته فوق التراب تـذللا؟ وإذا عرف الإنسان حقيقة نفسه رفع حجاب الكبر الذي يفصله عن معرفة ربه ، واستشعر بفيض نـوره يغمر فـؤاده ، من هنا جاء في الأثر المروي عن النبي ـ صــلّى الله عليه وآله ـ «**أقرب ما يكون العبد من ربه إذا كان ساجدا**» [1].

وروي عن الامام الرضا ــ عليه السـلام ــ : أقـرب ما يكـون العبد من الله وهو سـاجد ، وذلك قوله : عز وجل : (**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**) [2].

وقد أوجب فقهاء الإسلام السجدة عند تلاوة هذه الاية ، واعتـبروا سـجدة سـورة العلق من العـزائم الأربع الـتي يفـرض فيها السـجود ، والثلاثة الاخــرى : الم السـجدة و «**فصلت**» و «**النجم**».

وهكذا روي عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام انه قال : عـزائم السـجود أربع : الم وحم تنزيل من الـرحمن الرحيم والنجم واقرأ باسم ربك.

اما ذكر السـجدة فقد روي ان الامــام الصــادق عليه السلام يقول في سجدة العـزائم : «لا إله إلا الله حقّا حقّا ، لا إله الا الله ايمانا وتصــديقا ، لا إله إلّا الله عبودية ورقّا ، سجدت لك يا ربّ! تعبّدا ورقّا ، لا مستنكفا ولا مسـتكبرا بل أنا عبد ذليل خائف مسـتجير ، ثم يرفع رأسه ويكـبر» [3].

---

(1) المصدر ص 612.

(2) المصدر ص 611.

(3) المصدر.

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

1 ـ في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن سيف بن عميرة عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ : «**من قرأ انا أنزلناه في ليلة القدر فجهر بها صوته كان كالشاهر سيفه في سبيل الله عز وجل ، ومن قرأها سرّا كان كالمتشحط بدمه في سبيل الله ، ومن قرأها عشر مرات محى الله عنه ألف ذنب من ذنوبه**»

2 – وباسناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**من قرأ انا أنزلناه في ليلة القدر في فريضة من فرائض الله نادى مناد : يا عبد الله! غفر الله لك ما مضى فاستأنف العمل**»

3 ـ في مهج الدعوات لابن طاوس رحمه الله انه قيل للصادق ـ عليه السلام ـ : بما احترست من المنصـور عند دخولك عليـه؟ فقـال : «**بالله وبقـراءة إنا أنزلنـاه ثم قلت : يا الله يا الله سبعا ، إنّي أتشـفع إليك بمحمد وآله ـ صلّى الله عليه وآله ـ من أن تقلبه لي ، فمن ابتلى بذلك فليصنع مثل صـنعي ، ولـولا أننا نقرؤها ونأمر بقراءتها شـيعتنا لتخطّفهم النـاس ولكن هي والله لهم كهف**».

تفسير نور الثقلين ج 5 ص 612

الإطار العام

لانّ الحقيقة واحدة تنبسط فتصبح مفصّلات ، وتــتركّز فتكون هدى وبيّنـات ، فـإنّ القـرآن قد يبسـطها عـبر آياته كما في سورة البقرة ، وقد يجملها في سورة قصيرة كما في سورة القدر التي لو تدبرنا فيها بعمق لقرأنا فيها آيات الكتاب جميعا.

لقد أنـــزل الله كتابه في ليلة القــــدر الـــتي هي ليلة عظيمة لا يكــاد يحيط العقل بأبعادها ، لانّها خــير من ألف شهر. لمـاذا؟ لانّها ميعـاد الإنسـان الصـالح مع ملائكة الله وأعظم منهم مع الـروح .. وهم حين يهبطـون يـنزلون بما يقدّر الله من كلّ أمر.

في هـذه الليلة الـتي تتواصل ملائكة الله والـروح مع عبـاد الله الصـالحين في الأرض تتجلّى رحمة الله وبركاته ومغفرته الـتي تتمثّل في كملة (السـلام) وتسـتمر الليلة حتى مطلع الفجر.

وهكـــذا بيّنت هــذه الســـورة كيف يتّم الاتصـــال بين الإنســان وبين ملائكة الله والــروح .. وهــذه الصــلة الــتي تتجلّى في القرآن كما في الأقـدار الحكيمة والبركـات هي من أعظم الحقائق القرآنية.

سورة القدر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ
الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْـرٌ مِنْ أَلْـفِ شَـهْرٍ (3) تَنَـزَّلُ
الْمَلائِكَـةُ وَالـرُّوحُ فِيها بِـإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُـلِّ أَمْـرٍ (4)
سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5))

وما أدراك ما ليلة القدر

بينات من الآيات :

(1) عند ما انهمر فيض الـوحي على قلب الرسـول ـ صلّى الله عليه وآله ـ في ليلة القـدر في شـهر رمضـان ، وتنزلت ملائكة الرحمة والروح بالقرآن ، رسـالة السـلام ، وبشـير الرحمة ، عندئذ خلّد الله هـذه المناسـبة المباركة التي عظمت في السـموات والأرض ، وجعلها ليلة مباركة خيرا من ألف شهر.

انها حقا عيد الرحمة ، فمن تعـــــرض لها فقد حظي بأجر عظيم!! فقال الله سبحانه

(**إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**)

وكـذلك قـال ربنا سـبحانه : (**إِنَّا أَنْزَلْنـاهُ فِي لَيْلَـةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيها يُفْرَقُ كُـلُّ أَمْـرٍ حَكِيمٍ**) [1].

(1) الدخان / 3 ـ 4

كـذلك نـزل القـرآن كله على قلب الرسـول في تلك الليلة ، ثم نزل بصورة تدريجيّة طيلة ثلاث وعشـرين عاما ، لتأخذ موقعها من النفـوس ، وليكـون كتـاب تغيـير يبـني الرسول به أمة وحضارة ، ومستقبلا مشرقا للانسانية.

وكذلك قال ربنا سبحانه : (**شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**) [1].

ومعروف أن القرآن تنزل بصورته المعهـودة في أيـام السنة جميعا ، فله إذا نزلة أخرى جملة واحدة.

والسؤال : لماذا سميت هذه الليلة بليلة القدر؟

يبدو أن أهم ما في هذه الليلة المباركة تقدير شـؤون الخلائق ، وقد اسـتنبط اللفظ منه ، فهي ليلة الأقـدار المقدرة ، كما قال ربنا : «**فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**».

وقـال بعضـهم : بل لأنها ليلة جليلة القـدر ، قد أنـزل الله فيها كتابا قديرا ، ولان الـذي يحييها يكـون عند الله ذا قدر عظيم.

(2) من ذا الـذي يسـتطيع أن يـدرك أبعـاد تلك الليلة الـتي باركها الله لخلقه بـالوحي ، وجعلها زمانا لتقـدير شـؤون العـالمين ، من ذا الـذي يـدرك عظمة الـوحي ، وجلال الملائكة ، ومعاني السـلام الالهي. إنها ليست فـوق الإدراك بصـورة مطلقة ، ولكنها فـوق اسـتيعاب الإنسـان لجميع أبعادها ، وعلى الإنسـان ألّا يتصـور أنه قد بلغ علم ليلة القدر بمجرد معرفة بعض أبعادها ، بل يسعى ويسعى حـتى يبلغ المزيد من معانيها ، وكلما تقـدم في معرفتها كلما استطاع الحصول على مغانم أكبر منها.

(**وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ**)

---

(1) البقرة / 185

سـبق القـول من البعض : أن هـذه الجملة وردت في القرآن لبيان أهمية الحقيقة التي تذكر بعدها.

بينما تـــترك الحقيقة مجملة إذا ذكـــرت عبـــارة وما يـدريك .. هكـذا قـالوا ، واعتقد أنّ كلتا الجملـتين تفيـدان تعظيم الحقيقة التي تذكر بعدها.

(3) كيف نعـرف أهمية الزمـان؟ أليس عند ما يختصر المسـافة بيننا وبين أهـدافنا ، فـاذا حصـلت في يـوم على مليــون دينــار ، وكنت تحصل عليه خلال عــام أليس هــذا اليـوم خـير لك من عـام كامـل؟ كـذلك ليلة القـدر تهب للإنسان الذي يعرف قدرها ما يسـاوي عمـرا مديـدا : ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر ، وبتعبير أبلغ : ألف شهر.

(**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**)

أجل الواحد منا مسـمى عند الله وقد يكـون قصـيرا ، قد لا يبلغ الواحد منا معشـــــــار أهدافه فيه ، فهل يمكن تحدّي هذا الواقع؟ بلى. ولكن ليس بالصـورة الـتي يتخيّلها الكثـير ، حيث يتمنـون تطويل عمـرهم ، وقليل هم الـذين يحققون هـذه الامنية ، لان عوامل الوفـاة عديـدة وأكثرها خـارج عن إرادة الإنسـان ، فما هو إذا السـبيل الى تمديد العمــر؟ إنّما بتعميقه ، ومــدى الانتفــاع بكل لحظة لحظة منه ، تصـور لو كنت تملك قطعة صـغيرة من الأرض ، ولا تستطيع توسـيعها فكيف تصـنع؟ إنك سـوف تبـني طوابق فيها بعضها تحت الأرض وبعضـها يضـرب في الفضـاء وقد تناطح السحب ، كذلك عاش بعض الناس سنين معدودات في الأرض ولكنهم صنعوا عبرها ما يعادل قرونا متطاولة ، مثلا عمر رسولنا الكريم ـ صلّى الله عليه وآله ـ لا يتجــاوز الثلاث والستين ، وأيام دعوته ثلاث وعشــرون عاما منها ، ولكنها أبعد أثرا من عمر نوح المديد ، بل من سنيّ الأنبياء جميعا وهكذا خص الله أمّته بموهبة ليلة القدر ،

الــتي جعلها خــيرا من الف شــهر ، ليقــدروا على تمديد أعمـارهم في البعد الثـالث (أي بعد العمـق) ولعل الخـبر المـأثور عن رسـول الله (ص) يشـير إلى ذلك ، فقد روي أن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسـلم ـــ أري أعمـار الأمم قبله فكأنه تقاصر أعمـــار أمته ألا يبلغـــوا من العمر مثل ما بلغ غـيرهم في طـول العمر ، فأعطـاه الله تعـالى ليلة القدر ، وجعلها خيرا من ألف شهر. (1)

وفي حديث آخر : أنه ذكر لرسـول الله رجل من بـني إسرائيل أنه حمل السلاح على عاتقه في ســبيل الله ألف شــهر ، فعجب من ذلك رسـول الله عجبا شـديدا ، وتمنّى أن يكــون ذلك في أمته ، فقــال : «يا رب! جعلت أمــتي أقصر النـاس أعمـارا ، وأقلها أعمـالا ، فأعطـاه الله ليلة القدر ، وقال : (**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْـرٌ مِنْ أَلْـفِ شَـهْرٍ**) الـذي حمل الاســرائيلي السـلاح في سـبيل الله لك ولأمتك من بعدك الى يوم القيامة في كل رمضان» (2)

إنك قد تحـيي ليلة القـدر بالطّاعة فيكتب الله اسـمك في السعداء ، ويحرم جسـدك على نـار جهنم أبـدا ، وذلك بما يوفقك له من إصـلاح الـذات إصـلاحا شـاملا ، من هنا جاء في الدعاة المأثور في ليـالي شـهر رمضـان مجموعة من البصـــائر الــتي تتحـــول بتكـــرار تلاوتها إلى أهـــداف وتطلعات يسعى نحوها المؤمن بجد ومثـابرة ، ويجتهد في طلبها من ربه.

«اللهم أعطني السـعة في الـرزق ، والأمن في الــوطن ، وقــرّة العين في الأهل والمــال والولد ، والمقـــام في نعمك عنـــدي والصـــحة في الجسم ، والقــــوة في البــــدن ، والســــلامة في الــــدين ، واستعملني بطاعتك وطاعة رسـولك محمد ـــ صـلّى الله عليه وآله ـ أبدا مـا اسـتعمرتني ، واجعلـني من أوفر عبادك عندك نصيبا

(1) القرطبي / ج 20 ـ ص 133
(2) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 615

في كـلّ خـير أنزلته وتنزله في شـهر رمضـان في ليلة القدر» [1]

وهكـذا ينبغي أن يكـون هـدفك في ليلة القـدر تحقيق تحوّل جذري في نفسك ، تحاسب نفسك بل تحاكمها أمام قاضي العقل ، وتسـجل ثغراتها السـابقة ، وانحرافاتها الراهنة ، وتعقد العـزم على تجـاوز كل ذلك بالنـدم من ارتكـاب الاخطـاء ، والعـزم على تركها والالتجـاء الى الله ليغفر لك ما مضى ويوفقك فيما يأتي.

وقد جـاء في تأويل هـذه الاية : انها نـزلت في دولة الرسول التي كانت خير من دول الظالمين من بني أمية ، حيث نقل الترمـذي عن الحسن بن علي عليهما السـلام : «أن رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ أري بـني أمية على منبره فساءه ذلك ، فـنزلت (**إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَـوْثَرَ**) يعني نهرا في الجنة ، ونزلت (**إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَـةُ الْقَـدْرِ خَيْـرٌ مِنْ أَلْـفِ شَهْرٍ**) يملكها بعدك بنو امية» [2] وكانت حكومة بـني أمية الف شهر لا تزيد ولا تنقص.

وهكـذا فضـيلة حكومة العـدل وأثرها العظيم في مستقبل البشرية أكثر من ألف شهر من حكومة الجور.

(4) لماذا أمست ليلة القدر خيرا من ألف شهر؟ لأنها ملتقى أهل السـماء بأهل الأرض ، حيث يجـددون ذكـرى الوحي ، ويستعرضون ما قدر الله للناس في كل أمر.

(**تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ**)

والكلمة أصـلها تتـنزل ، وصـيغتها مضـارع تـدل على الاستمرار ، فنستوحي منها :

---

(1) كلمات من دعاء أبي حمزة الثمالي المأثور لاسحار شهر رمضـان / انظر مفاتيح الجنان ـ ص 196

(2) القرطبي / ج 20 ـ ص 133

أن ليلة القــدر لم تكن ليلة واحــدة في الــدهر ، وإنما هي في كل عام مرة واحدة ، ولذلك أمرنا النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ـ بإحيائها.

فقد جـاء في الأثر عن رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ أنه لما حضر شـهر رمضـان ــ وذلك في ثلاث بقين من شعبان ـ قال لبلال : «ناد في الناس» فجمع النــاس ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثـنى عليه ، ثم قـال : «**أيها الناس! إن هذا الشهر قد خصكم الله به ، وحضـركم ، وهو سيد الشهور ، ليلة فيه خير من ألف شهر**» [1]

وروي عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قــال لابن العباس : «**ان ليلة القدر في كلّ سنة وانه يـنزل في تلك الليلة أمر الســـنة ، ولـــذلك الأمر ولاه بعد رســول الله**» فقــال ابن عبــاس من هم؟ قــال (عليه السلام) «**أنا وأحد عشر من صلبي**» [2]

(**وَالرُّوحُ**)

ما هو الروح؟ هل هو جبرائيل ـ عليه السلام ـــ أم هم أشراف الملائكة؟ أم هم صــنف أعلى منهم وهم من خلق الله ، أم هو ملك عظيم يؤيد به أنبياءه؟

استفاد بعضهم من الاية التالية : أن الروح هو جبرئيل ـ عليه السلام ـ حيث قال (**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ**) [3]

واســـتظهر البعض من الاية التالية : أن الـــروح هي الوحي ، فان الملائكة يهبطون

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 618
(2) المصدر / ص 619
(3) الشعراء / 193

في ليلة القدر به قال الله تعالى : (**وَكَـذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا**) [1]

وجاء في حديث شريف ما يدل على أن الـروح أعظم من الملائكة ، فقد روى عن الامام الصادق ـ عليه السـلام ـ أنه سـئل هل الـروح جبرئيل (ع)؟ فقـال : جبرئيل من الملائكة ، والـــروح أعظم من الملائكة ، أليس أن الله عز وجل يقول : (**تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ**) [2]

وقد قال ربنا سبحانه : (**وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**) مما يدل على أن الروح هو ما يؤيد الله به أنبياءه.

ويبدو أن الروح خلق نوراني عظيم الشـأن عند الله ، وأن الله ليس يؤيد أنبيـاءه ـ عليهم السـلام ـ به فقط ، وإنما حـتى الملائكة ومنهم جبرائيل يؤيـدهم به ، وبهـذا نجمع بين مختلف الاحتمالات والادلة ، والله العالم.

(**فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**)

عظيمة تلك الليلة التي تتنزل الملائكة فيها ، وعظيمة لان الأعظم منهم وهو الـروح يتـنزل أيضا ، ولكن لا ينبغي أن نتوجه الى عظمة الـــروح بعيـدا عن عظمة الخـالق سـبحانه ، فـإنهم عبـاد مكرمـون ، مخلوقـون مربوبـون ، وليسوا أبدا بأنصاف آلهة ، وليس لهم من الأمر أي شـيء ولذلك فإن تنزّلهم ليس باختيارهم وإنما بإذن ربهم.

(**مِنْ كُلِّ أَمْرٍ**)

قالوا : معناه لأجل كلّ أمر ، أو بكل أمر ، فالملائكة ـ حسب هذا التفسير ـ يـأتون لتقـدير كل أمر ، ولكن أليس الله قد قدر لكل أمر منذ خلق اللوح وأجرى عليه

---

(1) الشورى / 52

(2) تفسير نمونه / ج 26 ـ ص 184 نقلا عن تفسير البرهـان / ج 4 ـ ص 418

القلم؟ بلى. إذا فما الـــــذي يتـــنزل به الملائكة في ليلة القـدر؟ يبـدو أن التقـديرات الحكيمة قد تمت في شـؤون الخلق ، ولكن بقيت أمـــور لم تحسم وهي تقـــدر في كل ليلة قـدر لايـام عـام واحد ، فيكـون التقـدير خاصّـا ببعض جـــوانب الأمـــور ، وليس كل جوانبها ، بلى. تشـــمل التقديرات جميع الأمور ، ولكن من كـلّ أمر جانبا ، وهكـذا يكــون حــرف «من» للتبعيض وهو معنــاه الاصــلي ، وهو أيضا ما يستفاد من النصوص المأثورة في هذا الحقل :

سأل سليمان المروزي الامام الرضا ـ عليه السـلام ـ وقال : ألا تخبرني عن (**إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ**) في أي شيء نزلت ، قال : «**يا سليمان! ليلة القـدر يقـدر الله عز وجل فيها ما يكـون من السـنة الى السـنة ، من حياة أو موت ، أو خير أو شر أو رزق ، فما قدره الله في تلك الليلة فهو من المحتوم**» [1]

وهكـذا تختلف بصـائر الـوحي عن تصـورات البشر ، فبينما يزعم الإنسـان أنه مجبـور لا اثر لمشـيئته في حياته يعطيه الوحي قيمة سامية ، حيث يجعله قـادرا على تغيـير مجمل حياته : من ســعادة وشــقاء ، وخـــير وشر ، ونفع وضر ، كل ذلك بإذن الله ، وعـبر الـدعاء الى الله في ليلة القدر.

إن البشرية في ضلال بعيد عن حقيقة المشيئة ، فهم بين من ظنّ أنه صـاحب القـرار ، وقد فـوض الله الأمـور إليه تفويضا مطلقا ، فلا ثـواب ولا عقـاب ولا مسـئولية ولا أخلاق ، وبين من زعم أنه مضطرّ تسوقه الأقـدار بلا حرية منه ولا اختيار.

ولكن الحق هو أمر بين أمـــرين : فلا جـــبر لاننا نعلم يقينا أن قرارنا يـــؤثر في حياتنا ، أو لست تأكل وتشـــرب وتروح وتأتي حسب مشيئتك وقـرارك؟ وكـذلك لا تفـويض لان هناك أشياء كثيرة لا صنع لنا فيها : كيف ولـدت ، واين تموت ،

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 630

ومـاذا تفعل غـدا ، وكم حـال القضـاء بينك وبين ما كنت تتمنـاه ، وكم حجـزك القـدر عن خططك الـتي عقـدت العزمات على تطبيقها؟

بلى. إن الله منح الإنسـان قـدرا من المشـيئة لكي يكون مصـيره بيـده ، إما إلى الجنة وإما إلى النـار ، ولكن ذلك لا يعـني أنه سـيدخل الجنة بقوته الذاتية أو النـار بأقدامه ، وإنما الله سـبحانه هو الـذي يدخله الجنة بأفعاله الصالحة ، أو يدخله النار بأفعاله الطالحة.

إذا الإنسان يختار ، ولكن الله سبحانه هو الـذي يحقق ما اختـاره من سـعادة وشـقاء ، وأن (**اللـهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**) ، وهاهنا تـتركز أهمية الدعاء وبالذات في ليلة القدر التي هي ربيع الـدعاء ، وقد تتغـير حيـاة الإنسـان في تلك الليلة تماما ، فكم يكـون الإنسان محروما وشقيا إن مرت عليه هـذه الليلة دون أن يستفيد منها شيئا.

ويتساءل البعض : أليس هذا يعني الجـبر بذاتـه؟ فـإذا كـانت ليلة تحـدد مصـير الإنسـان فلما ذا العـزم والسـعي والاجتهاد في سائر أيام السنة؟!

كلا .. ليس هـذا من الجـبر في شـيء ، ونعـرف ذلك جيّدا إذا وعينا البصائر التالية :

البصـيرة الاولى : يبـدو أن التقـدير في هـذه الليلة لا يطال كل جوانب الحياة ، فهناك ثلاثة أنـواع من القضـايا : نوع قدر في ليلة واحدة في تـاريخ الكـون ، فقد روي عن الامام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قال : «قـال رسـول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : أتـدري ما معـنى ليلة القـدر؟ فقلت : لا يا رسـول اللـه! فقـال : إن الله تبـارك وتعالى قدّر فيها ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فكان فيما

قدّر ـ عزّ وجل ـ ولايتك وولاية الائمة من ولـدك الى يـوم القيامة» [1]

والنوع الثاني : تقديرات تتم في السـنة الـتي يعيشـها الإنسان ، بينما النوع الثالث : تبقى مفتوحة تخضع لمشيئة الإنسان وهي الفتنة ، مثلا : إن الله يقدر للإنسان في ليلة القـدر الـثروة ، أما كيف يتعامل الإنسـان مع الـثروة هل ينفق منها أم يبخل بها ويطغى ، فـان ذلك يخضع لمشـيئة الإنسان وبه يتم الابتلاء ، كذلك يقدر الله للإنسان المـرض أما صبر المريض أو جزعه فانه يتصل بإرادته.

ومع ذلك فـإن لله البـداء ، إذ لا شـيء يحتّم على ربنا سـبحانه ، وقد قـال سـبحانه : (**يَمْحُـوا اللـهُ ما يَشـاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**) [2] وقد جـاء في حـديث مـأثور عن الامـام الصـادق عليه السـلام قـال : «إذا كـانت ليلة القدر نزلت الملائكة والـروح والكتبة الى السـماء الـدنيا ، فيكتبون ما يكون من قضاء الله في تلك السنة ، فإذا أراد الله أن يقـدّم شـيئا أو يـؤخره ، أو ينقص أمر الملك أن يمحو ما شاء ، ثم أثبت الـذي أراد» قلت : وكل شـيء هو عنـده ومثبت في كتـاب؟ قـال : «نعم» قلت فـأيّ شـيء يكون بعده؟ قال : «سـبحان اللـه! ثم يحـدث الله أيضا ما يشاء تبارك وتعالى» [3].

هكذا تبقى كلمة الله هي العليا ، ومشيئته هي النافذة ، ولكن الاتكال على البداء ، وتفويت فرصة ليلة القدر نوع من السذاجة ، بل من السفه والخسران.

البصـيرة الثانية : أن الله يقـدر لعبـاده تبعا لحكمته البالغة ولقضائه العدل ، فلا يقضي لمؤمن صـالح متبتل ما يقدر لكافر طالح ، وما ربك بظلام للعبيد. وهكذا

---

(1) المصدر / ص 629
(2) الرعد / 39
(3) تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 631

يــؤثّر الإنســان في مصــير نفسه بما فعله خلال العــام الماضي ، وما يفعله عند التقـــدير في ليلة القـــدر ، وما يعلمه الله من سوء اختياره خلال السنة ، مثلا : يقـدر الله لطـاغوت يعلم أن لا يتـوب بالعـذاب في هـذه السـنة لأنه سـوف يظلم النـاس خلالها ، ولو افترضـنا أنه وفّق للتوبة ولم يظلم الناس خلالها ، فان لله البداء في أمره ، ويمحو عنه السقوط ويمد في ملكه ، وقد قال ربنا سبحانه : (**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**) [1]

البصيرة الثالثة : أن الناس يزعمـون أن هنـاك احـداثا تجـري عليهم ، لا صـنع لهم فيها كمـوت عزيز ، والاصـابة بمرض عضال ، والابتلاء بسـلطان جـائر ، أو بـالتخلف ، أو بالجفـــاف ، ولكن الأمر ليس كـــذلك إذ أن حـــتى هـــذه الظواهر التي تبـدو أنها خـارج إطـار مشـيئة الإنسـان انّما تقع بإذن الله وتقديره وقضائه ، وأن الله لا يقضي بشــيء إلّا حسـبما تقتضـيه حكمته وعدالته ، ومن عدله أن يكـون قضاؤه وتقـديره حسب ما يكسـبه العبـاد ، أو لم يقل ربنا سبحانه : (**ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ بِما كَسَـبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**) [2]

وان في ذلك لكرامة بالغة لمشيئة الإنســان أن يجعل الله تقديره وفق قرار ما ، أليس كذلك.

(5) السـلام كلمة مضـيئة تغمر الفـؤاد نـورا وبهجة ، لأنها تتسع لما تصـبو إليه النفس ، وتتطلع نحـوه الـروح ، ويبتغيه العقل ، فلا يكون الإنسان في سلام عند ما يشـكو من نقص في أعضـــاء بدنه ، أو شـــروط معيشـــته ، أو تطلعات روحه ، فهل للمريض سلام ، أم للمسـكين عافية ، أم للحسود أمن؟ كلّا .. إنّما السلام يتحقق

---

(1) الرعد / 11

(2) الروم / 41

بتــوافر الكثــير الكثــير من نعم الله الــتي لو افتقرنا إلى واحــدة منها فقــدنا الســلام. أو لم تعلم كم مليــون نعمة تــتزاحم على بــدنك حــتى يكــون في عافية ، وكم مليــون نعمة تحيط بمجمل حياتك وتشــكلان معا ســلامتها ، وليلة القدر ليلة السلام ، حيث يقول ربنا سبحانه :

(**سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**)

حينما تنسب هــذه الموهبة الالهية الى الــزمن نعــرف أنها تســتوعبه حــتى لتكــاد تفيض منه ، فالليل الســلام كل لحظاته ســلام لكل الأنــام ، كما اليــوم الســعيد كله هنــاء وفلاح ، بينما اليوم النحس تتفجر النحوسة من أطرافه.

فما ذا يجــري في ليلة القــدر حــتى تصــبح ســلاما الى مطلع الفجر؟

لا ريب أن الله سبحانه يغفر في تلك الليلة لفئــام من المستغفرين ، وينقذهم ـ بذلك ـ من نار جهنم ، وأي سلام أعظم من ســلامة الإنســان من عــواقب ذنوبه في الــدنيا والاخرة.

من هنا يجتهد المؤمنــون في هــذه الليلة لبلــوغ هــذه الامنية وهي العتق من نار جهنم ، ويقولون بعد ان ينشروا المصحف أمامهم : «**اللهم إني أسألك بكتابك المــنزل وما فيه ، وفيه أســمك الأكــبر ، وأســماؤك الحســنى وما يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النار**» (1)

كــذلك يقــدر الله للإنســان العافية فيها ، وإتمــام نعم الله عليه ، وقد سأل أحدهم النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ : أي شيء يطلبه من الله في هــذه الليلة فأجابه ــ حسب الرواية ـ «العافية» (2)

---

(1) مفاتيح الجنان / ص 225

(2) المصدر / ص 226

وقد تـدخل على فـرد هـذه الليلة وهو من الأشـقياء فيخرج منها سعيدا ، أو ليست الليلة سلاما؟ من هنا ينبغي للإنسان أن يدعو فيها بهذه الكلمات الشريفة :

اللهم امـدد لي في عمـري ، وأوسع لي في رزقي ، وأصح لي جسمي ، وبلّغني أملي ، وإن كنت من الأشـقياء فامحني من الأشقياء ، واكتبـني من السـعداء ، فانك قلت في كتابك المنزل على نبيك المرسل ـ صلواتك عليه وآله ـ : «**يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**» [1]

وفي هـذه الليلة يقـدر الله الـرزق لعبـاده ، وهو جـزء من السلام والأمن ، وعلى الإنسان أن يطلب منه سبحانه التوسعة في رزقه.

كما يقـدّر الأمن والعافية والصـحة والذريّة وكلها من شروط السلام.

حقا .. إن المحروم هو الذي يحرم خيرها كما جاء في حـديث مـأثور عن فاطمة الزهـراء ـ عليها السـلام ـ أنها كانت تأمر أهلها بالاستعداد ، لاستقبال ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان المبارك بأن ينـاموا في النهـار لئلا يغلب عليهم النعاس ليلا وتقول : «**محروم من حرم خيرها**» [2]

وقـال البعض : أن معـنى السـلام في هـذه الاية : أن الملائكة يسـلمون فيها على المؤمـنين والمتهجـدين في المساجد ، وأن بعضـهم يسـلم على البعض ، وقيل : لأنهم يسلمون على إمام العصر ـ عليه السـلام ـ وهم يهبطـون عليه.

ليلة القدر متى هي؟

إذا كان القـرآن قد نـزل في شـهر رمضـان وفي ليلة القدر حسب آيتين في القرآن ،

(1) المصدر / ص 235
(2) المصدر / ص 236

فإن ليلة القدر تقع في هذا الشـهر الكـريم ، ولكن مـتى؟ جـــاء في بعض الأحـــاديث : «**التمســـوها في العشر الأواخر**» [1]

وروى عن الامام الباقر ـ عليه السـلام ـ أنه قـال في تفسير (**إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ**) قـال : «**نعم. ليلة القــدر وهي في كل ســنة في شــهر رمضــان في العشر الأواخر ، فلم يـــنزل القـــرآن إلّا في ليلة القدر**» [2]

وجاء في حديث آخر تحديد واحدة من ليلتين : أحــدى وعشرين وثلاث وعشرين ، فقد روى ابو حمـزة الثمـالي ، قال : كنت عند أبي عبد الله الامام الصادق ـ عليه السلام ـ فقال له أبو بصير : جعلت فداك! الليلة التي يـرجى فيها ما يـــرجى؟ فقـــال : «في إحـــدى وعشـــرين أو ثلاث وعشرين» قـال : فـإن لم أقو على كلتيهمـا؟ فقـال : «ما أيسر ليلــتين فيما تطلب؟» قلت فربما رأينا الهلال عنــدنا وجاءنا من يخبرنا بخلاف ذلك من أرض أخرى؟ قال : «ما أيسر أربع ليـال تطلبها فيهـا؟» قلت : جعلت فـداك! ليلة ثلاث وعشرين ليلة الجهـني؟ [3] فقـال : «ان ذلك ليقـال» ثم قـــال : «فاطلبها في ليلة إحـــدى وعشـــرين وثلاث وعشـــرين ، وصـــلّ في كـــلّ واحـــدة منهما مائة ركعة ، وأحيهما ـ إن استطعت ـ إلى النور ، واغتسل فيهما» قـال قلت : فـان لم أقـدر على ذلك وأنا قـائم ، قـال : «فصل وأنت جالس» قال : قلت فان لم أستطع ، قال : «**فعلى فراشك ، ولا عليك أن تكحل أول الليل بشـــيء من النوم ، إن أبواب السماء تفتح في رمضان ، وتصـفد الشـياطين ، وتقبل أعمـال المؤمـنين ، نعم الشـهر رمضـــان كـــان يســـمى على عهد رســـول الله : المرزوق**» [4]

---

(1) حسب رواية عن رســول الله (ص) تفســير نــور الثقلين ج 5 ص 629

(2) نور الثقلين / ج 5 ص 625.

(3) سوف نذكره إنشاء الله.

(4) المصدر / ص 625.

وقد استفاضت أحـــاديث النـــبي وأهل بيته في إحيــاء هاتين الليلتين ، إلا أن حديثا يروي عن رسـول الله يحـددّه في ليلة ثلاث وعشـرين ، حيث يـرجى أن تكـون هي ليلة القـدر حيث قـال عبد الله بن أنيس الانصـاري المعـروف بالجهني لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ــ : أن مـنزلي ناء عن المدينة فمـرني بليلة أدخل فيها فـأمره بليلة ثلاث وعشرين. [1]

ويبدو من بعض الأحاديث : أن ليلة القدر الحقيقة هي ليلة ثلاث وعشـــــــــرين ، بينما ليلة التاسع عشر وواحد وعشـــرين هما وســـيلتان إليها ، من وفّق للعبـــادة فيهما نشط في الثالثة ، وكان أقرب الى رحمة الله فيها.

هكذا روي عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قال لمن ســـأله عن ليلة القـــدر : «**اطلبها في تسع عشر وإحدى وعشرين ، وثلاث وعشرين**» [2]

وجـاء في حـديث آخر : أن لكل ليلة من هـذه الثلاث فضيلة وقدرا ، فقد روي عن الامام الصادق ـ عليه السلام ــ أنه قـال : «**التقـدير في ليلة القـدر تسـعة عشر ، والإبـرام في ليلة إحـدى وعشـرين ، والإمضـاء في ليلة ثلاث وعشرين**» [3]

وجـاء في علامـات ليلة القـدر : «**أن تطيب ريحها ، وان كانت في برد دفئت ، وإن كانت في حـرّ بـردت فطابت**» [4]

وعن النـــبي ــــ صـــلّى الله عليه وآله ــــ : «**أنها ليلة ســـمحة ، لا حـــارة ولا بـــاردة ، تطلع الشـــمس في صبيحتها ليس لها شعاع**» [5]

نســأل الله أن يوفقنا لهـذه الليلة الكريمة ويقــدر لنا السعادة فيها.

---

(1) تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 626.
(2) المصدر / ص 628.
(3) المصدر / 627.
(4) المصدر / 623.
(5) المصدر.

سورة البيّنة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ قال : «**من قـرأ سـورة لم يكن الـذين كـان بريئا من الشـرك ، وأدخل في دين محمد ـ صلّى الله عليه وآله ـ وبعثه الله ـ عز وجل ـ مؤمنا ، وحاسبه حسابا يسيرا**»

وعن أبي الدرداء قال : قال رسـول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ـ : «**لو يعلم النـاس ما في لم يكن الـذين كفروا لعطّلوا الأهل والمال وتعلموها**» فقال رجل

من خزاعة : ما فيها من الأجر يا رسـول اللـه؟ قـال : «**لا يقرأها منـافق أبـدا ، ولا عبد في قلبه شك في الله عز وجل ، والله إن الملائكة المقـــــربين ليقرءونها منذ خلق الله الســــموات والأرض لا يفــــترون من قراءتها ، وما من عبد يقرأها بليل الا بعث الله ملائكة يحفظونه في دينه ودنيــــاه ، ويـــــدعون له بـالمغفرة والرحمة ، فـإن قرأها نهـارا أعطي عليها من الثواب مثل ما أضـاء عليها النهـار ، وأظلم عليه الليل**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 642

الإطار العام

كلا .. لن يقدر الإنسان الخروج من نفق الضلال بغــير هـدى من الله (البتـة) ، ولا يكـره الله النـاس على اتبـاع البيّنة حينما تأتيهم ، فترى بعضـهم يهتـدون بها ، وأكـثرهم يضلون عنها بأهوائهم وهكذا اختلفوا.

كلا .. ليست خلافـــــــاتهم في البيّنة ، لان البينة قد أمرتهم بعبادة الله وحده بعيدا عن أيّ خلاف.

حول هـذه المحـاور الثلاث جـاءت آيـات سـورة البينة الـتي خصت بصـائر كثـيرة فصـلت في الكتـاب الكـريم ، وأوضــحت كــذلك صــفات البينة : انها تتمثل في رســول يحمل من الله كتابا طـــــاهرا من أي زيف أو باطل ، وهو يدعو الى توحيد الله الخالص من أي شائبة مادّية.

وهــذا الخلاف الــذي انتشر بينهم يرجع الى القــرآن ، وهو يحكم بأن شر البرية الذي يكفر برسالات الله ، سواء كان من أهل الكتاب أو من المشركين ، وأن خير

البرية هم المؤمنــون الــذين يجــزيهم الله بجنــات عــدن ، ويرضى عنهم ، ويــرزقهم الرضا عنه ، كل ذلك لخشــيتهم من الله.

سورة البينة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَـــرُوا مِنْ أَهْـــلِ الْكِتـــاب
وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَـةُ (1) رَسُـولٌ
مِنَ اللهِ يَتْلُـوا صُـحُفاً مُطَهَّرَةً (2) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَـةٌ (
3) وَما تَفَـرَّقَ الَّذِينَ أُوتُــوا الْكِتــابَ إِلاَّ مِنْ بَعْــدِ ما
جــاءَتْهُمُ الْبَيِّنَــةُ (4) وَما أُمِــرُوا إِلاَّ لِيَعْبُــدُوا اللــهَ
مُخْلِصِينَ لَـهُ الـدِّينَ حُنَفـاءَ وَيُقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَيُؤْتُـوا
الزَّكـاةَ وَذلِـكَ دِينُ الْقَيِّمَـةِ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ
أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِـدِينَ فِيها
أُولئِكَ هُمْ شَـــرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا
الصَّـالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْـرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَـزاؤُهُمْ عِنْـدَ
رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَـدْنٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ خالِـدِينَ
فِيها أَبَـداً رَضِـيَ اللـهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ ذلِـكَ لِمَنْ
خَشِيَ رَبَّهُ (8))

أولئك هم خير البريّة

بينات من الآيات :

(1) لقد أنعم الله على الإنسان بالعقل ، وفطر نفسه على الايمان ، بيد أنّه ينفلت عن ظلال وغيّ ، ولا يكفيه ما لديه من فطـــرة وعقل ، بل يحتـــاج الى تـــذكرة الـــوحي ودعـوة الرسـول ، وأنى له ذلك وهو يتعـرض لتيـار عـنيف من شهوات نفسه ، ووساوس شـيطانه ، وتضـليل أدعيـاء الدين ، وقمع أولي السلطة والثروة. ألا ترى كيف لا يؤمن إلّا نفر قليل بالرغم من أن الله يـنزل الـوحي ، ويـدعوهم إليه داعي الفلاح ، ويخـوض الرسـول والمؤمنـون صـراعا شاملا في سبيل الدعوة.

(**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَـــــرُوا مِنْ أَهْـــــلِ الْكِتـــــابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**)

ويبـــدو أن الاية هـــذه الـــتي صـــعبت على فهم بعض المفسـرين حـتى اعتبرها أعتد آية ، إنما تـذكرنا وبعبـارات بسيطة وبيّنة بضرورة الرسالة الالهية ، فمن دون رسالة

الإســلام هل كــان من الممكن إزالة تلك الحجب الكثيفة التي تراكمت عبر عصور الظلمـات فـوق بعضـها ، ومنعت إنـارة العقل وهـدى الفطـرة ، وحـرفت تعـاليم الـدين ، ومسخت شخصية الإنسان.

كلا .. لان الفسـاد كـان قد أطبق على البشـرية ، فلم يعد أحد بقـادر على مقاومته بسـهولة ، فبعث الله النـبي برسالة طاهرة من دنس ضلالاتهم وخبث ثقافتهم.

(2) لقد تنازع خطّـان قيـادة الإنسـان عـبر العصـور : خط الـوحي المتمثل في أنبيـاء الله ـــ عليهم السـلام ـــ والمؤمنـــون بهم ، وخط الجاهلية المتمثلة في الطغـــاة والمـترفين ، وثقافة الخط الاول كـانت نابعة من الـوحي ، بينما ثقافة الجاهلية قائمة على أساس الضلالة.

وكلما انحسر الـــوحي أو ضـــعف دعاته استشـــرت الجاهلية ، وكـــانت المشـــكلة العاتية عند ما يستســـلم المؤمنون بالوحي تحت ضـغط الجاهلية ، كما حـدث قبيل بعثة النــبي إذ لم يعد اتبـــاع آخر الأنبيـــاء عيسى ـــ عليه السلام ـ يشـكلون قـوة تـذكر ، لا بسـبب قلة عـددهم بل لأنهم بـــايعوا القياصـــرة في حقل الســـلطة ، واتبعـــوا الفلاســـفة في الحقل الثقـــافي ، وداهنـــوا المـــترفين والمستكبرين في المجتمع ، ولم يبق من الدين عندهم إلّا طقــوس فارغة ، فبــدل ان يناهضــوا ســلطات الجــور ، ويــدافعوا عن المظلــومين والمحــرومين التهــوا بمحاربة بعضهم ، وخلق عداوات جانبية بين مـذهب ومـذهب ، حقا .. أصـبحوا كما كـانت اليهـود من قبل ، وتفشى فيهم ذات الأخلاق الفاسدة التي بعث عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ لاصلاحها ، وكذلك في حقل الثقافة فلم يدافعوا عن قيم الـوحي في مقابل مفـاهيم الفلسـفة الضـالة ، بل تـراهم يلهثــون وراء التوفيق بينهما ، حـــتى ولو كـــان ذلك على حساب صفاء الوحي ونقائه. أرأيت كيف ذهبـوا الى فكـرة التثليث اتباعا للافلاطونية الجديـــدة ، ومن هنا أصـــبحت الرسالة الالهية أشد ضرورة

من أيّ وقت مضى ، ليس فقط لاصـــلاح البشـــرية من الفســاد العــريض الــذي أحــاط بها ، وإنما أيضا لتطهــير الرســالة مما لحق بها من زيغ وانحــراف على أيــدي أهل الكتاب الكافرين ، ولاضاءة تلك المشـاعل الـتي انطفـأت أو كـادت بسـبب عصف الشـهوات العاتية ، فلم تعد تنـير طريق السالكين ، ولكي يكـون للنـاس على الله حجة بعد الرسل.

وهكـذا بعث الله رسـوله الخـاتم بصـحف طـاهرة من دنس الانحرافات الثقافية التي حرفت الديانات ، وطـاهرة من تأثير الحكام الظلمة والمترفين الأشقياء.

(**رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً**)

وهكذا تتم البينة بالرسالة والرسول معا ، إذ الرســول يــدعو إليها بحكمة ، ويمثلها في ســلوكه لتتجلى للنــاس روعتها ، ويــدافع عنها بصــبر واســتقامة ، ثم ان الرســالة الــتي يحملها مطهــرة من شــوائب الزيغ والانحــراف ، فتتقبلها الفطرة السليمة ، والعقل الرشيد.

(3) مـاذا نقـرأ في تلك الأوراق الطـاهرة؟ نقـرأ كتبا أحكمت آياتها وفصلت ، لا تجد فيها عوجا ولا زيغا.

(**فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**)

يبدو أن معناها : الحقائق المكتوبة التي لا شــبهة فيها ولا ريب ، وهي واضـــــحة لا لبس فيها ولا غمـــــوض ، مســـتقيمة لا زيغ فيها ولا تحريف ، وعلى هـــذا فالكلمة أشارت الى الآيات المحكمة التي هي تكفي الإنسان هدى ونورا ، والتي إليها يرجع ما تشابه من آيات الـذكر بسـبب تساميها عن مستوى كـلّ النـاس ، وتخصصـها بالراسـخين في العلم منهم فقط.

(4) ولعل البعض يتشابه عليه الأمر ، فيظن أن تفرق أهل الكتاب واختلافهم في الدين كان من نقص في الحجّة ، فإذا تمت الحجة واكتملت البينة فلا أحد يختلف مسـتقبلا في الدين ، كلا .. ان الكتاب يـوفر للنـاس فرصة الهداية ، ولكنه لا يفرضها عليهم فرضا ، فإن آمنوا به فقد اهتـدوا ، وإلّا فهم المسؤولون عن ظلالهم وشقائهم.

(**وَما تَفَـرَّقَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتـابَ إِلَّا مِنْ بَعْـدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**)

يبدو أن أشد الضلال عند أهل الكتاب تفـرقهم ، أليس الايمان بالله ورسله وشرائعه يوحّد أهله في إطار الغايات التي يرسمها ، والمنـاهج الـتي يفرضـها ، والسـلوك الـذي يوصي به؟

لقد تفرق اليهـود إلى اثـنين وسـبعين فرقة ، أبـرزهم طوائف الصـدوقيين والفريسـيين ، والاسـيين ، والغلاة ، والسـامريين ، وكـان لكل فرقة منهم مـيزاتهم في الفكر والسلوك [1].

وبذات العدد تفرق النصارى وكان أبرز طائفتين منهم (الملكانيـة) الـذين ذهبـوا الى عقيـدة ازدواج الطبيعة عند السـيد المسـيح ـ عليه السـلام ـ و (المنوفوسـية) الـذين زعموا أن طبيعته واحدة هي الالوهية ، وحاول الامبراطور الرومـاني (610 م) ان يجمع مـذاهب الدولة بـالمنع عن الخـوض في القضـايا الكلامية ، إلّا أنّ القبط في مصر نابذوه العداء ، ووقع ـ جراء ذلك ـ اضـطهاد فظيع على يد قيصر مصر استمر عشر سـنين ، فكـانوا يعـذبون الرجـال ثم يقتلـونهم غرقا ، وتوقد المشـاعل على الضـحايا حـتى يسـيل دهنهم ، وقد يوضع الضـحية في كيس رمل ويلقى حيّا في البحر [2].

---

(1) في ظلال القرآن / ص 3950.
(2) المصدر / ص 3951.

واختلاف الأمم بعد رسل الله وتمـــــام الحجة عليهم دليل على مــدى حاجة البشر الى الــوحي ، حيث تــراهم يختلفون حـتى بعد تـنزل الـوحي بينهم ، وبمجـرد ان يخبو ضوءه عنهم ، فكيف بهم إذا حرموه رأسا؟!

(5) من أين يشـجر الخلاف بين البشـر؟ من الشـرك بالله ، حيث يقــدّس كل حــزب شــيئا لم يــأذن الله به ، فتختلف المقدسات ، وتتفاوت القيم ، ويقع الخلاف ، بينما إذا كـانوا جميعا يرجعـون إلى تلك البصـائر الـتي جـاء بها الــوحي ، ولم يقدســوا مصــلحة أو أرضا أو عشــيرة أو أشخاصا من دون الله إذا توحــــدت كلمتهم ، وصـــــلحت أمورهم.

(**وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ**)

دون الأنداد والشركاء الموهومين ، ولا تتم العبــادة إلّا بالتسليم لله وحده ، ونبذ الخضوع لايّة قيمة أو سلطة من دونه.

(**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ**)

يبـدو أن معـنى الـدين هو : ما يخضع له الإنســان من تلقاء نفسه من شريعة أو نظام ، وخلوصه رفض ازدواجية الـولاء بين الله والرسل والأوليـاء ، وبين سـائر السـلطات المادية ، وهذا ما لم يستقم عليه أهل الكتـاب ، إذ تــراهم ابتدعوا الكلمة الشــائعة : ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر ، ومن اتبع هوى قيصر كيف يخلص دينه لله؟!

وقد سـبق منا اختيـار معـنى الطهر لكلمة الحـنيف ، فلما ذا تــأتي الكلمة بعد بيــان الإخلاص في الــدين؟ لعل التوحيد درجات : أولها الشهادة به لسانا ، وعقد القلب به مجملا ، وثانيتها : رفض الأنداد ، ومواجهتهم ، والتمرد ضد ســـلطانهم ، والثالثة : تطهـــير القلب من حبهم أو الميل إليهم ، وتطهـــير الفكر من رواسب ثقـــافتهم ، وتطهـــير السلوك

من آدابهم وأخلاقهم. وهـذه درجة الحنيفية والله العـالم ، ومن أبعادها الالتزام بشرائع الله : من اقامة الصـلاة على وجهها ، الى الخضـوع فيها وتعاهـدها دائما ، وكـذلك إيتـاء الزكاة.

(**وَيُقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَيُؤْتُـوا الزَّكـاةَ وَذلِـكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**)

قالوا : دين الكتب القيّمة ، بدلالة قوله : آنفا : «**فِيها كُتُبٌ قَيِّمَـةٌ**» بلى. انها كتب لا عــوج فيها ولا تعقيد ، ولا تفاوت ولا اختلاف. ولا نشـوز عن فطـرة البشر أو حقـائق الخلق.

(6) لا يجــوز الاختلاف بين اتبــاع دين واحد ، كما لا يمكن توحيد دين الحق ومذهب الباطل ، بل لا بد ان يبقى الخلاف مـاثلا بين الحق والباطل وهو أسـاس توحيد الله ، وحينما ينمــاث الخلاف بينهما هنالك يغلب الباطل ويهــزم أهل الحق ، وهكذا يذكرنا السياق هنا بأن الكفـار هم شـرّ البرية.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ وَالْمُشْـرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**)

لقد زعم بعض أحبــار النصــارى الاســبقون أنهم يخــدمون دين الله لو أدخلــوا فيه بعض التعــديلات ، واســتخدموا كلمــات الفلســفة لبيــان مقاصــده ، حــتى استقرضوا من الثقافات الشــركية بعض مفاهيمها وألفّوها مع حقائق الوحي ، ثم داهنوا القياصرة والمترفين فتنازلوا لهم عن الـدنيا ليسـمحوا لهم بممارسة طقوسـهم الدينية الفارغة.

كلا .. إن المشــركين هم شــرّ البرية ، ومن كفر من أهل الكتاب بقيم الدين

الحق وداهن المشـــــــركين فهو مثلهم تماما شر البرية ، وفي ذلك إنذار بالغ الوضوح لنا ـ نحن المؤمنين بالقرآن ــ الّا نحذو حـذو علمـاء اليهـود والنصـارى فنهـادن الطغـاة ، ونصانع المستكبرين طمعا في اعترافهم ببعض الدين.

وشـرّ البريّة تعبـير بـالغ الحـدة لأنه يعـني أنهم أضل ســبيلا من كل ما خلق الله وبـــرأه ، ولكن لمـــاذا؟ لأنهم رفضـوا الحق بعد البينة ، وكفـروا بـأعظم رسـول ، الـذي جاء بأفصح حجة وأبلغ إنذار.

(7) وحتى لو كانوا مستضعفين في الأرض يأوون الى رؤوس الجبـــال ، وغـــور كهوفها ، ويســـيحون في الأرض فرارا بدينهم ، فان المؤمنين هم خير البريّة.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**)

لأنهم آمنوا بأفضل نبي ، واتبعوا أكمل منهج ، واهتدوا بأبلج نور.

لقد خلق الله كل شـيء في الأرض للإنسـان ، ولكن أي إنسـان ، هل الـذي يغتـال كرامة نفسه ، ويدسـها في وحل الجهل والغرور؟ كلا .. انه لا يساوي عند الله شـيئا ، بل الـذي يـؤمن بالله ورسـالاته ، ويعمل صـالحا ، فيصـبح أكرم خلق الله جميعا.

وجـاء في الأثر في تأويل هـذه الاية عن ابن عبـاس : لما نزلت قال النـبي ــ صلّى الله عليه وآله ــ لعلي (عليه السلام) : «**هو أنت وشيعتك ، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضــين مرضــيّين ، ويــأتي عــدوك عقبانا مقمحين**» [1].

وذكر الـدر المنثـور للسـيوطي طائفة من الأحـاديث المماثلة نذكر منها ما يلي :

---

(1) شـواهد التنزيل / ج 2 ــ ص 357 عن تفسـير نمونه / ج 27 ــ ص 211.

1 ـ اخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله ، قال : كنا عند رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فأقبل عليّ ، فقال النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «**والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة**» ونزلت : (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**) ، فكان أصحاب النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ إذا أقبل عليّ قالوا : جاء خير البرية.

2 ـ وأخرج ابن عدوي وابن عساكر ، عن أبي سعيد مرفوعا : عليّ خير البرية.

3 ـ وأخرج ابن عدي عن ابن عباس ، قال : لما نزلت «الاية» قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لعليّ : «**هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين**»

4 ـ وأخرج ابن مردوية ، عن عليّ ، قال : «قال لي رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : ألم تسمع قول الله : (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**) أنت وشيعتك ، وموعدي وموعدكم الحوض ، إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غرّا محجّلين» [1].

(8) ما هو المقياس لخير البرية ، هل كثرة الأموال والأنصار؟ كلا .. بل رضوان الله والجنة ، اما الثروات والأولاد فإنها فتنة وابتلاء يقدرهما الله للناس جميعا.

(**جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً**)

أليس قد صلحت طينتهم فأصبحوا أهل الجنة دائمين فيها ، لان الجنة هي ذاتها

(1) تفسير الدر المنثور / ج 6 ص 379.

الصــلاح ، وقد أعــدت لأهل الصــلاح ، وأعظم من الجنة رضوان الله الذي يغمر قلوبهم رضا وسكينة ونورا.

(**رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**)

كيف يبلغ الإنسـان درجة الرضـوان؟ إنما بمعرفة الله وخشــيته ، الــتي هي مــيراث معرفته ســبحانه ، وعلامة القرب منه ، وشهادة رفع حجب الذنوب بينه وبينهم.

(**ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**)

لذلك جاء في الدعاء المـأثور عن النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ــ : «**اللهم اجعلــني أخشــاك كــأني أراك وأسعدني بتقواك**»

وجـــاء في الاية الكريمة : (**إِنَّما يَخْشَــى اللــهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ**) [1].

فالخشية هي زينة العلماء بالله ، وهكذا جاء في دعاء الصباح المأثور عن الامـام أمـير المؤمـنين عليه السـلام : «**لا اله الا أنت ســـبحانك اللهم وبحمــــدك ، من ذا يعــرف قــدرك فلا يخافك ، ومن ذا يعلم ما أنت فلا يهابك**»

نسـأل الله أن يملأ قلوبنا خشـية وفرقا منه ، وشـوقا إليه ، حــتى نكــون من خــير البريّة ، ومن شــيعة عليّ التابعين لنهجه حقّا. آمين رب العالمين.

---

(1) فاطر / 28.

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في أصـول الكـافي بإسـناده عن أبي عبد الله ــ عليه السلام ـ قال : «**لا تملّوا من قـراءة إذا زلـزلت الأرض زلزالها فإنه من كـــــانت قراءته بها في نوافله لم يصبه الله ــ عز وجل ــ بزلزلة أبــدا ، ولم يمت بها ، ولا بصاعقة ولا بآفة من آفـات الـدنيا حـتى يمـوت ، فإذا مات نـزل عليه ملك كـريم من عند ربّه ، فيقعد عند رأسه ، فيقول : يا ملك الموت! رفق بـولي الله ، فإنه كــان كثــيرا ما يــذكرني ويــذكر تلاوة هــذه السورة ،**

وتقول له السورة مثل ذلك ، ويقـول ملك المـوت : قد أمرني ربّي أن اسمع له وأطيع ، ولا أخـرج روحه حتى يأمرني بذلك ، فاذا أمرني أخــرجت روحه ، ولا يـزال ملك المـوت عنـده حـتى يـأمره بقبض روحه ، وإذا كشف له الغطاء فيرى منازله في الجنّة فيخرج روحه في ألين ما يكون من العلاج ، ثم يشــيع روحه إلى الجنّة سبعون ألف ملك يبتدرون بها إلى الجنّة»

وعن أنس : أنه سأل النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ــ رجلا من أصحابه ، فقال : «يا فلان هلّا تزوجت؟» قال : لا وليس عندي ما أتـزوج به ، قـال : أليس معك قل هو الله أحد؟ قال : بلى ، قال : «**ربع القرآن**» قال : أليس معك قل يا أيها الكـافرون قـال : بلى. قـال : «**ربع القـرآن**» قـال : «**أليس معك إذا زلـزلت**؟» قـال : بلى ، قـال : «ربع القرآن» ثم قال : «**تزوج تزوج تزوج**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 647

الإطار العام

سـنة الله في الجـزاء تتجلى في البصـيرة الـتي تبيّنها سورة الزلزلة : إن من يعمل مثقال ذرة خـيرا يـره ، وإن من يعمل مثقال ذرة شرا يـره ، لكي لا يسـتهين الإنسـان بأعماله الـتي تتجسد له يـوم القيامة ، ذلك اليـوم الثقيل الذي تزلـزل الأرض زلزالها ، وتخـرج الأرض ما في جوفها من أجسـاد ومعـادن وأجسـام مختلفة ، ويسـتبد بالإنسـان حـيرة ويتسـاءل : ما لهـا؟ وتـرى النـاس يصـدرون في مذاهب شتّى ، حسب أفعالهم وحسب درجاتهم.

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**إِذا زُلْـزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (1) وَأَخْـرَجَتِ الْأَرْضُ
أَثْقالَها (2) وَقـالَ الْإِنْسـانُ ما لَها (3) يَوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ
أَخْبارَها (4) بِـأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (5) يَوْمَئِذٍ يَصْـدُرُ
النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَـلْ مِثْقـالَ
ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَـرَهُ (
8)**)

إذا زلزلت الأرض زلزالها

بينات من الآيات :

(1) ليست الحيـــــاة الاولى الـــــتي تملا أعيننا وقلوبنا بخيرها وشرها ، بأنظمتها واحداثها وظواهرها سـوى ظلال باهتة ، لـــذلك الحيـــوان العـــريض الواسع والخالد ، وانما جيء بنا إليها لنسـتعد ولنـتزود ، (**وَمَا الْحَيـاةُ الـدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ**).

ونحن في الـــدنيا نشـــهد أهـــوالا تفزعنا وتكـــاد تقتلع أفئدتنا ، ومنها الزلازل العظيمة التي قد تبتلع في لحظـات مدينة كبـيرة بناها الإنسـان عـبر قـرون متمادية ، وانها ـ على ذلك ـ ليست سوى زلـزال محـدود يضـرب ناحية من الأرض ، فيكف إذا كـان شـاملا للأرض كلّهـا؟! أيّ منظر رهيب ، أم أيّ فزع عظيم ، أم أي داهية كبري يكـون ذلك الزلزال!

(**إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها**)

ولعل ضـــمير «هـــا» العائد إلى الأرض يـــوحي بـــأنّ الزلزال لا يخص منطقة ، وانه

يكون كأشد ما يقع في الأرض من زلزال.

(2) مـاذا يحـدث عندئـذ؟ هل تفـور النـواة المركزية للكرة الارضية بعوامل غـير معروفة لـدينا فتهـتز القشـرة الفوقية للأرض هــزّات عنيفة ومتتالية ، ثم تقــذف فوقها المواد التي احتسبت فيها منذ ملايين السنين؟ هكـذا يبـدو من الآيات التي تصرح بأن الأرض تلقي أثقالها.

(**وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها**)

وهكذا قـال ربنا سـبحانه في آية اخـرى : (**وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ**) [1].

وقـال بعضـهم : الأثقـال هي كنـوز الأرض ومعادنها ، وقـال آخـرون بل هي الأمـوات الـتي تخـرجهم الأرض في النفخة الثانية ، فاذا هم قيام ينظرون.

ويبدو أن الكلمة تتسع لكل هذه التطبيقـات ، على أن إخـــراج المـــواد الكامنة في مركز الأرض أقـــرب إلى ما نعرفه من سبب الزلـزال ، أليس سـببه الغـازات الارضـية المحتبسة في النواة المركزيـة. الا تـرى ان بعض الـزلازل يكون من البراكين التي تخـرج المـواد الذائبـة؟ ويؤيد ذلك ما جاء في حديث :

«**تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسـطوان من الذهب والفضة**» [2].

(3) ويبقى الإنسان حائرا مدهوشا! ماذا حدث للأرض حتى تزلزلت ، وأخرجت ما في أحشـائها ، ولمـاذا وما هي الغاية؟

(**وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها**)

---

(1) الانشقاق / 4.

(2) القرطبي / ج 20 ـ ص 147.

قـال بعضـهم : هـذا هو الكـافر الـذي جحد بـالآخرة ، فتساءل مع بروز أشراطها عنها وقال : ماذا حـدث؟ ولكن يبـدو أن تلك الحـوادث المروعة تحمل كـلّ إنسـان على التساؤل.

(4) ولن يطـول التعجب لان الأرض تشـرع بالإجابة ، مما يشـهد بتحـوّل عظيم في عـالم الطبيعة ، لا يختص بمظاهرها فقط وإنما يجري على طبائعها ، فكيف تتحـدث الأرض ، وكيف يلتقط سـمع الإنسـان حـديثها ، لو لا تغيـير كبير يحصل فيها.

(**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها**)

وأول خـبر تنطق به الأرض وبحوادثها أو بلسـانها : ان السـاعة قد قـامت ، وأن الـدنيا قد أدبـرت ، ولعل الخـبر الثـاني لها بيـان حكمة الفـزع الأكـبر الـذي يجـري على ظهرها ، أما أهم الاخبار فهي شهادتها على أفعـال النـاس فوق ظهرها ، فقد جاء في حديث مأثور عن رسول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ أنه قـرء هـذه السـورة فقـال : «**أتدرون ما أخبارها**؟»

قـالوا : الله ورسـوله أعلم ، قـال : «فـإن أخبارها أن تشـهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقـول عمل يوم كذا كذا وكذا» قال : «**هذه أخبارها**» [1].

وفي حـديث آخر : روي عن رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ـ : «**حـافظوا على الوضـوء وخـير أعمـالكم الصـلاة ، فتحفظـوا من الأرض فانها أمّكم ، وليس فيها أحد يعمل خيرا أو شرا إلا وهي مخبرة به**» [2].

(5) ولعل الأرض تحـدث النـاس بأخبـار أخـرى أيضا ، أما كيف تتحدث ، هل

---

(1) المصدر / 148.

(2) تفسير نمونه نقلا عن مجمع البيان / ج 10 ص 526.

بكلام يخلق فيها ، أم بما ينعكس عليها من آثــار أعمــال الإنسان فتظهر يومئذ كما الشريط الصـوتي أو المصـور ، أم بـأن الله يـؤتي الإنسـان ما يلتقط به إشـارات الأرض؟ المهم انها تتحدث بإيحاء الله لها.

(**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها**)

(6) يبدو ان الأرض التي انعكست عليها أقوال الناس وأفعالهم منذ أن عاشوا عليها تبـدأ بإعـادة تمثيلها لهم كما الشريط المصور الـذي تنعكس عليه صـور الحـوادث ، ثم يعرض علينا لنراها من جديد ، ولذلك قال ربنا سبحانه :

(**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ**)

اننا نعرف كيف تنعكس ذبذبات الصـوت على شـريط الكاسـيت ، ولكن لا نعـرف كيف تنعكس أيضا على ذرات التراب الـتي تحيط بنا ، ولعل الإنسـان يتقـدم علميّا حـتى يبلغ هذا السّر في يوم ما ، إنّما علينا الآن ان نبقى حذرين من كل شيء محيط بنا ، فانه يسـجل أفعالنا الـتي تحفظ إلى يوم القيامة لنراها ، فاي يوم رهيب ذلك اليوم ، حيث يرى الإنسان ما عمله خلال حياته محضرا. ان الإنسـان قد يرتكب جريمة أو يقترف إثما ، فيلاحقه ضميره بالتـأنيب ، فيحاول جهده تناسي الأمر حـتى لا يصـاب بـوخز الضـمير فيما بينه وبين نفسه ، فكيف إذا جيء به على رؤوس الاشهاد ، وصـوّرت له أفعالـه! أي خـزي يلحق المجـرمين في ذلك اليوم ، أم أيّ عار عظيم؟!

قــالوا : صــدور النــاس : نشــورهم من قبــورهم ، وحركتهم باتجاه محكمة الـرب ، وقيل : انه مسـتوحى من صدور الإبل من الماء ، اما الاشتات فإنه يعني متفـرقين ، وأعظم ما يفرقهم الايمـان والكفر ، فمن آمن اتخذ سـبيلا مختلفا عن الكفار ، كما قال

ربنا سـبحانه : (**يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُـونَ**) .. والاية التالية تشـهد بهذا المعنى.

وقال بعضهم : بل معنى الاشتات : انهم يصدرون من مقـابرهم وهي مبثوثة في أنحـاء مختلفة من الأرض ، كما انهم مختلفـــون في المـــذاهب والنحل ، ويبعث كل أمّة منهم بإمامهم.

(7) وليست الأعمال الكبيرة وحدها الـتي تتجسد ذلك اليوم ، بل حتى أصغر ما يتصوره الإنسـان من عمل ، من وسوسة الصدر ، حـتى لمحة بصر ، ونصف كلمة ، ونفضة من حركة كلها مسجلة.

(**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ**)

قـــالوا : عن الـــذرة انها النملة أو ما يلصق باليد من تراب إذا وضـعها على الأرض ، فكل حبة ذرّة ، أو ما يـرى في شعاع الشمس إذا دخل من كـوّة صـغيرة ، ونقل نص مأثور يقول : «**الذرة لا زنة لها**» [1].

واليوم حيث عرف البشر الذرة وعرف أنها أصغر مما كان يتصوره الأقدمون ، فأي حساب دقيق ينتظرنا يومئذ ، فما لنا نغفل عما يراد بنا.

(8) وإذا كـانت كل ذرة من خـير تـؤثر في مصـيرنا ، فعلينا أن نزداد منها أنّى استطعنا ، وإذا كانت كل ذرة من شرّ نحاسب عليها ، فعلينا أن نتحذر منها.

(**وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**)

ولذلك جاء في الحديث المأثور عن الرسـول ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «**ما من أحد يـوم القيامة إلّا ويلـوم نفسه ، فـإن كـان محسـنا ، فيقـول : لم لا ازددت إحسانا ،**

---

(1) القرطبي / ج 20 ص 150.

وإن كـــان غـــير ذلك يقـــول : لم لا نـــزعت عن المعاصي» [1].

بلى. والإنسان يزداد حسـرة يـوم القيامة إذا رأى من أعماله الصالحة مثقال ذرة قد عمله لغير الله كما الكفـار والمنافقون ، هكذا نقرأ في نصّ مأثور عن الامام الباقر ــ عليه السـلام ــ في تفسـير قوله : (**فَمَنْ يَعْمَـلْ مِثْقـالَ ذَرَّةٍ خَيْـراً يَـرَهُ**) قـال : ان كـان من أهل النـار وقد كـان عمل في الدنيا مثقال ذرّة خـيرا يـره يـوم القيامة حسـرة انه كـان عمله لغـير الله (**وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقـالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَرَهُ**) يقـول : «**ان كان من أهل الجنة رأى ذلك الشـرّ يوم القيامة ثم غفر له»** [2].

وجــاء في حــديث آخر عن الامــام الصــادق ـــ عليه السلام ــ قـال : «**قـال رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ـــــ : ان العبد ليحبس عن ذنب من ذنوبه مائة عام ، وإنّه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعّمن»** [3].

حقا .. إذا وعى الإنسـان هـذه الاية من القـرآن كفته وعظا وزكـــاة وطهـــرا ، لأنه ســـوف يقيس من أفكـــاره وأقواله وأعماله كل صغيرة وكبيرة ، ومن ضـبط صـغائره هـانت عليه الكبـائر ، أو ليست الكبـائر تبـدأ بسلسـلة من الصغائر ، أرأيت الذي يزني لا يــرتكب الفاحشة إلا بعد ان يوسوس له الشـيطان بفكـرة الزنا ، فـإذا لم يـردع نفسه عنها ، فتش عن زانية وســـــعى إليها ، ثم نظر إليها ، ثم تحــدث معها ثم لامس وزنى. إنّها خطـوات متدرجة ، كـلّ واحدة أنكى من سابقتها ، وهي صغائر تنتهي الى كبــيرة ، أو تصبح بمجموعها كبيرة. أليس كذلك؟

من هنا رأى ابن مســـعود هـــذه الاية احكم آية في القرآن وروى المطلب بن خطب أن إعرابيّا سمع النـبي ــ صلّى الله عليه وآله ـ يقرؤها ، فقال : يا رسول الله!

(1) المصدر / ص 150.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 651.
(3) المصدر.

أمثقـال ذرة؟ قـال : «نعم» فقـال الاعـرابي : وا سـوأتاه مرارا ، ثم قام وهو يقولها فقـال النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ «**لقد دخل قلب الاعرابي الايمان**» [1].

وروي أنّ رجلا جاء إلى النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ فقـال : علّمـني مّما علّمك الله ، فدفعه إلى رجل يعلمه ، فعلّمه : (**إِذا زُلْزِلَتِ**) ـ حـتى إذا بلغ ـ (**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**) قال : حسبي ، فأخبر النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ : فقال : «**دعوه فإنّه قد فقه**» [2].

---

(1) القرطبي / ج 20 ص 153.
(2) المصدر.

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله ــ عليه السـلام ــ قـال : «**من قـرأ سورة العاديات ، وأدمن قراءتها ، بعثه الله عزّ وجل مع أمـير المؤمـنين ــ عليه السـلام ــ يـوم القيامة خاصة ، وكان في حجره ورفقائه**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 651

الإطار العام

بعد أن يصور السـياق ببلاغة نافـذة معركة منتصـرة ، يمتطي المجاهـدون فيها الخيـول الـتي تعـدو وتحمحم ، وتنقدح من حوافرها الشرار ، ثم تغـير مع بواكـير الصـباح على العدو ، مثيرة غبارا كثيفا ، ثم تبلغ وسط الهدف.

بعد أن يصـور السـياق ذلك ويقسم به إكراما له (لأنه غاية الجـود والشـهامة والإيثـار) يـبين أن الطبيعة الاولية للإنســان (قبل ان يــتربى ويــتزكى) هو الكند ، والبخل ، وحب الخير لنفسه ، والاسـتئثار به ، ولكن مـتى يفقه حقا خطـأه؟ عند ما تتكشف القبـور عما سـترتها من أجسـاد ، وتتكشف الصـدور عما خبأتها من أسـرار .. يومئذ يعـرف الإنسان أن ربه خبير به.

هكذا تربي هذه السورة الكريمة الـتي جـاء في بعض الأحـاديث أنها بمثابة نصف القـرآن ، تـربي الإنسـان على الإيثار والتضحية في سبيل الله.

سورة العاديات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(وَالْعادِيــاتِ ضَــبْحاً (1) فَالْمُورِيــاتِ قَــدْحاً (2)
فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (3) فَأَثَرْنَ بِـهِ نَقْعـاً (4) فَوَسَـطْنَ
بِهِ جَمْعـاً (5) إِنَّ الْإِنْسـانَ لِرَبِّهِ لَكَنُـودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلى
ذلِــكَ لَشَــهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْــرِ لَشَــدِيدٌ (8) أَفَلا
يَعْلَمُ إِذا بُعْثِــرَ ما فِي الْقُبُــورِ (9) وَحُصِّــلَ ما فِي
الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11))

إنّ الإنسان لربه لكنود

بينات من الآيات :

(1) لكي نفقه كرامة المجاهــدين على الله ، وعظمة دور خيلهم العاديات في ســبيله ، يقسم القـرآن بها ، لأنها تحمل نور الإسـلام إلى الافـاق ، وتحمل صـفوة عبـاد الله الذين نذروا أنفسهم في سبيل نشر دعوته.

(**وَالْعادِياتِ ضَبْحاً**)

يبدو أن العدو في الأصل تجاوز الحد ، ويسمى العــدو عــدوا لأنه يتجــاوز الحد في معاملته ، ومنه العــدوان لأنه تجاوز للحق ، والسرعة القصوى في المشي تسمى عـدوا لأنها أيضا تجاوز للحد.

وهكذا قالوا في الخيل سميت العاديات لاشتقاقها من العـدو ، وهو تباعد الأرجل في ســرعة المشي ، وانشــدوا لصفية بنت عبد المطلب :

فلا والعاديــات غــداة جمع بأيــديها إذا ســطع الغبــار

اما الضّــبح ، فقــالوا : انه التنفس بقــوة ، وقيل : انه حمحمة الخيل ، والأقرب عندي : تغير الحال أو تغير اللون ، ويقال : انضبح لونه إذا تغير ، ولعله لذلك يسمى الرمــاد ضــبحا لأنه يتغــير لونه من أصــله ، وإنما تســمى الخيل ضـــابحة إذا تغـــير من العـــدو حالها مما ظهر على لونها وتنفســها وحمحمة صــوتها ، وقد اســتخدمت الكلمة في الثعلب ، وقيل في الاية : ان الخيل كـــانت تكعم (والكعم شيء يوضع في فم البعير) لئلا تصــهل فيعلم العــدو بهم ، فكانت تتنفس في هذه الحال بقوة وانشدوا :

والخيل تعلم حين تض بح في حياض الموت ضبحا

(2) كانت الخيل تعدو بسرعة ، ولكن من دون صهيل ، وكــانت الحركة في الليل ــ فيما يبــدو ــ حيث تتطــاير الشــرر من حوافرها الــتي تحتك بالحصى ، مما يظهر أن الأرض كانت وعرة ، فجاء السياق يقسم بها وهي تنســاب بين الصخور في رحم الظلام.

(**فَالْمُورِياتِ قَدْحاً**)

والإيراء : الاشعال ، والقدح : ضرب الحجـارة ببعضـها طلبا للنار.

(3) وتقترب خيل المجاهدين العادية من أرض العدو ، وتنتظر انبلاج الفجر فتفاجئ العدو بغارتها الخاطفة.

(**فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً**)

وهكــذا كــانت الغــارات الناجحة ، فــاذا أرادوا العــدو ساروا إلى أرضه ليلا ، وانتظروا الصــباح للبــدء بــالهجوم ، حيث لا تزال العيون نائمة ، والاعصاب مخدّرة.

(4) وعند الهجوم المباغت تثير الخيل بحوافرها الغبار ، وكلما ازداد الغبار كشف عن شدة المعركة.

(**فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً**)

ولعل النقع : الغبار الغليظ الذي يشــمل الأرض ، ذلك لان أصل النقع ـ كما قيل ـ الغور في الماء أو غور الماء ــ ولهذا يسمى الماء الراكد بالنقيع ، لأنه يغور في الأرض أو يغور فيه الغاطس ، قالوا : لذلك سمي الغبــار نقيعا فكأنه يغور فيه الإنسان.

وتساءلوا عن ضمير «به» أين مرجعه ، فقــال البعض : انه يعود الى العدو المفهــوم من العاديـات ، وقـال آخر : بل يعـود إلى المكـان الـذي تقع فيه المعركة ، والمفهــوم من الســياق ، وأظن انه يعــود إلى قوله «ضــبحا» لأنه الأقرب ، وإذا نسب الى الزمان شيء كان أبلغ في معـنى الشــدة ، كما نقــول يــوم نحس أو يــوم ســعيد ، أي كلّه سعادة أو نحوسة.

بلى. قد أثارت الخيول نقعا جعل الصباح مغبرّا.

(5) الغارة القـاهرة هي الـتي تقع مفاجئة ، وصـباحا ، وتبلغ أهـدافها بسـرعة خاطفة ، وهكـذا كـانت تلك الغـارة التي اخترقت قلب العدو.

(**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً**)

يقــال : وســطت القــوم أي صــرت في وســطهم ، والجمع بمعنى : تجمع العدو ، وهو كناية عن قلب جيشهم ، ومركز قـوتهم ، وضـمير «بـه» يعـود إلى العـدو أو إلى المكان أو الصباح حسبما سبق في الاية الماضية.

كان ذلك التأويل الأقـرب إلى ظـاهر الآيـات ، وهنـاك تأويل أخر ذكره طائفة من المفسرين ، حيث قالوا : تعني الآيات خيل الحجيج أو إبلهم ، حيث يفيضـون إلى عرفـات ثم مزدلفة فمـنى ويكـون معـنى الإيـراء إشـعال النـيران لطعامهم ، ومعنى الجمع : مزدلفة ، أما معـنى المغـيرات صـبحا ــ حسب التفسـير ــ فهي الإبل تـدفع بركبانها يـوم النحر من منى إلى جمع ، والسنة الا تدفع حتى تصبح.

ويبدو أن تأويل الآيات في الحج ومناسـكه ومشـاعره لا يتنـــافى مع تأويلها في الجهـــاد ، أليس الحج جهـــاد المستضـعفين؟ ويشـبه مناسـكهم وحـركتهم ، وهكـذا نجد الرواية التالية المأثورة عن الامـام أمـير المؤمـنين ــ عليه السلام ـ تجمع بين التأويلين ، تدبر قليلا فيها :

روي سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قـال : بينما أنا في الحجر جـالس ، إذ أتـاني رجل فسـأل عن (**الْعادِياتِ ضَـبْحاً**) فقلت له : الخيل حين تغـزو في سـبيل الله ، ثم تـأوي إلى الليل ، فيضـعون طعـامهم ، ويـورون نـارهم ، فانفتل عنّي وذهب إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ــ وهو تحت سقاية زمزم ــ فسـأله عن (**الْعادِيـاتِ ضَـبْحاً**) فقال : «سألت عنها أحدا قبلي» قال : نعم ، سـألت عنها ابن عباس ، فقال : الخيل حين تغزو في سبيل الله ، قال : «فـــاذهب فادعه لي» فلما وقف على رأسه قـــال : «**أتفــتي النــاس بما لا علم لك به ، والله إن كـانت لاول غــزوة في الإســلام بــدر ، وما كــان معنا إلّا فرسان : فرس للزبير ، وفرس للمقداد بن الأســود ، فكيف يكون العاديـات الخيـل؟ بل العاديـات ضـبحا الإبل من عرفة إلى المزدلفة ، ومن مزدلفة إلى منى**» قـال ابن عبـاس : فـرغبت عن قـولي ورجعت إلى الذي قاله علي [1].

ويؤيد الجمع بين التـأويلين ما جـاء في سـبب نـزول السورة : أنه كان في سريّة

---

(1) نـور الثقلين ج 5 ص 656 ، ونجد روايـات مشـابهة في سـائر التفاسير. راجع تفسير القرطبي ج 20 ص 155.

قادها الامـام عليّ ــ عليه السـلام ــ حيث أخـبر جبرئيل ــ عليه السـلام ــ النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ــ : أن أهل وادي اليـابس قد اجتمعـوا في اثـني عشر ألف فـارس ، وتعاقدوا وتواثقـوا أن لا يتخلّف رجل عن رجـل. ولا يخـذل أحد أحـدا حـتى يقتلـوا محمـدا وعليّا ، فبعث رسـول الله إليهم بســـرية يقودها أبو بكر في أربعة آلاف رجل ، فلما رأى بأسهم وبعد ديارهم لم يحاربهم ، فأرسل رسـول الله عمرا بالمهمة ، فعـاد هو الاخر لـذات السـبب ، فلما بعث إليهم عليا مشى إليهم من غير الجادة ، واعنف في السير ، فلما أحاط بأرضهم ، أغـار عليهم صـباحا وهم غـافلون ، فلما يعلمـــوا حـــتى وطـــأتهم الخيل ، وأقبل بالأســـارى والأموال إلى رسول الله فنزلت السورة [1].

(6) قسـما بكل ذلك الإيثـار العظيم الـذي يتجلى في معـارك المجاهـدين ، قسـما بتلك القمم السـامقة الـتي بلغوها بإيمانهم ويقين قلـوبهم : إن الإنسـان قد طبع على كفـــران النعمة ، ولن يتســـامى إلى أفق الإيثـــار من دون جهاد نفسه وتزكيتها.

(**إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**)

كلما ذكـرت كلمة (الإنسـان) أريد بها ــ فيما يبـدو ــ طبيعة الإنســان الاولية قبل التزكية والتعليم ، وقد ذكــروا تفسيرات شتى للفظة «لكنود» أبرزها : الكفور ، العاصي ، البخيل ، السّيء الملكة ، وقال بعضـهم : هو الـذي يكفر باليســـير ولا يشـــكر الكثـــير ، وقيل : انه الجاحد للحق ، وانشدوا :

كنـود لنعمـاء الرجـال ومن يكن كنـودا لنعمـاء الرجـال يبعّد

ويبـدو ان الصـفات السـيئة يتسع بعضـها ، مما يجعل المعـــنى الاصـــلي للكلمة الدالة على واحـــدة منها ضـــائعا فيختلف فيه النـــاس ، وقد تكـــون الكلمة موضـــوعة كشخصية

(1) المصـدر ص 652 بتصـرّف واختصـار ، وراجع أيضا موسـوعة بحـار الأنوار ج 21 ص 66 ، وكذلك مجمع البيان ج 10 ص 528.

متّصفة بها جميعا ، كما سبق في معنى كلمة «عتـل» وإذا قلنا بان لكلمة (كنود) معـنى واحـدا ، فليكن البخيل الـذي يحس دائما بـأن حقه أعظم مما أوتي فلا يشـكر نعم الله عليه بالإنفـاق ، ومن هنا جـاء في الحـديث المـأثور عن رسـول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ـ :

«**الكنود هو الذي يأكل وحده ، ويمنع رفده ، ويضرب عبده**» [1].

وقال الشاعر :

دع البخلاء ان شـمخوا وصـدّوا وذكـرى بخل غانية كنـود

وهكذا يكون معنى «لربه» لفضل ربه ونعمه.

(7) والكفـران والجحـود والبخل وسـائر الصـفات السـيئة الـتي تجمعها كلمة كنـود حقـائق يعـترف الإنسـان بوجودها في نفسه ، فعليه مسـئولية تخليص نفسه منها ، ولا يمكنه التملص عن المسؤولية بأنه كان جاهلا :

(**وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ**)

أو لم يقل ربنا سبحانه في آية اخرى : (**بَلِ الْإِنْسـانُ عَلى نَفْسِـهِ بَصِـيرَةٌ* وَلَـوْ أَلْقى مَعـاذِيرَهُ**) [2] وقـال بعضهم معنى الاية : أن الله على ذلك لشهيد وهو بصـير ، لان السـياق يحـدث عن الإنسـان فـالاولى عـودة الضـمير اليه.

(8) ولكن لماذا لم يتخلص من كند نفسه؟ لأنه شـديد الحب للخير ، ومن شـدة حبّه له تـراه يبخل به ولا يشـكر ربه عليه بإنفاقه.

---

(1) القرطبي / ج 20 ص 160.

(2) القيامة / 14 ـ 15.

(**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**)

وحب الخير بذاته فضيلة ، ولكنه يصبح رذيلة إذا اشتد في الإنسـان ، وطغى على حبه لله وللرسـالة ، وفضّـله الإنسان على الاخرة التي هي الخير حقّا.

ولكن اي خير هذا الذي يهدده المـوت في اية لحظة ، قال الشاعر :

اری المـوت يعتـام الكـرام ويصـطفي   عقيلة مـال الفـاحش المتشـدّد

(9) ولا يتخلص الإنسـان من حب الـدنيا إلا بـذكر الاخـرة فمن اشـتاق إلى الجنة سلا عن شـهوات الـدنيا ، ومن أشفق من النار هانت عليه مصيبات الحياة.

(**أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ**)

أي اثير وقلب ، من قولهم : بعثرت المتـاع أي جعلت أسفله أعلاه ، ويبدو أن ذلك إشـارة إلى البعث والنشـور ، حيث تثار القبور لاستخراج ما فيها.

(10) هنالك يحشر النـاس للحسـاب ، وتشـهد عليهم جوارحهم ، وتظهر ما في جوانحهم ، من نكد وحبّ للدنيا.

(**وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ**)

حيث تبلو يومئذ السرائر ، وتسـقط الاقنعة ، ويعـرف الإنسان مدى خسارته للفرصة إذ لم يزك نفسه.

(11) هنالك يعلم النـاس يقينا ان الله محيط بهم ، ذلك لأنهم يرون كيف يجـازيهم بأفعـالهم ، بل ويسـأل عن سـرائرهم ، وما أضـمروا فيها من خـير أو شر ، (**فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ**).

(**إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ**)

ويفعل بهم ما يشاء بحكمة ، فلـذلك اليـوم فليسـتعد الإنسان وليزك نفسه ، وينمي فيها الفضائل ، ومن أبرزها الجهاد في سبيل الله. وفقنا الله له.

سورة القارعة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

في كتاب الأعمال للصدوق بإسـناده عن أبي جعفر ــ عليه السـلام ــ قـال : «**من قـرأ وأكـثر من قـراءة القارعة آمنه الله ــ عز وجل ــ من فتنة الـدجال أن يؤمن به ومن قيح جهنم يوم القيامة ، إنشاء الله**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 658

الإطار العام

خلق الله كل شيء بمقدار ، كلما حولك موزون بدقة ، فهل يسـمح للإنسـان أن يعبث بحياته بلا نظـام ولا حسـاب. كلا .. إن حياته هي الاخـرى محسـوبة عليه ، كل وسوسة وفكرة وعزم ، كل كلمة وكل حركة مسجلة عليه ، وعليه أن يزيد من صـالح أعماله ما يثقل ميزانه ، وإلا فـإن مصـيره الى نـار حامية ، مـتى؟ عند ما تقـرع سـاعة القيامة ، وعنـدها يكـون النـاس كـالفراش المبثـوث ، وكالجراد المنتشر ، وتكون الجبال كما الصوف المنفوش.

سورة القارعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الْقارِعَـــــةُ (1) مَا الْقارِعَـــــةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا
الْقارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُـونُ النَّاسُ كَـالْفَراشِ الْمَبْثُـوثِ (
4) وَتَكُـونُ الْجِبـالُ كَـالْعِهْنِ الْمَنْفُـوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ
ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (6) فَهُـوَ فِي عِيشَـةٍ راضِـيَةٍ (7) وَأَمَّا
مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هاوِيَـةٌ (9) وَما أَدْراكَ ما
هِيَهْ (10) نارٌ حامِيَةٌ (11))

وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ

بينات من الآيات :

(1) (**الْقارِعَةُ**)

تلك هي الساعة تقرع الخلائق بأهوالها ، وتقول العرب قرعتهم القارعة ، إذا نزل بهم أمر فظيع.

(2) وكل داهية قارعة ولكن قارعة الساعة أمر عظيم ، لا يبلغ وعي الإنسان مدى فظاعتها.

(**مَا الْقارِعَةُ**)

(3) وانى كانت عظمتها فعلينا أن نقترب من وعيها ، لاننا بذلك نستطيع مقاومة لغفلة والجهالة والفوضى في أنفسنا.

(**وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ**)

ان النفس البشـــــرية شـــــديدة الميل إلى الانفلات والتحلل والفوضى ، لو لا قرعها بنصائح الاخـرة ، وما فيها من أهوال تجعل الولدان شيبا ، ولذلك جاءت آيـات الـذكر شـديدة الإنـذار ، بالغة التحـذير ، لعلنا نعقل أو نسـمع ، ونوقظ عقولنا من السبات العميق.

(4) الألقاب التي نخـدع أنفسـنا بها اليـوم ، والأسـماء العريضة ، والمفاخر والأمجاد تتلاشى ذلك اليـوم ، ويحشر عشـرات الألـوف من بلايين البشر كما الهمج الطـائر ، الذي يكثر أيام الصيف ، فتراه كالسحابة من شدة تراكمها فوق بعضـها ، أو الجـراد الكـثيف الـذي يتـداخل في بعضه كأنه غبـار كـثيف ، فما قيمة بعوضة في الهمج ، أو جـرادة في سيل الجراد ، انا وأنت نصبح هكـذا بين من يحشر من أبناء آدم ، منذ كان آدم وإلى قيام الساعة.

(**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ**)

قـالوا : الفـراش : الطـير الـذي يتسـاقط في النـار والسـراج ، وقيل : كل همج طـائر يسـمى فراشا ، ومنه الجراد ، وروي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنـادب والفـراش يقعن فيها ، وهو يـذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجركم عن النار ، وأنتم تفلتون من يدي**» [1].

حـالات مختلفة ومتدرجة في ذلك يـذكرنا السـياق بواحدة منها ، كما سبق في آيات مشابهة.

قالوا : المبثوث المنتشر المتفرق.

(5) أكـثر ما في الـدنيا وهم ، ويتلاشى الـوهم في الاخـرة ، بل حـتى حقـائق الـدنيا تتلاشى يومئذ ، فـترى الجبـال الـتي تحسـبها قـوّة ثابتة كما الصـوف المتفـرق ، تحركها

---

(1) القرطبي ج 20 ص 165.

الرياح.

(**وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**)

قالوا : أي الصوف الذي ينفش باليد ، أي نعيدها هبـاء ، ويبدو أن للجبال حالات مختلفة ومتدرجة في ذلك يذكرنا السياق بواحدة منها ، كما سبق في آيات مشابهة.

(6) بلى. ينتفع الإنســان يومئذ بشــيء واحد ، يعطيه قيمة بين الناس ، إنه عمله الصـالح الـذي لو رجحت كفته في الميزان حسنت عيشته.

(**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ**)

يبدو ان المـوازين تعـني الأفعـال الـتي تـوزن وليست ذات الكفتين واللسان ، وقال بعضهم : المــوازين : الحجج ، واستشهدوا بقول الشاعر :

قد كنت قبل لقــــــائكم ذا مــــــــــــــــــــــــرة	عندي لكل مخاصم ميزانه

وقد سبق الحديث في ســورة الـرحمن : أن المـيزان هو الامـام النـاطق ، الـذي جسد قيم الـوحي في حياته ، وكان حجة على عباد الله.

(7) وإذا كانت عاقبة الإنسان رهينة رجحان حسـناته ، وإذا كان حتى مثقال ذرة من أفعاله محسوبة له أو عليه ، فينبغي ألّا يقصر الإنسان فيها ، فلعل حسنة واحدة تــرجح كفة الحسنات ، وتجعلك من أهل الجنة حيث العيشة التي ترضاها.

(**فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ**)

وحين تكون العيشة راضـية ، فـإن كل جـوانب حياتك تجلب رضاك وتكون في

مستوى طموحك ، وقالوا : معناها عيشة مرضيّة ، وقيل : بل عيشة ليّنة منقادة.

(8) والويل لمن أضـــاع فرصة العمر ، وقصّــــر في استغلال فرص الخـير ، واسـتهان بالـذنوب حـتى تـراكمت في ميزانه ، واســتخف بالحســنات حــتى خفت موازينها عنده.

(**وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ**)

(9) (**فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ**)

أي مصـــيره الجحيم ، قـــالوا : الام ما يـــأوي إليها الإنسان ، كما يأوي إلى الام وانشدوا :

فالأرض معقلنا وكـانت أمنا   فيها   مقابرنا   وفيها   نولد

ولكن يبـــدو أن كملة الامّ من أم أي قصد ، والامّ هو المقصد الذي يعيد اليه الإنسـان باختيـاره وقيل الام : هي أم الرأس ، من قولهم : سـقط على أم رأسه وقـالوا عن الهاوية : انها المهـــواة ، أو الـــوادي بين جبلين ، لان قعر جهنم بعيد ، قد يهوون فيها مئات السنين.

(10 ـ 11) أو تــدري ما الهاوية ، انها ليست مجــرد مهواة يسقط الإنسـان فيها فيمـوت ، وينتهي كل شـيء ، كلا .. انها النار المشتعلة.

(**وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ* نارٌ حامِيَةٌ**)

انها شـديدة الحـرارة ، حـتى أن نـار الـدنيا جـزء من سبعين جزء منها ، نستجير بالله منها.

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ : «**من قرأ سـورة التكاثر في فريضة كتب الله له ثواب أجر مائة شهيد ، ومن قرأها في نافلة كتب له ثواب خمسين شهيدا ، وصلّى معه في فريضة أربعون صفّا من الملائكة إنشاء الله**»

وفي أصول الكافي باسناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ من قرأ ألهاكم التكاثر عند النوم وقي فتنة القبر**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 660

الإطار العام

بين حاجة الإنسان وحرصه مسـافة كبـيرة ، وما يلهيه عن ذكر الله وعن المكـــــــارم ليست حاجته ، بل حرصه الذي يبعثه يحرضه على التكاثر في الأموال والأولاد ، حتى إذا زار قــبره لم ينفعه ماله وولــده شــيئا ، وحوسب على نعيم الله ، وتلاشى عنه ما يلهيه ، لأنه سوف يرى الجحيم عين اليقين. وهكذا تعالج السورة حالة التلهّي بالـدنيا عـبر التذكرة بالموت ثم العقاب والحساب

سورة التكاثر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(أَلْهاكُمُ التَّكـاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقـابِرَ (2) كَلاَّ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلاَّ لَـوْ
تَعْلَمُـــــونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَـــــرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ
لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْـــــــئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ
النَّعِيمِ (8))

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ

بينات من الآيات :

(1) جـاء في حـديث شـريف : «يا ابن آدم! إن كنت تريد من الـدنيا ما يكفيك فأيسر ما فيها يكفيك ، وإن كنت تريد ما لا يكفيك فكـــلّ ما فيها لا يكفيـــك» ، وجـــاء في حديث آخر عن النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ــ : «**يقول ابن آدم : مـالي مـالي ، ومالك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضـيت**» [1].

وهكذا الذي يسعى نحو إشـباع حرصه وطموحه يـزور قــبره قبل أن يحقق معشــار حرصه ، هل سـمعت بقصة أصــحاب البلايين؟ ألا فكــرت في ســبب اجتهــادهم في الحصــول على المزيد من حطــام الــدنيا وهم يملكـــون أضعاف ما قد يحتاجونه؟! انهم لا يزالون ـ حسب ظنّهم ــ في وسط الطريق ، لأنهم يبحثـــون دوما عن أعلى رقم ، والأرقام لا تنتهي ، وقد قـال لي أحـدهم : انه لا يحصي ما يملك ، وقال آخر : ان سبب

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 660.

جهده البالغ ليس الحصول على الثروة ، بل استباق غـيره فيها ، ولما سـألته : والى مـتى؟ قـال هنـاك دائما من هو أغنى مني ، فأنا في بحث دائم!

وهذا هو التكاثر الذي يستبد بمشاعر الإنسان ولا يـدع متّسعا للتفكير في الاخرة.

(**أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ**)

أي شغلكم الاهتمـام بالتكـاثر فأنسـاكم الاخـرة ، وقد اختلف المفسـرون في الـذي ألهـاهم هل هو المفـاخرة والمباهاة حسبما يأتي في بيان شأن الـنزول ، أم التجـارة والتشاغل بأمر المعاش حسبما جـاء في رواية ابن عبـاس عن النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ انه قـرأ : (**أَلْهـاكُمُ التَّكاثُرُ**) وقـال : «**التكـاثر : الأمـوال الـتي جمعها من غير حقّها ، ومنعها من حقها ، وشدّها في الاوعية**»[1].

يبـدو ان الـدافع النفسي إلى التكـاثر ، والتنـافس في الأموال والأولاد هو الذي ألهاهم ، سواء تجسد في السعي نحوهما أو في المباهـاة بهما ، لان هـذا الـدافع موجـود بالتالي هنا وهناك.

ولـذلك لا أجد تناقضا بين ما يظهر من معـنى اللفظ من التشاغل بالتجارة وبشـؤون الأولاد ، وما ذكر في قصة نـزول السـورة من المباهـاة والمفـاخرة بـذلك ، لأنهما يدخلان تحت عموم اللفظ ، وينتهيان إلى الدافع ذاته.

اما شأن النزول فإن المفسـرين اختلفـوا فيه كثـيرا ، مما يـدل على أن مـراد السـابقين من شـأن الـنزول أن السـورة تنطبق على ما يقولـون ، ولا تـدل بالضـرورة أنها نـزلت فيهم حقّا ، وهكـذا قـال بعضـهم : إنها نـزلت في اليهود ، حيث تفاخرت قبائلهم على بعضهم ، وقال البعض : بل في قبيلتين من الأنصـار ، وقـال ابن عبـاس : بل في حييّن

---

(1) المصدر / 662.

من قــريش وهما بنو عبد منــاف وبنو ســهم. وأضــاف : تعادوا وتكاثروا بالسادة والاشـراف في الإسـلام ، فقـال : كل حيّ منهم : نحن أكـثر سـيّدا ، وأعز عزيـزا ، فكـثر بنو عبد مناف سهما ، ثم تكـاثروا بـالأموات فكـثرتهم سـهم ، فـنزلت (**أَلْهـاكُمُ التَّكـاثُرُ**) بأحيـائكم ، فلم ترضـوا حـتى (**زُرْتُمُ الْمَقابِرَ**) مفتخرين بالأموات.

بلى. لا يــزال النــاس يفتخــرون بأمجــاد الغــابرين ، ويتكاثرون بمن أمسوا ترابا ، وكأنهم يغنون عنهم شيئا من أمور دينهم أو دنياهم ، هيهات. يقول الامام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وقد تلا هذه الآيات :

«**يا له مراما ما أبعده! وزورا ما أغفلـه! وخطـرا ما أفظعــــه! لقد اســــتخلوا منهم أيّ مــــدّكر ، وتناوشــوهم من مكــان بعيــد! أفبمصــارع آبــائهم يفخــرون ، أم بعديد الهلكى يتكــاثرون! يرتجعــون منهم أجسادا خوت ، وحركات سـكنت ، ولان يكونـوا عبرا أحق من أن يكونـوا مفتخـرا ، ولان يهبطـونهم جناب ذلّة أحجى من ان يقوموا بهم مقـام عـزّة لقد نظـروا إليهم بأبصـار العشـوة ، وضـربوا منهم في غمرة جهالة**» [1].

من عــبر التــاريخ ما ينقله الــرواة عن مصــير هــؤلاء المتكاثرين المتفاخرين ، يقول قتادة : كـانوا يقولـون نحن أكــثر من بــني فلان ، ونحن أعز من بــني فلان ، وهم كل يوم يتسـاقطون إلى آخـرهم ، والله ما زالـوا كـذلك حـتى صاروا من أهل القبور كلهم [2].

وكلمة أخيرة : إنّ الإنسان لا يـني يكـافح حـتى يـزداد مالا وولدا ، حـتى إذا انهـارت قـواه ، ولما يبلغ منـاه تـراه يتفـاخر بالغـابرين ، ويتكـاثر بأهل القبـور الباليـة. ما أكفر الإنسان ، وما أبعده في الضـلال! أفلا يعتـبر بمن هلك من قومه ، ويقول : اني من

(1) المصدر / ص 661 نقلا عن نهج البلاغة.
(2) القرطبي / ج 10 ص 169.

بعــدهم لهالك ، أفلا ارتــدع عن التلهي بالــدنيا ، وأنا وارد موردهم ، ونازل بمنازلهم.

(2) ويبقى الإنسان سادرا في غفلته ، لاهيا بالتنـافس على حطام الدنيا ، حتى يزور المقابر ، ليرى بيت الوحشة مظلما لم ينــوره بمصــابيح الصــلاح ، ولم يمهــده بحميد الفعال ، فلا ينفعه يومئذ مال ولا بنــون ، ولا يغنيه مجد ولا فخر.

جاء في الحـديث المـأثور عن الامـام الصـادق ـ عليه السلام ـ : «**إذا وضع الميت في قبره مثل له شــخص ، فقال له : يا هـذا! كنّا ثلاثة : كـان رزقك فـانقطع بانقطاع أجلك ، وكان أهلك فخلفوك وانصرفوا عنك ، وكنت عملك فبقيت معك ، أما إنّي كنت أهــــون الثلاثة عليك**» [1].

(**حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ**)

ولعل التعبير ب «حتى» للدلالة على ان التكاثر الـذي يضر بصاحبه هو الذي يتصل بالموت فلو تـاب صـاحبه من قبل نفعته توبته ، وللدلالة أيضا على أن التكاثر يبقى يلهي صـاحبه حـتى المـوت ، فعلينا ألّا نسترسل معه ، ولا ينظر بعضــــنا إلى ما أنعم الله على الاخر من أزواج وامــــوال وأولاد ، بل ينظر في أمــــور الــــدنيا إلى من دونه ، وفي شؤون الاخرة إلى من هو فوقه ، قال تعالى : (**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْـكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِـهِ أَزْواجـاً مِنْهُمْ زَهْـرَةَ الْحَيـاةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى**).

والسؤال : لماذا قال : (**زُرْتُمُ الْمَقـابِرَ**) أجـابوا : لان العرب يقولون لمن مات قد زار قـبره ، ويبـدو أن التعبـير يوحي أيضا بأن من يمـوت لا يفـنى ، إنّما ينتقل من عـالم لاخر فهو كالزائر.

---

(1) بحار الأنوار / ج 6 ص 265.

وقيل : ان معنى زيارة المقـابر : التفـاخر بـالأموات ، والتكاثر بعددهم ، حسبما سبق في بيـان نـزول السـورة ، وقلنا هناك : أن الاية تتسع لهذا المعنى أيضا ، ولـذلك ذكر بعض المفسرين أهمية زيـارة القبـور وانها تـذكر الإنسـان بـالموت ، وتزهـده في الـدنيا ، وذكـروا نصّـا مـأثورا عن رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ أنه قـال : «**كنت نهيتكم عن زيـارة القبـور ، فـزوروا القبـور ، فإنها تزهد في الدنيا ، وتذكّر الاخرة**» [1].

وقد حث الإسلام على ذكر الموت ، والـذي يتم بعضه بزيـارة القبـور ، حـتى جـاء في حـديث مـأثور عن الامـام الباقر ـ عليه السـلام ــ : «ما أكـثر ذكر المـوت إنسـان الا زهد في الـدنيا» [2] وحينما سـئل النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ـ عن أكيس المؤمنين من هو؟ قال ـ صـلّى الله عليه وآله ـ : «**أكثرهم ذكرا للموت ، وأشدّهم اسـتعدادا**» [3].

(3) والـذي يـردع النفس من التلهي بالتكـاثر خشـيته من لقاء ربه عند ما يزور قبره ، ويواجه عمله.

(**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**)

والعلم ينقض الشك ، كما ينقض الإنــــــذار التلهي ، وهذه الاية إنذار من رب العالمين بأن هـذا التكـاثر سـوف يعلم ان من جمعه لم ينفعه.

(4) ولان نزعة التكـــاثر عميقة النفـــاذ في النفس ، بالغة الأثر في قـــرار الإنســـان ، وما أهلك الإنســـان مثل الفخر ، ولا أضله مثل التكاثر ، لذلك عاد السياق وأكّد

(1) القرطبي / ج 20 ص 170.
(2) بحار الأنوار / ج 126.
(3) المصدر.

الإنذار تلو الإنذار.

(**ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**)

وعلى الإنسـان ان يشـتغل بإصـلاح نفسه عن لهو التكاثر بذكر الموت هادم اللذات ومفرق الجماعات ، حتى لا يفاجئه ملك الموت وهو لاه ساه.

وقد ذكر البعض : ان هـذه الاية مجـرد تأكيد للآية السـابقة ، بينما ذهب البعض الى أن هـذه الاية تـذكرنا بعذاب الاخرة ، بينما الاولى تنذر بعذاب الدنيا الذي يجـري حين الموت وبعده في القبر على امتداد أيام البرزخ وإلى حين يبعثـون ، وقد ورد نصّ مـأثور عن الامـام أمـير المؤمـنين ـ عليه السـلام ـ في ذلك ، حيث روى زر بن حـبيش عنه ، قـال : «ما زلنا نشك في عـذاب القـبر حـتى نـزلت (**أَلْهـاكُمُ التَّكاثُرُ**) الى قوله (**كَلَّا سَـوْفَ تَعْلَمُـونَ**) يريد في القـبر (**ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**) بعد البعث» [1].

وهكذا حذرنا أولياء الله من فتنة القـبر وعذابه ، فهـذا الامام علي بن أبي طـالب ـ عليه السـلام ـ يكتب لمحمد بن أبي بكر : «يا عباد اللـه! ما بعد المـوت ـ لمن لا يغفر له ـ أشـدّ من المـوت ، القـبر فاحـذروا ضـيقه وضـنكه وظلمته وغربته ، إن القبر يقول كل يوم : أنا بيت الغربة ، أنا بيت التراب ، انا بيت الوحشة ، أنا بيت الدود والهـوام. والقبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النـار. إن العبد المـؤمن إذا دفن قـالت له الأرض : مرحبا وأهلا ، قد كنت ممن أحب أن تمشي على ظهـري فـاذا ولّيتك فسـتعلم كيف صـنيعي بك ، فيتّسع له مـدّ البصر ، وأن الكـافر إذا دفن قـالت له الأرض : لا مرحبا بك ولا أهلا ، لقد كنت من أبغض من يمشي على ظهـري فـإذا ولّيتك فستعلم كيف صنيعي بك ، فتضمه حتى تلتقي

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 661.

أضلاعه» [1].

(5) لو علم الإنسـان ما يصـير اليه لما ألهـاه التكـاثر لان المعرفة تـورث الخشـية ، هكـذا قـال ربنا سـبحانه : (**إِنَّما يَخْشَـى اللـهَ مِنْ عِبـادِهِ الْعُلَمـاءُ**) ولكن حجب الشك والغفلة والشهوات تمنع عنه بصائر العلم واليقين.

(**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**)

إذا أسـلمت النفس البشـرية لهـدى الله آمنت ، وإذا طهـرت من الشـكوك والظنـون أوتيت اليقين ، ولليقين درجات ، وما أوتي الإنسان أشرف من اليقين ، هكذا جـاء في الحـديث المـأثور عن الامـام البـاقر ـ عليه السـلام ـ حيث قـال : «إنّما هو الإسـلام ، والايمـان فوقه بدرجة ، والتقوى فوق الايمان بدرجة ، واليقين فوق التقوى بدرجة ، ولم يقسم بين النـاس شـيء أقل من اليقين» قـال الـراوي : قلت : فـأي شـيء اليقين؟ قـال : «**التوكل على الله ، والتسـليم الله ، والرضا بقضـاء الله ، والتفويض إلى الله**» [2].

هكـذا جعل الامـام أسـمى درجـات الايمـان وأشـرفها اليقين ، مما يـدلّ على أن اليقين هو : طهـارة القلب من دنس الشرك والشك والظنـون ، وسـائر وسـاوس إبليس وهمزاته.

وجـاء في حـديث آخر تفسـير اليقين بـالتغلب على خوف المخلوق ، قـال الامـام الصـادق ـ عليه السـلام ـ : «ليس شيء إلّا وله حدّ» فقال الراوي : فما حدّ التوكـل؟ قال الامام ـ عليه السلام ـ : «اليقين» فقال السائل : فما حدّ اليقين؟

(1) بحار الأنوار / ج 6 ص 219.
(2) بحار الأنوار / ج 6 ص 218.

قال الامام ـ عليه السلام ـ : «**ألّا تخاف مع الله شيئا**» [1].

واليقين يجعل عمل المؤمن مقبـولا ، بل ويعظم ثوابه ، يقـول الامـام الصـادق ـ عليه السـلام ـ : «**ان العمل الـدائم القليل مع اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير اليقين**» [2].

أرأيت الـذي يصـلي وقلبه متصل بنـور الله ، ونفسه طاهرة من الرياء ، والعجب ، والاسـتكبار ، ويجاهد ، ونيته لله وحده ، كمن يصـلي وقلبه مليء بالوسـواس ، ويـزكي رياء ، ويجاهد للاستعلاء في الأرض؟!

لذلك كان أئمة الهدى ـ عليهم السـلام ـ يجـأرون إلى الله في طلب الزيـادة من اليقين ، ويحثّـون اتبـاعهم على مثل ذلك ، هكذا جاء في الحديث : كـان علي بن الحسـين (الامـام زين العابـدين عليه السـلام) يطيل القعـود بعد المغرب يسأل الله اليقين. [3]

وروي عن الامام أمير المؤمنين ـ عليه السـلام ـ انه قـال في خطبة له : «أيها النـاس! سـلوا الله اليقين ، وارغبوا اليه في العافية ، فـإن أجل النعمة العافية ، وخـير ما دام في القلب اليقين ، والمغبـون من غبن دينه ، والمغبوط من غبط يقينه» [4].

ولا يبلغ الإنسـان درجة اليقين الا بعد العـروج في درجـات التسـليم والايمـان والتقـوى وكلها تقتضي المزيد من العمل الصالح والخالص لوجه الله والمنبث على سائر جوارح البدن ، وجوانح النفس ، وحـتى بعد الحصـول على اليقين عليه ان يسـعى جاهـدا حـتى يتجـاوز عقد الشك والارتياب بالتفكر والتعلم والدعاء. الا ترى كيف

---

(1) المصدر / ج 70 ص 142.
(2) المصدر / ص 147.
(3) المصدر / ص 176.
(4) المصدر.

سعى إبـراهيم نحو اليقين حين سـأله ربه سـبحانه قـائلا : «**رَبِّ أَرِنِي كَيْـفَ تُحْيِ الْمَـوْتى**». فلما قـال له ربه : «**أَوَلَمْ تُـؤْمِنْ قـالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**». ولم يكن في قلبه ذرة شك ولكنه حسب حـديث مـأثور عن الامام الرضا ـ عليه السلام ـ «**أراد من الله الزيادة في يقينه**» [1].

وعلامة صـدق اليقين دوام الاسـتقامة على صـراط الحق ، وألّا يتخذ الإنسـان وليجة من دون الله ورسـوله ، ويكون مستعدّا لكلّ تضـحية وفي كل موقـع. اولا سـمعت قصة الاعرابي الذي جاء إلى رسول الله وقال : يا رسـول الله بـايعني على الإسـلام فقـال له الرسـول ـ صـلّى الله عليه وآله ـ :

«**على ان تقتل أباك**».

فكفّ الاعرابي يـده ، واقبل رسـول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ـ على القوم يحدثهم.

وقد بين بعضهم درجات اليقين حسب فهمه بثلاث :

(الـف) : علم اليقين ، وضـرب مثلا له كمن يعلم بوجود النار لما يراه من ضوئها أو دخانها.

(بـاء) : حق اليقين ومثله كمن يـرى النـار بعينه مشاهدة.

(جيم) : عين اليقين مثل الـذي يلامس النـار فيحس حرارتها.

وهذا ـ حسبما يبدو لي ـ مجرد أمثلة ، وإلّا فقد يكـون يقين من يعلم بوجود النـار بسـبب علائمها أشد من الـذي يلامسها ؛ لان قلبه أوعى لحقيقتها من صاحبه. أرأيت

---

(1) المصدر / ص 177.

الطبيب قد يكون أفقه بحالة المـريض وخصـائص دائه من المـريض ذاته ، ولـذلك جـاء في الحـديث : «**رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**» [1] ولا ريب ان هنـاك في المسلمين الأواخر من كان أشد يقينا بصـدق الرسـالة من بعض الذين عاصروا النبي وصـاحبوه ، كل ذلك لان اليقين ليس مجـــرد علم بل روح في القلب ، تجعله يطمئن الى العلم ويسكن اليه ، كما الايمـان والتقـوى ، وبتعبـير آخر : ان اليقين ـ كما قلنا في بداية الحديث ـ نقطة التقاء العلم بالإرادة ، كما أن الايمان : التسليم والإذعان للعلم ، وعزم وعقد عزمات القلب على قبول مشاهدات العلم مهما بلغ الثمن ، وهذا لا يكون بمجرد ظهور آيات الحقيقة للنفس ، بل وأيضا بتصـديق النفس لها ، والسـكون إليها ، ولـذلك يكون يقين المؤمن بالغيب أشد من علم الكافر بالشهود ، ويبلغ اليقين ببعضهم حدّا يعايشون الغيب بكل جوارحهم ، ويقول أميرهم الامـام عليّ ــ عليه السـلام ــ : «**والله لو كشف الغطاء لما ازددت يقينا**» [2]

ويقول في صفة المؤمـنين : «**فهم والجنة كمن قد راها فهم فيها منعمـون ، وهم والنـار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون**» [3].

جاء في الكافي ، عن محمّد بن يحـيى ، عن أحمد بن محمّد ؛ وعليّ ، عن أبيه ، عن ابن محبـــــوب ، عن أبي محمّد الوابشي وإبراهيم بن مهزم ، عن إسحاق بن عمّـار قال : سـمعت أبا عبد الله ــ عليه السـلام ــ يقـول : «إنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ــ صـلّى بالنـاس الصـبّح فنظر إلى شـاب في المسـجد وهو يخفق ويهـوي برأسه ، مصفرا لونه ، قد نحف جسمه ، وغارت عينـاه في رأسه ، فقال له رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ كيف أصـبحت يا فلان؟ قـال : أصـبحت يا رسـول اللـه! موقنا ، فعجب رسول الله من قوله ، وقال له : إنّ لكلّ يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟

---

(1) أصول الكافي ج 1 ص 403.
(2) غرر الحكم ودرر الكلم ص 603.
(3) نهج البلاغة خ 193 ص 303.

فقال : إنّ يقيني يا رسول الله هو الّذي أحزنـني ، وأسـهر ليلي وأظمأ هواجري ، فعـزفت نفسي عن الـدّنيا وما فيها حتّى كـأنّي أنظر إلى عــرش ربّي وقد نصب للحســاب ، وحشر الخلايق لــذلك ، وأنا فيهم ، وكــأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون على الأرائك متّكئون ، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معـذّبون مصـطرخون ، وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ هذا عبد نورّ الله قلبه بالايمان ، ثمّ قال له : الزم ما أنت عليه ، فقــال الشــاب : ادع الله لي يا رســول الله أن ارزق الشــهادة معك ، فدعا له رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ فلم يلبث أن خـرج في بعض غـزوات النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ـ فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر» [1]

(6) ان الكافر ليرى الجحيم بعينه ، يلامسـها بجوارحه ، فيعلم يقينا أنه مواقعها ، وأنه كان في ضلال عنها مبين ، بينما المؤمن يعي وجـود النـار ، ويشـاهدها ببصـائر قلبه ، فيعلم يقينا بها.

(**لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ**)

(7) أو ليس الاحجى بنا والأحــرى أن نـؤمن بها ونحن بعيدون عنها ، وقبل أن نردها ثم لا نصدر منها؟!

(**ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ**)

قالوا : ان الاية تشـير إلى أن كل البشر يـردون النـار أو يمرون عليهـا. لقوله سـبحانه : (**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا**).

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 70 ص 159.

فيمر عليها بعضهم كالبرق ، وبعضهم كالريح وبعضـهم كالطير ، ويتباطأ بعضهم بذنوبه حـتى يحـترق بنارها قليلا ، وبينما يغط بعضـهم فيها ويمكث المـذنب فيها بقـدر ذنبه ، قبل ان يتطهر كليّا ويــدخل الجنة ، ومنهم الخالــدون فيها أبدا والعياذ بالله.

(8) لكي لا يلهينا عن الاخرة التكـاثر بحطـام الـدنيا لا بد ان نعرف أننا مسئولون يومئذ عن النعيم ، وكلما زادت نعم الله علينا طال وقوفنا للحســاب عند ربنا ، فهل نملك الجواب الصواب؟!

يقـال : ان النـبي سـليمان يختلف عن إخوانه الأنبيـاء الف عـام يوقف للحسـاب ، يسـأل عن ملكه ونعيمه بينما هم يتنعمون في الجنة.

قـالت امّ كلثـوم بنت أمـير المؤمـنين ــ صـلوات الله عليه ــ : لمّا كـانت ليلة تسع عشــرة من شــهر رمضــان قدّمت إليه عند إفطاره طبقا فيه قرصان من خبز الشعير ، وقصـعة فيها لبن وملح جـريش ، فلمّا فـرغ من صـلاته أقبل على فطـــوره ، فلمّا نظر إليه وتأمّله حـــرّك رأسه وبكى بكاء شديدا عاليا ، وقال : «يا بنيّة! ما ظننت أنّ بنتا تسوء أباها كما قد أسأت أنت إليّ» قالت : وماذا يا أبـاه؟ قـال : «يا بنيّـة! أتقـدّمين إلى أبيك إدامين في فـرد طبق واحد؟ أتريـدين أن يطـول وقـوفي غـدا بين يـدي الله عـزّ وجـلّ يـوم القيامة أنا أريد أن أتّبع أخي وابن عمّي رسـول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ما قـدّم إليه إدامـان في طبق واحد إلى أن قبضه الله ، يا بنيّـــة! ما من رجل طـــــاب مطعمه ومشربه وملبسه إلّا طال وقوفه بين يدي الله عزّ وجل يوم القيامة ، يا بنيّة إنّ الدنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وقد أخبرني حبيبي رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله ــ أنّ جبرئيل ــ عليه السـلام ــ نـزل إليه ومعه مفـاتيح كنـوز الأرض وقـال : يا محمّـد! السـلام يقـرؤك السـلام ويقـول لك : إن شـئت صـيّرت معك جبـال تهامة ذهبا وفضّة ، وخذ هذه مفاتيح كنوز الأرض ولا

ينقص ذلك من حظّك يـوم القيامة ، قـال : يا جبرئيل وما يكون بعد ذلك؟ قال : الموت ، فقال : إذا لا حاجة لي في الدّنيا ، دعني أجوع يوما وأشبع يوما ، فـاليوم الّـذي أجـوع فيه أتضرّع إلى ربّي وأسأله ، واليوم الّذي أشبع فيه أشكر ربّي وأحمـــده ، فقــال له جبرئيل : وفّقت لكــلّ خـــير يا محمّد».

ثمّ قال عليه السلام : «يا بنيّـة! الـدنيا دار غـرور ودار هوان ، فمن قدّم شيئا وجـده ، يا بنيـة! والله لا آكل شـيئا حتّى ترفعين أحد الإدامين» فلمّا رفعته تقدّم إلى الطعـام فأكل قرصا واحـدا بـالملح الجـريش ، ثمّ حمد الله وأثـنى عليه ، ثمّ قام إلى صلاته فصلّى ... [1].

ولو وعى الإنسان هذه الحقيقة كبح شهوة التكاثر في نفسه ، ولم يدع هذه الحالة تلهيه عن ذكر الله.

(**ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**)

ما هو النعيم؟ اختلف المفســــــرون ، بل واختلفت النصـــوص ، ويبـــدو أن الكلمة تتسع لكل الأقـــوال ولو بدرجات مختلفة ، فقد ينفي نص أن يكون طعام الإنســان وشرابه مما يسئل عنه يوم القيامة ، فقد جـاء في مجادلة الامام الصادق (ع) مع أبي حنيفة :

قـال أبو حنيفة : أخـبرني جعلت فـداك عن قـول الله عزّ وجلّ : (**ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**) قال «فما هو عنـدك يا أبا حنيفـة؟» قـال : الأمن في السـرب ، وصـحّة البدن ، والقوت الحاضـر. [2] فقـال : «**يا أبا حنيفـة! لئن وقفك الله أو أوقفك يـوم القيامة حتّى يسـألك عن كلّ أكلة أكلتها وشربة شربتها ليطولنّ وقوفك**».

قال : فما النعيم جعلت فداك؟ قـال : النعيم : «**نحن الّذين أنقذ الله الناس بنا**

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 42 ص 276.

(2) المصدر ج 10 ص 209.

من الضـلالة ، وبصّـرهم بنا من العمى ، وعلّمهم بنا من الجهل» قال : جعلت فداك فكيف كان القرآن جديدا أبــدا؟ قــال : «لانّه لم يجعل لزمــان دون زمــان فتخلقه الايّام ، ولو كان كـذلك لفـنى القـرآن قبل فنـاء العـالم» ، بينما يثبت ذلك نص آخر ، فما هو تفسير اختلاف النصين؟ يبدو ان أحدهما ينفي المسؤولية بمعنى العقاب بينما يثبت الثاني السـؤال. أو ان الاول ينفي التشـديد في السـؤال ، بينما الثـاني يثبت السـؤال. ويـدل على ذلك ما جـاء في الحديث المأثور عن النبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ : «**كل نعيم مسئول عنه صاحبه إلّا ما كان في غزو أو حجّ**»[1].

ونعـود ونتسـاءل : عمـاذا يسـأل العبد يـوم القيامـة؟ بلى. انه يسأل عن طعامه من اين اكتسبه وكيف صـرفه ، وفي حديث مفصّل قال النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ لابي بكر وعمر «والــذي نفسي بيــده لتسـألن عن نعيم هــذا اليوم. يوم القيامة» وكانا قد خرجا جائعين فصاحبا رسول الله الى ضيافة مالك بن التيهان ـ أحد الأنصار ـ فـأكرمهم بقراه فقال لهما الرسول ذلك ، وأضاف : «**أخـرجكم من بيـوتكم الجـوع ، ثم لم ترجعـوا حـتى أصـابكم هـذا النعيم**» [2].

وروي عن الامــام أمــير المؤمــنين عليه السـلام في تفســير النعيم ، أنه قــال : «**النعيم : الــرطب والمــاء البارد**» [3].

كما يسـأل المــرء عن مجمل ماله من اين اكتســبه وفيم صـرفه ، هكـذا في الأحـاديث المـأثورة : يسـأله عن شبابه فيما أفنـاه ، وماله فيما أنفقه ، وعن أمنه وعافيتـه. أليست الصحة نعمة كبيرة وجاء في الحـديث عن النـبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «**نعمتان**

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 665.
(2) القرطبي / ج 20 ص 175.
(3) تفسير نمونه / ج 27 ص 286.

مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» [1].

وفي نص معـروف : «**نعمتـان مجهولتـان الصـحة والامان**»

وعن جاهه عند النـاس : فقد جـاء في الحـديث عن رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ : «**إذا كـان يـوم القيامة دعا الله بعبد من عبـاده فيوقفه بين يديه ، فيسأله عن جاهه ، كما يسأل عن ماله**» [2].

ولكن أعظم نعمة يسـأل العبد عنها يـوم القيامة هي نعمة الهداية والـتي تتجلى في الرسـالة وفي الرسـول وفيمن استخلفه الرسول من أئمة الهدى ، أو ليست نعمة الرسالة هي التي منّ الله بها على عباده إذ قـال : «**لَقَـدْ مَنَّ اللـهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ**».

وقـال : «**يَمُنُّونَ عَلَيْـكَ أَنْ أَسْـلَمُوا قُـلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْـلامَكُمْ بَـلِ اللـهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَـداكُمْ لِلْإِيمانِ**».

وهكذا كـانت ولاية أئمة الهـدى أعظم مصـداق للنعيم المسؤول عنها يوم القيامة ، وبذلك استفاضت النصوص ـ مثل الحديث المأثور عن الامام الرضا عليه السلام ــ قـال له بعض الفقهـاء : يقـول الله عز وجل : (**ثُمَّ لَتُسْـئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**) أما هـذه النعيم في الـدنيا وهو المـاء البارد.

فقـال له الرضا (عليه السـلام) وعلا صـوته : «كـذا فسرتموه أنتم ، وجعلتموه على ضروب ، فقـالت طائفة : هو الماء البارد ، وقال غيرهم : هو الطعام الطيب ، وقـال آخـرون : هو طيب النـوم» ثم نقل الامـام الرضا عليه السـلام حـديثا عن آبائه ، جـاء فيه : «ان الله عز وجل لا يسأل عباده عما تفضل عليهم به» ثم قال : «ولكن

(1) القرطبي / ج 20 ص 177.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 664 وهناك نصوص اخرى في هذا الحقل

النعيم حبّنا أهل البيت ، وموالاتنا يسأل الله عنه بعد التوحيد والنبوة ، لان العبد إذا وفي بذلك أدّاه إلى نعيم الجنة الذي لا يزول» ثم نقل الامام الرضا ـ عليه السلام ـ حديثا عن آبائه عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ صريحا في هذا التفسير.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ قال : «**من قـــــرأ والعصر في نوافله بعثه الله يــــــوم القيامة مشـرقا وجهه ، ضـاحكا سـنّه ، قريـرا عينه ، حـتى يدخل الجنّة**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 / ص 666

الإطار العام

لكي يتبصر الإنسان واقع الزمن ، وكيف يهـدم عمـره لحظة بلحظة ، ثم لكي يعــرف بمــاذا يقــاوم خســرانه ، جــاءت ســورة العصر عصــارة لبصــائر الــذكر في هــذا الموضوع الاساسي ، الذي لو وعـاه الإنســان وعى حقيقة عمره ، وحقائق العالم المحيط به.

قسما بالزمن ، إنك لو لا الايمـان في خســران ، وكل لحظة لا إيمان فيها ولا عمل صالح جزء ضـائع من كيانك ، ولكن الإنســان في غفلة عن هـذا العـدو الخطـير ، بيد أن المؤمنين يذكّر بعضهم بعضا ويوصي بعضهم بعضا.

سورة العصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**وَالْعَصْــــرِ (1) إِنَّ الْإِنْســـانَ لَفِي خُسْـــرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ وَتَواصَــوْا بِــالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3)**)

وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ

بينات من الآيات :

(1) يـزعم الإنسـان أنّه كلّما طـال عمـره كـبر وزاد ، بينما الحقيقة عكس ذلك تماما ، فكلما مضى من عمــــره شطر اقترب منه أجله ، وتنـاقص رأسـمال حياته ، ونقص ما تبقّى منه ، فزيادة المرء ـ إذا ـ في دنياه نقصـان ، وهو كبائع الثلج في يوم قائض يفقد رأسماله كلّ لحظة.

هكذا يحلف القرآن بالعصر ويقول :

(**وَالْعَصْرِ**)

قـال ابن عبـاس : انه قسم بالـدهر ، ويبـدو لي : ان أقرب العصور هو عصر أنت فيه ، وأشرفها عصر الرسالة حين انبعث النـــبي به ، وعصر العدالة حين يقــوم الحجة القائم به.

وقال بعضهم : إنما سـمي الـزمن بالعصر لأنه يعتصر الإنسان كما يعصر المرء غسيله ، وأن القسم بالـدهر إنما كـان بلحـاظ عصـره للإنسـان ، وأنّى كـان فـإن الحلف به يتناسب والموضوع التالي : اي خسـارة الإنسـان لعمـره ، أو ليس الزمن هو سبب الخسارة؟

(2) لو عــرف الإنســان كيف تتبــدل خلايا جســده ، وكيف يســتهلك كل يــوم آلاف الخلايا من مخه ، دون ان يسـتعيض عنها شـيئا ، وكيف تتسـارع ما حوله من أشـياء في سـبيل الفنـاء ، حـتى الـبيت الـذي يسـكنه يسـتهلك بسرعة لا يتصورها.

لو عرف الإنسان أن عمره بالقيـاس إلى عمر الأرض التي يعيش اليـوم عليها ثم ينـام في رحمها يكـاد لا يكـون شــيئا مــذكورا. إنه أقصر من نســيم يهب عليه في يــوم قــائض ، وأســرع من ســحابة في يــوم عاصف ، بل انه كالبرق الخاطف أو كخيال عابر.

لو عـرف ان كل لحظة من عمـره مسـئولية كبـيرة ، فإما هي خطوة الى الجنة أو سقطة في النار.

لو عـرف ذلك كله لاصـلح نفسـه. ولما ضـيّع نفسـه. ولما ضيّع من عمره شيئا. لأنه في خسارة لولا الايمان.

(**إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ**)

يحيط به الخسر كما تحيط بالإنســـان الـــدار. وأية خسارة أعظم من أن يفقد كل يوم جزء من عمـره وجـزء من رأسماله ، وبالتالي جزء من ذاته. أليست ذاته ممتـدة على أيام حياته ، فاذا مضى يوم فقد انقضى بعض ذاته.

يقول الامام علي عليه السلام :

«من كـانت مطيته الليل والنهـار يسـار به وإن كان واقفا» [1].

ولذلك يقول الشاعر :

ولن يلبث العصـران يـوم وليلة إذا طلبا ان يـدركا ما تيمّما

(3) حينما يعي المـؤمن هـذه الحقيقة يبـادر بالعمل الصالح حـتى يسـتوعب كل لحظة وكل لمحة وكل سـعرة حياتية من حياته بما يحول الخسار فلاحا وأملا ، فـان أتعبه الكفـاح من أجل العيش اسـتراح الى الصـلاة ليـتزود منها الحيوية ، وإذا ارهق عضـلاته الجهد البـدني اشـغل لسـانه بالشكر ، وقلبه بالفكر ، ونفسه بالحب والشوق الى لقـاء ربه ، وقد ترى أعضـاءه غارقة في جهد بـدني يفلح الأرض ، أو يسـعى على مناكبها طلبا للـرزق ، أو يسـخر ما فيها لتوفـير العيش وفي ذات الـوقت تجد قلبه في ذكر الله ، والتدبر في آياته ، ولسانه يلهج بحبّ الله.

انه متعدد الابعاد ، واسع النشاط ، عـريض الطمـوح ، سامي الهمّة ؛ لأنه قد وعى حقيقة الزمن ، وتـزود بسـلاح تحدّيه عبر العمل الصالح.

(**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ**)

ولكن تيـار الـزمن ، وشـهوات النفس ، وعـادات المجتمع يضـغط عليهم باتجـاه الغفلة والكسل ، فكيف يعالج المؤمنون هـذه الظـاهرة؟ انما بتكـوين بيئة رشـيدة تحيط بهم؟ ولا تـدعهم يخلـدون الى الراحة والكسـل. أو تدري كيف؟ بتطبيق التواصي.

(**وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ**)

ان الكبـير يوصي الصـغير ، والصـغير بـدوره يوصي الكبير ، والعالم يوصي الجاهل ،

---

(1) نهج البلاغة / ك 31 ص 400.

والجاهل أيضا يوصي العالم .. وهـذا المبـدء يتسع لفريضة الأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر ، كما يتسع لـــواجب الـــدعوة الى الله ، وتبليغ رســـالاته ، وإرشـــاد الجاهل .. ويتسع للمزيد.

ذلك أن التواصي : ومضة روح ، واشـــــــــراقة أمل ، وعتـــاب لطيــف. إنه يصـــنع جـــوّا إيمانيا يســـاعدك على ممارسة واجباتـك. انه يوجه حسّ التوافق الاجتمـاعي في الاتجاه الصحيح.

والتواصي يكون بالحق وبالصبر ، فما هما؟

ان معرفة الحق بحاجة الى مسـاعدة الصـالحين فهم يرشدونك اليه ، ويرفعون الغمـوض الـذي يسـببه دعايـات الضــــالين. وإذا تناقضت المـــــذاهب ، واختلفت الآراء ، وتشـابهت عليك الأفكـار هنـاك لا بد من إرشـاد العلمـاء الصالحين والمؤمنين الواعين وتواصيهم بالحق.

فاذا عرفت الحق ، كـان الوقـوف الى جانبه والـدفاع عنه والاستقامة عليه بحاجة الى صــبر عظيم ، يتواصى به المؤمنون حتى لا ينهار بعضهم أمام شدائد الزمن.

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله ــ عليه السـلام ــ قـال : «**من قـرأ ويل لكل همزة في فريضة من فـرائض الله بعد عنه الفقر ، وجلب عليه الـــــرزق ، ويـــــدفع عنه ميتة السوء**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 667

الإطار العام

في تسع آيـات مباركـات تـبين سـورة الهمـزة حالة المتكـبر الخاسر الـتي تخـالف المـؤمن المتواصي بـالحق والصبر ، حيث تتجلى صفة الخسـارة ، فمن يـزعم أنه قد ربح الـدنيا يجمع مالها وتعـدادها. والاسـتكبار على النـاس بهمزهم ولمزهم ، وأيّة خسـارة أعظم من نبـذه في النـار تحطم عظامه ، أو ليست تتقد وتتطلع على الافئـــدة؟ إنها حقًّا سجن مغلق في صورة أعمدة ممددة.

سورة الهمزة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ
(2) يَحْسَــــبُ أَنَّ مالَــــهُ أَخْلَــــدَهُ (3) كَلاَّ لَيُنْبَــــذَنَّ فِي
الْحُطَمَــةِ (4) وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَــةُ (5) نــارُ اللــهِ
الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّها عَلَيْهِمْ
مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9))

بينات من الآيات :

(1) كما صـفات الخـير تتـداعى صـفات السـوء في أصحابها ، لانّها تنبعث من جذر واحد ، وهكذا تـرى القـرآن الكـريم يـذكرها معا ، لكي نعـرف النـاس ونقيّمهم على مجمل سـلوكهم وليس ببعض ما تبـدر منهم من صـفات شاردة وشاذة.

إنّه الويل واللعنة لكـلّ أولئك الـذين يهمـزون النـاس في وجوههم علوّا في الأرض واستكبارا ، ويلمزونهم ـ إذا غـابوا عنهم ـ إفسـادا في الأرض وفتنة ، لا فـرق بين من يتجـاهر منهم بـالكفر أو يـدّعي الايمـان ، فليست هـذه صـفات المؤمـنين ، وليست بين الله وبين أحد من خلقه صـلة قرابة أو رحم يمنعه عن عقابه بمثل هـذه الأفعـال الاجرامية.

(**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**)

قالوا : معـنى الويل الخـزي والعـار ، وقـالوا : إنه واد في جهنم ، ولا تناقض بينهما.

وقالوا : أصل الهمز الدفع أو الكسر ، يقـال : همـزت الجوز بكفّي أي كسرته ،

وقيل لاعرابي : أتهمـزون (الفـارة) اي هل تجعلـون فـوق ألف لفظة الفــارة همــزة وتقرأونها فــأرة. فقــال : إنما تهمزها الهـرّة ، اي الهـرة تكسر الفـأرة وتأكلها ، ومن هنا انشدوا لشاعر قوله :

ومن همزنا رأسه تهشّما

وانه هنا يعـني أن يطعن المـرء في وجهه ، وانشــدوا لحسان قوله :

همزتك فاختضــعت بـــذلّ نفس | بقافية تـــأجّج كالشـــواظ

وقال بعضـهم : ان الهمز هو الاغتيـاب بـالقول ، بينما اللّمز : هو الاغتياب بالاشارة ، وانهما معا بالتالي نــوع من الحديث عن غائب ، وانشدوا لشاعر قوله :

تدلّى بودّي إذا لاقيتني كذبا | وإن أغيّب فـــأنت الهـــامز اللمـــــــــــــــــــــزة

اما اللمز فقال بعضهم : إنه الاغتياب ، أو ذكر معـايب الناس ، والمشيء بالنميمة.

ويبـــدو أن الهمز أشد من اللمز ، فـــاذا كـــان الهمز بالوجه فـاللمز بالغيبة ، وان كـان الهمز بـالنطق فـاللمز بالاشارة ، وإذا كـان الهمز يهـدف العلو في الأرض ، فـان اللمز يبقي الفســاد فيهـا. الاول ســمة التكــبر والتجــبر ، والثـاني علامة المكر والاحتيـال ، وقطع الأرحـام ، واثـارة الفتن.

وجاء في الحديث المأثور عن النبي ـ صــلّى الله عليه وآله ــ : «**شــرار عبــاد الله : المشّــاؤون بالنّميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبراء العيب**» [(1)].

(2) هــؤلاء الهمــازون اللمــازون يحســون بنقص في أنفسهم ، حيث جاء في

---

(1) القرطبي ج 20 ص 181.

الحديث المأثور عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «أذلّ الناس من أهان الناس» [1].

وهـذا الاحسـاس يجعلهم يسـتكبرون على النـاس ، ويبحثون عما يجـبر نقص أنفسـهم بجمع المـال وتعـداده ، والافتخار به ، والتعالي على الناس بسببه.

(**الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ**)

يبـدو ان معـنى «عـدّده» أحصـاه وعـدّده المـرة بعد الاخـرى مباهـاة به ، واعتمـادا عليه ، ولكي يـرى هل بلغ مسـتوى طموحه أم لا؟ أرايت الأطفـال كيف يحسـبون دراهمهم باستمرار فرحا وفخرا.

(3) ما الذي يبعثه نحو جمع المـال وعـده؟ هل مجـرد المباهاة به. والاسـتكبار عـبره على الآخـرين؟ لا بل وأيضا رغبة جامحة في الخلود ، تلك الرغبة التي كانت وراء أكل أبينا آدم ـ عليه السـلام ـ من الشـجرة المحرمة ، تلك الرغبة التي تدفع الملـوك لبسط سـلطانهم والبطش بمن يخـالفهم ، وتلك الرغبة الـتي تبعثنا نحو أكـثر أفعالنا وأعمالنا.

ولكن هل المال يخلد الإنسان في الدنيا؟ هيهات.

(**يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ**)

فأين قارون بكنوزه التي أرهقت مفاتحه الأشـداء من الرجال؟! واين فرعـون الـذي اسـتبد بملك مصر ، وافتخر بالانهر التي تجري من تحته؟! واين القياصرة والاكاسرة؟! اين من ملك مليـارات الـدولارات؟! كلهم أحبـوا البقـاء وولهوا

(1) تفسير نمونه نقلا عن موسوعة البحار ج 7 ص 142.

بـالخلود ، ولكنهم لم يحملـوا معهم الى قبـورهم سـوى الكفن ، وذهبوا الى غير رجعة.

(4) تنعم الآخـرون بجهـدهم ، بينما هم يعـودون إلى ربهم محاسـبون على كل درهم درهم من أمـوالهم ، من اين اكتسبوه وفيم صرفوه.

(**كَلَّا**)

لا يخلّد المـال أحـدا ، بل قد يعجل في وفاته ، وإننا نسمع كـلّ يـوم عن بعض المعمـرين الـذين تجـاوزا المائة عام فلا نجد فيهم الا عادة البسطاء من الناس ، ولو كانت الـثروة سـببا للخلـود لكـانت أعمـار النـاس تقـاس بقـدر أموالهم بينما قد نجد العكس.

ثم إن جمع المـال بكميّة كبـيرة لا يكـون الا بـالحرام مما يجعل صاحبه أكبر خاسر ، يجمع المال بكـدح بـالغ ثم يكون وبالا عليه ، جاء في الحديث المأثور عن الامام علي بن موسى الرضا ـ عليه السلام ـ : «لا **يجتمع المـال الا بخمس خصـال : بخل شـديد. وأمل طويل ، وحـرص غالب ، وقطيعة رحم ، وإيثار الدنيا على الاخرة**» [1].

(**لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ**)

لقد أهانوا الناس بهمـزهم ، وسـخروا منهم بلمـزهم ، فاليوم يلقون نبذا في نار جهنم التي تحطمهم.

(5) وهل تـدري ما هي الحطمـة؟ اننا نعـرف أن التحطيم من شأن ارتطام شـيء خشن بمثله ، بينما النـار سيالة فكيف تحطم؟

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 668.

(**وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ**)

ان علم البشر بحقائق الاخرة محدود جـدّا ، وعليه ان يتزود بمقاييس جديدة ليعرف ابعاد الحقائق فيها.

(6) مثلا النـار ذات طبيعة سـيالة في الـدنيا لأنها هنا مخففّة سبعين مرة عنها هناك ، أما نـار الله الـتي أوقـدها جبّار السموات والأرض تجليا لغضبه فانها ـ حسبما يبـدو ـ تتفجر وتفجّر مما تجعل كل شيء فيها عظيما.

(**نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ**)

وكفى بك أن تعــرف أنها نـــار الله بعظمته وجلاله ، وشــديد ســطواته ، وعــريض كبريائه ، ونســبتها الى الله بسـبب أن ربها هو الـذي أوقـدها ، ولعل إيقـاد النـار غـير إشعالها ، بل الهابها وتشديدها ، قـالوا : ان الله عز اسـمه قد أوقد عليها ألف عـام ، وألف عـام ، وألف عـام حـتى اسودت ، انتظارا لأعداء الله. أعاذنا الله منها.

(7) ولشـدة النـار تراها تطّلع على الافئـدة أن تحـرق الجلـود واللحم والعظـام ، قـالوا : فـاذا بلغت الفـؤاد عـاد إليهم جلودهم واللحم والعظام ، فيعذبون من جديد.

(**الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**)

قـــال بعضـــهم : ان نـــار جهنم تتجه رأسا الى لب الإنسان فتحرقه ، وقال بعضهم : بل انها شاعرة ، تعـرف ماذا في قلوب المجـرمين فتعـذبهم بقـدر ما فيها من كفر ونكد.

(8) وبعد ان ينبـــذوا في نـــار جهنم تطبق عليهم ، وتوصد أبوابها ، فلا روح ، ولا نســـيم ، ولا شـــكوى ، ولا كلام. انما هي شهيق ، وزفير ، وآهـات ، وأنّـات ، وعـذاب شديد.

(**إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ**)

اي مطبقة عليهم مغلقة أبوابها.

(9) جاء في الحديث المأثور عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : ثم إن الله يبعث إليهم ملائكة بأطباق من نار ، ومسامير من نار ، وعمد من نار ، فتطبق عليهم بتلك الاطباق ، وتشدّ عليهم بتلك المسامير ، وتمد بتلك العمد ، فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح ، ولا يخرج منه غم ، وينساهم الرحمن على عرشه ، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم ، ولا يستغيثون بعدها أبدا ، وينقطع الكلام ، فيكون كلامهم زفيرا وشهيقا ، فذلك قوله تعالى : (**إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ**) [1].

(**فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ**)

اختلفوا في هذه العمد الممدة ماذا تكون؟

هل هي أغلال في أعناقهم ، أم قيود في أرجلهم ، أم هي الأوتاد التي تشد الاطباق بها أم ماذا؟ وقال بعضهم : انها كناية عن الدهر. فهي في دهور متطاولة وقال ابو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد ، وهو أصل للبناء مثل العماد.

ويحتمل ان تكون في النار أسطوانات يدخل أهلها فيها ، فهم في هذه العمد أي وسطها والله العالم.

وانى كان فان نهاية فظيعة تنتظر كل مستكبر في الأرض ، هماز لماز ، ولكي لا يغرنا الشيطان بما نملك من أموال وبنين نقرأ معا حديثا مفصلا عن الامام الباقر ـ عليه السلام ـ يحذرنا بما في النار من عذاب رهيب ، ونكتفي بذكر بعض مقاطع

---

(1) القرطبي ج 20 ص 186.

الحديث اختصارا.

ويغضب الحي القيــوم فيقــول : يا مالــك! قل لهم : ذوقـوا فلن نزيـدكم الا عـذابا ، يا ملـك! سـعرّ سـعرّ فقد اشـتد غضـبي على من شـتمني على عرشي ، واسـتخف بحقّي ، وانا الملك الجبّار ، فينـادي مالك : يا أهل الضـلال والاســتكبار والنعمة في دار الــدنيا! كيف تجــدون مس سـقر؟! فيقولــون : قد أنضـجت قلوبنا ، وأكلت لحومنا ، وحطّمت عظامنا ، فليس لنا مســــتغيث ، ولا لنا معين ، فيقول مالك : وعزة ربي لا أزيدكم الّا عـذابا ، فيقولـون : إن عذبنا ربنا لم يظلمنا شيئا ، فيقول مالك : «**فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ**» يعني بعـدا لأصـحاب السعير ، ثم يغضب الجبار فيقول : يا مالك! سـعرّ سـعرّ ، فيغضب مالك ، فيبعث عليهم ســحابة ســوداء يظل أهل النــار كلّهم ، ثم ينــاديهم ـــ فيســمعها أولهم وآخــرهم ، وأفضلهم وأدناهم ـ فيقـول : مـاذا تريـدون ان أمطـركم؟ فيقولـون : المـاء البـارد ، وا عطشـاه! وأطـول هوانـاه! فيمطرهم حجـارة وكلاليبا وخطاطيفا ، وغسـلينا ، وديـدانا من نـار ، فينضج وجـوههم وجبـاههم ، ويغض أبصـارهم ، ويحطم عظـامهم ، فعند ذلك ينـادون : وا ثبـوراه! فـاذا بقيت العظام عواري من اللحوم اشتد غضب الله ، فيقول : يا مالك! اسجرها عليهم كالحطب في النـار ، ثم يضـرب أمواجها أرواحهم سبعين خريفا في النار ، ثم يطبق عليهم أبوابها من الباب الى الباب مسيرة خمسمائة عام ، وغلظ البـاب مسـيرة خمسـمائة عـام ، ثم يجعل كل رجل منهم في ثلاث تـوابيت من حديد من نـار بعضـها في بعض ، فلا يسـمع لهم كلام أبـدا إلّا ان لهم شـهيق كشـهيق البغـال ، وزفير مثل نهيق الحمير ، وعواء كعــواء الكلاب ، صم بكم عمي فليس لهم فيها كلام إلا أنين ، فيطبق عليهم أبوابها ، ويسد (يمدّد خ ل) عليهم عمـدها ، فلا يـدخل عليهم روح أبدا ، ولا يخرج منهم الغم أبـدا ، فهي «**عَلَيْهِمْ مُؤْصَـدَةٌ**» يعــني مطبقة ، ليس لهم من الملائكة شـافعون ، ولا من أهل الجنة صديق حميم ، وينساهم الرب ، ويمحو ذكــرهم من قلوب العباد ، فلا يذكرون أبدا [1].

(1) موسوعة بحار الأنوار ج 8 ص 323.

سورة الفيل

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**من قرأ في فرائضه ألم تر كيف فعل ربك شهد له يوم القيامة كل سهل وجبل ومدر بأنّه كان من المصلّين ، وينادي له يوم القيامة مناد : صدقتم على عبدي ، شهادتكم له وعليه ، أدخلوه الجنّة ولا تحاسبوه ، فإنه ممن أحبّه الله وأحبّ عمله**»

نور الثقلين / ج 5 ص 668

وفي بحار الأنوار ، بخط الشهيد رحمه الله : ان الصادق ـ عليه السلام ـ يقرأ في وجه العدو سورة الفيل.

موسوعة بحار الأنوار ص 338

الإطار العام

تمـوجت الجزيـرة العربية بالصـراعات الدموية وبقيت مكة بلداً آمنا كمثل جزيرة ساكنة في بحر هائج ، حـتى أنّ ملك اليمن (أبرهـــة) عند ما ســـعى إلى غزوها ردّ على أعقابه بفعل طير غريب رمت جيشه بحجارة من سجيل.

أليس في ذلك دليلا على حرمة الــبيت ، وآية لاكــرام الله لأهله ، ونعمة عظيمة ينبغي أن يشـــــكروا الله عليها بالايمان به وبرسالاته؟.

سورة الفيل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ
يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً
أَبابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ
كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5))

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ

بينات من الآيات :

(1) كثيرة عـبر التـاريخ الـتي لا تـزال آياتها مرسـومة على صفحات الزمن وفي ذاكرة الأجيـال ، ولكن قليل هم الـذين ينسـلون من ضوضـاء حاضـرهم الى كهف التـاريخ ليدرسوه بإمعـان ، ويعتـبروا بحوادثه ، وكـانت قصة الفيل الذي أناخ بالمغمس من أطراف مكة ففزعت منه قـريش ، ولاذت بالجبـال فـرارا ، كـانت لا تـزال عالقة في أذهـان أهل مكة ، حــتى قيل : ان بعض من رافقــوا حملة أبرهة المشؤوم كانوا لا يزالون أحياء ، بيد أن قريشا الــتي أمنها الله من تلك الداهية كفـرت بـأنعم الله ، وجحـدت آياته ، وجاء الوحي يذكرهم قائلا :

(**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ**)

قد تكون الحادثة التاريخية شديدة الوضــوح الى درجة تكاد ترى ، ولا تحتاج منا الى ان نتوجه إليها بأعين بصــيرة ، وهكذا يبدو أن الرؤية هنا جاءت بمعنى العلم

بها ، والنظر الى آثارها ، وســـماع أنبائها مما يجعلك كأنك قد رأيتها.

وقد تجلت عظمة الله في ردع أكـــــــــبر حملة قادها الأعداء ضد مكة ، وبفعل خارج عن ظاهر السنن الجارية ، حيث دمرهم بطير أبابيل.

(2) لقد عبــؤوا طاقــاتهم ، وجنــدوا اثــني عشر ألفا بأفضل عتــادهم ــ حسب التــواريخ ــ وكـان الفيل الـذي استقدموه لاثارة الهيبة سـلاحا جديـدا في محيط الجزيـرة العربيــة. زعمت العــرب الا قبل لهم به ، ولكن الله أضل كيدهم ، وأفشل خطتهم ، فلم يحققوا به الغاية المطلوبة.

(**أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**)

قال بعضهم : تضليل كيدهم بمعنى فشـلهم في هـدم الكعبة ، وتصفية آثـار الحنفية الإبراهيمية ، وتوجيه العـرب الى بيت جديد كان أبرهة قد بناه في اليمن.

ولكن الســؤال : كيف أضل الله كيـــدهم؟ هل بفعل طير الأبابيل فقط أم بـأمر آخـر؟ يبـدو ان الاية تشـير الى حادثة أخـــرى لم يـــذكرها المفســـرون ، ولعلهم ابتلـــوا بأمراض فتاكة كالجدري ، أو وقعت بينهم الفتنة ، أو ضلوا السبل أو ما أشبه ، أو أصـيب فيلهم بعاهة بسـبب اختلاف المنـاخ ، وقد أشـارت الروايـات التاريخية الى بعض هـذه القضايا.

(3) ولا ريب أن اخطر ما أصـــــــــــابهم وقضى على حملتهم ، كانت الطير التي قدمت عليهم ــ حسب التـاريخ ــ من ناحية البحر لم تعرفها المنطقة ، فـرمتهم بحجـارة قاتلة.

(**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ**)

لم تخطأهم الطير بل اتجهت مباشـرة إليهم ، وكـانت تتلاحق عليهم أسرابا فأسـرابا ، وهـذا ما فسـرت به كلمة أبابيل ، قــالوا : تعــني مجتمعة ، وقيل : متتابعة ، وقيل : متفرقة ، تأتي من كـلّ ناحية ، وأصل الكلمة من قـولهم : فلان يؤبل على فلان أي يعظم عليه ويكــثر ، واشـــتقاقها من الإبل.

(4) بعد ان انتشرت فوقهم الطـير كسـحابة سـوداء ، أخذت تمطرهم بحجارة قاتلة ، قالوا : كان كل طير يحمل ثلاث أحجــار : واحــدة في منقــاره واثنتــان بين أرجلها ، وكـــانت الحجـــارة إذا أصـــابت جانبا من أبـــدانهم فرقته وخـرجت من الطـرف الاخر ، فـاذا أصـابت بيضة الـرأس اخترقت الـدماغ وخـرجت من الـدبر ، وقـال بعضـهم : إذا أصاب الحجر أحـدهم خـرج من الجـدري لم ير قبل ذلك ، وقـال ابن عبـاس : كـان الحجر إذا وقع على أحـدهم نفط جلده ، فكان ذلك أوّل الجدري.

(**تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ**)

قـالوا : حجـارة من طين ، طبخت بنـار جهنم ، وقـال بعضهم : السجيل : أصله السـجين ، وأبـدلت النـون لاما ، ولا يبعد ذلك إذا كانت الكلمة معرّبة للتساهل فيما عـربت من الكلمـات ، وقـال بعضـهم : بل السـجيل من السـجل حيث كتب عليهم ذلك ، والاول أقرب.

ولعل الحجـــارة كـــانت مســـمومة أو تحمل جـــراثيم أمراض فتاكة كالجدري ، حسـبما نقـرء في التفاسـير كما جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر ـ عليه السلام ـ عن قوم كانوا يقطعون السبيل ، ويأتون المنكر : «... **مع كل طـير ثلاثة أحجـار : حجـران في مخالبه ، وحجر في منقاره ، فجعلت ترميهم بها حتى جـدرت أجسـادهم ، فقتلهم الله عزّ وجلّ بها ، وما كانوا قبل ذلك رأوا شيئا من**

ذلك الطير ولا من الجدر» [1].

(5) يبدو ان مرض الجدري قضى على خلايا جسـدهم ، حتى غدوا كالقشور البالية.

(**فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**)

قـالوا : جعلهم الله كـورق الـزرع إذا أكلته الـدواب فـرمت به من أسـفل ، ذلك أن العصف عنـدهم : ورق الـزرع ، كجلب القمح والشـعير ، وقـال بعضـهم : العصف المأكول : الورق الذي أكل لبه ورمي قشره.

قصة أصحاب الفيل :

اهتمت قريش بقصة أصحاب الفيل ، حيث أنها كـانت تتخذ من هذه الواقعة ذريعة لسيطرتها على أهل الجزيـرة ، ولذلك جعلوها بداية لتاريخهم ، وقد كانت ولادة النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ في ذات السـنة حسب أشـهر الروايـات ، فأضـفى عليها صـبغة شـرعية ، وقد ذكـروا تفاصـيل كثـيرة فيها اختلافا واسـعا ، ونـذكرها : جـاء في مجمع البيان ما نصفه

أجمعت الـرواة على أن ملك اليمن الـذي قصد هـدم الكعبة هو أبرهة بن الصـباح الاشـرم ، وقيل : أن كنيته ابو يكسوم ، ثم ان أبرهة بـني كعبة بـاليمن ، وجعل فيها قبابا من ذهب ، فـأمر أهل مملكته بـالحجر إليها يضـاهي بـذلك البيت الحرام ، وأن رجلا من بني كنانة خـرج ، حـتى قـدم اليمن ، فنظر إليها ، ثم قعد فيها ـ يعني لحاجة الإنسـان ـ فـدخلها أبرهة فوجد تلك العـذرة فيها ، فقـال : من اجـترأ علي بهذا ونصـرانيتي ، لأهـدمن ذلك الـبيت حـتى لا يحجه حاج أبدا ، ودعا بالفيل ، وأذّن قومه

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 672

بالخروج ومن اتبعه من أهل اليمن ، وكـان أكـثر من اتبعه منهم عكّ والأشعرون وخثعم ، ثم خرج يسير حتى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلا من بني سليم ليـدعو النـاس الى حج الـذي بنـاه ، فتلقـاه أيضا رجل من الحمس من بـني كنانة فقتله ، فازداد بذلك حنقا ، وحث السـير والانطلاق ، وطلب من أهل الطائف دليلا ، فبعثوا معه رجلا من هـذيل يقـال له : نفيل : فخـرج بهم يهـديهم ، حـتى إذا كـانوا بـالمغمس نزلـوه وهو من مكة على سـتة أميـال ، فبعثـوا مقـدماتهم الى مكة ، فخـرجت قـريش عباديد في رؤوس الجبال ، وقالوا : لا طاقة لنا بقتـال هـؤلاء ، ولم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم أقام على سقايته ، وغير شيبة بن عثمـان بن عبد الـدار أقـام على حجابة الـبيت ، فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي الباب ثم يقول :

لاهمّ ان المـــرء يمنع رحله   لا يغلبو بصـليبهم ومحـالهم
فـــامنع حلالك   عــــدوا محالك [1]

لا يــدخلوا البلد الحــرام إذا فــأمر ما بــدا لك ثم ان مقدمات أبرهة أصابت نعما لقـريش فأصـابت فيها مـائتي بعـير لعبد المطلب بن هاشم ، فلما بلغه ذلك خـرج حـتى أتى القوم ـ وكان حاجب أبرهة رجلا من الاشعرين وكـانت له بعبد المطلب معرفة ـ فاسـتأذن له على الملك ، وقـال له : إيها الملك! جاءك سيد قريش الذي يطعم إنسـها في الحي ووحشها في الجبل ، فقال له : ائذن له ـ وكـان عبد المطلب رجلا جسيما جميلا ـ فلما رآه أبو يكسـوم أعظمه ان يجلسه تحته ، وكـــره ان يجلسه معه على ســريره ، فـــنزل من ســـريره ، فجلس على الأرض ، وأجلس عبد المطلب معه ، ثم قـال : ما حاجتك ، قـال : حـاجتي مائتا بعير لي أصـابتها مقـدمتك ، فقـال أبو يكسـوم : والله لقد رأيتك فـاعجبتني ، ثم تكلمت فزهـدت فيك ، فقـال : ولم أيها الملك؟ قال : لاني جئت الى بيت عزكم ومنعتكم

---

(1) الحلال : القوم الحالون في المكان والمحال : التدبير والقوة.

من العـــرب وفضـــلكم في النـــاس ، وشـــرفكم عليهم ، ودينكم الــذي تعبــدون فجئت لأكســره وأصــيبت لك مائتا بعـير فســألتك عن حاجتك فكلمّتــني في إبلك ولم تطلب اليّ في بيتكم! فقـــال له عبد المطلب : ايها الملـــك! أنا أكلمك في مالي ولهذا البيت ربّ هو يمنعه ، لست انا منه في شـــيء ، فــراع ذلك أبا يكســوم ، وأمر بـــرد إبل عبد المطلب عليه ، ثم رجع وامست ليلتهم تلك الليلة كالحة نجومها ، كأنها تكلمهم كلاما لاقترابها منهم ، فأحست نفوسهم بالعذاب ، وخرج دليلهم حتى دخل الحرم وتركهم ، وقـام الأشـعرون وخثعم فكسـروا رمـاحهم وسـيوفهم ، وبرؤا الى الله ان يعينـوا على هـدم الـبيت ، فبـاتوا كـذلك بأخبث ليلة ، ثم أدلجوا بسـحر ، فبعثـوا فيلهم يريـدون أن يصــبحوا بمكة ، فوجّهــوه الى مكة ، فــربض ، فضــربوه ، فتمرغ ، فلم يزالوا كذلك حتى كادوا أن يصبحوا ، ثم إنهم أقبلوا على الفيل ، فقالوا : لك الله أن لا نوجهك الى مكة ، فـــانبعث فوجهـــوه الى اليمن راجعا ، فتوجه يهـــرول ، فعطفـــوه حين رأوه منطلقا ، حـــتى إذا ردوه الى مكانه الاول ربض ، فلما رأوا ذلك عادوا الى القسم ، فلم يزالوا كـذلك يعالجونه حـتى إذا كـان مع طلـوع الشـمس طلعت عليهم الطـير معها الحجـارة ، فجعلت تـرميهم وكل طـائر في منقــاره حجر ، وفي رجليه حجـران ، وإذا رمت بـذلك مضت وطلعت أخـــرى ، فلا يقع حجر من حجـــارتهم تلك على بطن إلّا خرقه ، ولا عظم إلّا أوهـاه وثقبه ، وثـاب أبو يكسوم راجعا قد أصابته بعض الحجارة ، فجعل كلما قــدم أرضا انقطع له فيها أرب ، حـــــتى إذا انتهى الى اليمن لم يبق شيء إلّا باده ، فلما قدمها تصدع صدره وانشق بطنه فهلك ، ولم يصب من الاشــعرين وخثعم أحد ، وكــان عبد المطلب يرتجز ويدعو على الحبشة يقول :

يا رب لا أرجو لهم ســـواكا　　يا رب فـــــامنع منهم حماكا
ان عــدو الــبيت من عاداكا　　انهم لم يقهـــــروا قواكا [1]

---
(1) مجمع البيان / ج 10 ص 540

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

عن أبي بصـــير ، عن أبي عبد الله (ع) قـــال : «**من أكثر من قراءة لإيلاف قريش بعثه الله يــوم القيامة على مـــركب من مـــراكب الجنّة ، حـــتى يقعد على موائد النور يوم القيامة**»

موسوعة بحار الأنوار / ج 92 ص 337

الإطار العام

انها حقا إرهاصات رسالة ، وبشائر حضارة ، حيث كانت في قريش بقية من آثار الحنفية الإبراهيمية. ألم يحتفوا ببيت الله الحرام الذي آمنه الله من الدواهي ، ألم يقدر الله ان يبعث فيهم رسول الله فيكونوا حملة رسالاته الى الافاق ، ألم يجعل أئمة المسلمين من صفوة قريش بني هاشم ، وصفوة الصفوة أولاد محمد وعلي عليهما السلام.

بلى. لقد آلفهم الله حول بيته ، وآلفهم لرحلة الشتاء والصيف ، وهيأ لهم مدينة راقية بين مثيلاتها في الجزيرة ، إذا ليعبدوا رب هذا البيت ، ويتعالوا عن خرافات الجاهلية التي لا تتناسب ومستوى حضارتهم ، أو ليس رب هذا البيت قد أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف؟ فلما ذا البقاء مع أساطير التخلف والخوف؟

وتأتي السورة متممة لبصائر سورة الفيل السابقة حتى قيل : انهما معا سورة واحدة.

سورة قريش

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(لِإِيلافِ قُـــرَيْشٍ (1) إِيلافِهِمْ رِحْلَـــةَ الشِّـــتاءِ
وَالصَّـــيْفِ (2) فَلْيَعْبُـــدُوا رَبَّ هـــذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي
أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4))

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ

بينات من الآيات :

(1) هل هما سـورتان أم سـورة واحـدة تفصل بينهما البسملة ، أم البسملة هي الاخرى محذوفـة؟ كما نقل عن مصحف أبيّ ، فيه أقوال مختلفات ، أقربها انهما ـ كما في عامة المصاحف ـ سورتان متقاربتان المحتوى ، وإن جاز ـ حسب بعض النصـوص ــ الجمع بينهما في الفريضة ، فقد روي عن الامـام الصـادق ــ عليه السـلام ــ انه قـال : «**لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلّا الضحى وألم نشرح ، وأ لم تر كيف ولإيلاف قريش**» [1].

ذلك ان ما فعله الله بأصحاب الفيل كـان مثلا واضـحا لكرامة البيت الحرام عند الله سـبحانه ، وأنه قد اسـتجاب فيه لـدعوة مجـدد بنائه إبـراهيم الخليل ــ عليه السـلام ــ فجعله بيتا آمنا ، ورزق أهله من الثمــرات ، وكل ذلك وفّر شـروط المدنية عنـده ، حيث بنت قبيلة قـريش حضـارتها وإيلافها ، وكانت تمهيدا لحضارة

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 544

الإســلام المجيــدة ، فقــال ربنا ســبحانه تعليقا على قصة أصحاب الفيل :

(**لِإِيلافِ قُرَيْشٍ**)

قـالوا معنـاه : فعلنا ذلك بأصـحاب الفيل لكي يـألفوا مكة ، وتتوفر لهم شروط الرحلة الى الشام واليمن.

وقال البعض : بل الحديث في هـذه السـورة مسـتقل مسـتأنف ، وأن كـان مكملا ــ محتـوى ومعـنى ــ لما بيّنه القرآن في السورة السابقة ، ومعنـاه : ان الله وفر الأمن لقريش حتى تتسنى لهم رحلة الشتاء والصيف.

وهكذا فسروا الإيلاف : بإيجاب الالف ، وهو الاجتمــاع المقرون. بالالتئام ، ونظيره الإينـاس ، ونقل عن الازهـري أنه يشبه الاجارة والخفـارة ، يقـال : ألف يؤلف : إذا أجـار الخمائل بالخفـــارة [1] حيث أن الله وفر لقـــريش فرصة التجــارة ، بما كــانت لهم من علاقــات حســنة مع ســائر العــرب ، وبما كــانت لهم من هيبة في نفــوس النــاس باعتبارهم في جوار بيت الله.

وأنّى كـان أصل معـنى الإيلاف فـإن اللفظ يشـير الى معـنى المدنية والحضـارة ، لانّ كلمة المدنية مشـتقة من المدينة ، والإيلاف بدوره يوحي بالتواجد في مكـان واحد ، اما الحضارة فهي مشتقة من حضور الناس عند بعضـهم ، بينما الإيلاف يـدل على الحضـور والتـآلف ، ومعـروف أن التـآلف أهم من مجـرد الحضـور ، وقد جعله الله سـبحانه نعمة كبري حين قال سـبحانه : (**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُـوبِهِمْ لَـوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعــاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُــوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**) [2].

---

(1) القرطبي / ج 20 ص 204

(2) الأنفال / 63

وقريش كانت القبيلة العربية التي ظهـرت فيها بـوادر المدنية باســـتقرارها في منطقة اســـتراتيجية ، وأمنها ، واشـتغالها بالتجـارة الـتي هي أكـثر من مجـرد علاقـات اقتصادية ، لأنها توفر أيضا فرصة التواصل الثقافي.

ولا ريب أن كل هـذه الفـرص لم تتـوفر لقـريش الا بفضل ما بقيت لديهم من آثار الوحي ، ومن تراث الحنفية الإبراهيمية ، وحسب النصـوص الشـرعية : كـان النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ــ من سـلالة طـاهرة موحـدة ، لم تدنسها الجاهلية بشركها وفسوقها.

وكلمة قـريش : جـاءت من القـرش بمعـنى المـال ، باعتبـارهم كـانوا تجـارا ، والتقـريش بمعـنى الاكتسـاب ، وقيل : بل جذر الكلمة من الاجتماع ، حيث يقال : تقرّشوا : أي اجتمعـوا ، وانما سـمّوا بـذلك حينما جمع قصي بن كلاب سائر قريش في الحرم وانشدوا بعضهم :

أبونا قصي كـــان يــدعى مجمّعا   به جمع الله القبائل من فهر

ويقال : ان الكلمة مـأخوذة من سـمك القـرش ، لأنه الأعظم بين احياء البحر ، وقريش كانت الأعظم بين أحياء العرب.

وأنّى كـان الاسم ومصـدره فـان القبائل الـتي كـانت تنتمي الى النضر بن كنانة بن خزيمة كـانت تسـمّى بهـذا الاسم.

وقد ذكر بعضـــهم قصة تعكس بداية اهتمـــام هـــذه القبيلة بأمر التجارة في عهد عمرو بن عبد منـاف [1] وهي تـدل على أن ذلك كـان بسـبب مجاعة أصـابتهم ، كما ان تلك المجاعة دعتهم الى تنظيم علاقـــــــاتهم الاجتماعية بصورة أفضل ، حتى قال

(1) القرطبي / ج 20 ص 204 ـ 205

شاعرهم في صفة التواسي بينهم :

والخالطون فقيرهم بغنيّهم حـــتى يصـــير فقـــيرهم كالكـــــــــــــــافي.

(2) (**إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ**)

أي الفــوا هــذه الرحلة بفعل الله وفضــله ، وكــانوا يرحلــــون في الشــــتاء الى اليمن لأنها بلاد دافئة ، بينما يتجهون صيفا الى الشام لمناخها المعتدل.

وقــال بعضــهم : بل كــانوا يشــتون بمكة ، ويصــيفون بالطائف وانشدوا :

تشـــــــــــتي بمكة نعمة ومصـــــــيفها بالطـــــائف

وسواء كانت التشتي والاصطياف بهـذه الأرض أو تلك أو بهــدف التجــارة أو المتعة ، فــإن ذلك يعكس مســتوى رفيعا من المدنية والغنى ، أليس الإنسان كلما تحضر أكثر كلما بحث عن وســـائل الراحة ، حـــتى ولو اقتضى الأمر الارتحال من بلد لاخر؟

(3) ما الــذي جعلهم في أمن وغـنى ، أليس جـوارهم لـبيت اللـه؟ فلما ذا الشــرك به والتمــرد على رســالاته؟! (**هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ**)؟! وأي انتكاسة كبيرة في فطرة الإنسان تلك الـتي تجعل جـزاء الإحسـان كفـرا وعصيانا؟!

(**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ**)

فلأجل شــكر نعمة إيلاف الله رحلة الشــتاء والصــيف لقريش عليهم أن يعبدوا رب هذا البيت ، الذي كان محــور إيلافهم ووحـــدتهم وحضــارتهم ، وكلما تفاعل المجتمع مع محــور تقدمه وحضــارته ، ومع أســباب رفاهه وغنــاه كلما كان ذلك سببا

لدوام نعم الله عليه وزيادتها وتناميها.

(4) بسـبب الإيلاف الـذي كـان يـدوره نابعا من جـوار الـبيت الحـرام ، وفر الله لقـريش أهم نعمـتين : الغـنى والأمن بـالرغم من تواجـدهم في بلاد قاحلة ، لا زرع فيها ولا ضرع ، بلاد قاسية دعت أهلها المعـدودين الى الصـراع من أجل البقـاء ، فكـانوا في حـروب لا تنتهي ، شـعارهم الخوف ، ودثارهم السيف. في هذه البيئة القاسية الفقيرة الخطـيرة وفّر الله لقـريش الطعـام والأمن. ألا يـدعوهم ذلك الى الشكر والطاعة؟

(**الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**)

ان قريشا نسيت ان كل ذلك كان بفضل آثار الرسالة الإبراهيمية الـــتي تجلت في دعـــاء مجـــدد بنـــاء الكعبة المشرفة ، الذي جأر الى الله قائلا : (**قـالَ إِبْـراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ**) [(1)].

لكنهم أخطئوا في تفسير هـذه الظـاهرة الفريـدة في محيط الجزيرة العربية الـذي كـانت القبيلة في دوامة من الحـروب الدامية ، والأزمـات الاقتصـادية الخانقة ، وكـان خطأ قـريش في تفسـير ذلك حـائلا إذ جعلهم يواجهـون رسالة الإسلام ، مما أزال سيادتهم على الجزيرة ، وسلب منهم شرف سدانتهم للحرم ، وفتح الله مكة لنبيه الكـريم محمد ــ صـلّى الله عليه وآله ــ وجعلهم الطلقـاء بعد ان كانوا سادة العرب!

ويبـدو أن هـذه السـورة الكريمة وفـرت فرصة ذهبية لقريش لكي تصحح نظرتها الى نفسها ، حتى لا تفتخر بما تملك من متعة وغـــنى ، ولا تتخـــذها وســـيلة للطغيـــان والعصـيان ، ونشر الفسـاد في الأرض ، والاسـتكبار على الناس. ولكن قريشا لم

---

(1) إبراهيم / 35

تنتفع بـــذلك لا في عهد هبـــوط الاية ولا بعدئذ ، حيث أنها كـادت لرسـول الله ، وحـاربت رسـالته ، فلما نصـره الله عليهم دخلوا في الإسلام وقلوبهم مليئة بأحقــاد الجاهلية ، ثم انضووا تحت راية الحزب الاموي الحاقد على الإسلام ، وانتقموا من آل الرسول ، وقال شـاعرهم يزيد بن معاوية بعد قتله للإمام الحسين عليه السلام :

لعبت هاشم بالملك فلا خـــبر جــاء ولا وحي نــزل

لست من خنــــــدف ان لم انتقم من بني هاشم ما كان فعل

وهكذا أذلهم الله وجعلهم عبرة لكل معتبر.

واليوم إذا اسـتمرت العـرب تفتخر بثرواتها وبأمجادها بعيدة عن رسالات الله فان مصـيرها لن يكـون أفضل من عاقبة قريش وحزبه الاموي ، أما إذا اعتزوا بالإسلام فــان الله يرفع شـــأنهم ، ويعيـــدهم الى شــــرفهم الأســـمى ، ومجدهم التليد.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال : «**من قرأ سورة أرأيت الذي يكذب بالدين في فرائضه ونوافله قبل الله عزّ وجلّ صلاته وصيامه ، ولم يحاسبه بما كان معه منه في الحياة الدنيا**»

نور الثقلين / ج 5 ص 677

الإطار العام

القــرآن مــيزان ومن دونه لا يملك الإنســان بصــيرة بنفسه ليعرف من هو وكيف هو؟ أليس حب الـذات يجعله يــزعم أبــدا أنه على صــواب؟ بينما هنالك مقــاييس إن طبّقت عليه كـان صـالحا ، وإلّا لا يغنيه التمـني والتظـني والادعاء شيئا.

ولا يكفي ان يـــدعي أحد انه مســـلم ، وانه يـــؤمن بـــالآخرة ، انما يجب ان يصـــدق عمله قولـــه. وســـورة المـاعون تـذكرنا بهـذه الحقيقة ، وتـبين صـفات المكـذب بالدين وإن ادّعى التصديق به وهي : طـرد اليـتيم ، الرغبة عن المســكين ، الاســتهانة بالصــلاة والريــاء فيها ، ومنع الخير عن أهله.

وهكذا تأتي السورة المباركة فرقانا يميز المؤمن حقّا بالدين والمكذب به.

سورة الماعون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَـذِّبُ بِالـدِّينِ (1) فَـذلِكَ الَّذِي يَـدُعُّ
الْيَتِيمَ (2) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ
لِلْمُصَــلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَــلاتِهِمْ ســاهُونَ (5)
الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ (7))

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ

بينات من الآيات :

(1) تلك الصفات الـتي تسـوقها سـورة المـاعون هل تؤخذ مفـــردة أم جميعـــا؟ نقل عن بعضـــهم الثـــاني ، فالمكذب بالدين هو الذي يجمع الصفات الثلاث ، وهذا هو الظـاهر ؛ لان صـفات الشر تتـداعى كما تتـداعى صـفات الخـير ، وهكـذا تعرفنا السـورة الكريمة بالـذين يكـذبون بالـدين من هم ، حـتى نتقي تلك الصـفات وما يـؤول إليها من التكذيب بالدين.

(**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ**)

هل رأيته بشخصه وعرفته بصفاته؟ والدين هو الجزاء ، وقيل : بل الإسـلام والقـرآن ، ولكن محـور أيّ دين هو الايمـان بـالجزاء ، الـذي ينعكس على النفس بالإحسـاس بالمسؤولية ، وهو معنى الدين بمعناه الشامل.

(2) الايمـان بالـدين يـزكي نفس الإنسـان ، ويخرجها من شحّها وضيقها

وجهلها ، ويستثير فيها فطرة الحب ، وبواعث الخير ، وحوافز المعروف ، ويجليها بالعواطف الجيّاشة تجاه المستضعف والمحروم ، بينما الذي يكذب بالدين تراه يدعّ اليتيم ، ذلك الطفل البريء الذي حرم حب والده (أو والدته) وحنانه وعواطفه.

(**فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ**)

قالوا : الدع : الطرد والدفع بعنف وقوة ، وهو يكشف عن قسوة القلب ، وتبلّد العاطفة ، وقد لا يطلب اليتيم منهم شيئا سوى الترحم حتى يستعيض به ما فقده من بركاته والده ، ولكن القلب القاسي الذي يتمحور حول المصالح لا يجد باعثا لاستقبال اليتيم ، لأنه لا يتوقع من ورائه مصلحة دنيوية عاجلة.

وقد حض الإسلام على احترام اليتيم وايوائه ، حتى روي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «من ضمّ يتيما من المسلمين حتى يستغني فقد وجبت له الجنّة» [1]

(3) من أسوء ما يبتلى به الذي يكذب بالدين مسخ الشخصية ، وانتكاسة الفطرة ، فتراه لا يتأثر بمنظر المسكين الذي يتضوّر جوعا ، ولا يحض أحدا على توفير نصيبه من الطعام ، إنه لم يعد إنسانا ينبض قلبه بحب نظرائه من البشر.

(**وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ**)

قالوا : الحض بمعنى الترغيب ، وقال بعضهم : الطعام هنا بمعنى الإطعام ، وقال بعضهم : بل الطعام بمعنى ما يستحقه اليتيم من الطعام ، إشارة إلى أنه من حقهم ومن مالهم ، كما قال ربنا سبحانه : (**وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**) [2]

---

(1) القرطبي / ج 20 ص 211

(2) المعارج / 25

وهكذا لا يعتبر إطعـام المسـكين سـوى رد حقّه إليه ، وعلى المجتمع أن يكـــون شـــاهدا على ذلك ورقيبا ، كما يراقب وضع السلطة والأمن والاقتصاد ، وكما يشـهد على سائر الحقوق أن تـردّ إلى أهلها ، ومن لم يقم بشـهادته ، وترك المسكين يتضـوّر جوعا فانه يسـتحق العقـاب ، لأنه ســـاهم في إفســـاد المجتمع ، ونشر الفقر في أرجائه ، كالـذي يـرى الطـاعون ينتشر بين النـاس فلم يمنعه وهو قـادر على المنع ، أو يـترك الأسد ينهش طفلا فلا يردعه ، أو يــترك الصــبيّ يــتردى ، والأعمى يصــطدم ولا يحــرك ساكنا.

ومن هنا يصبح الحض على طعام المسكين واجبا بحدّ ذاته وتركه حراما ، وهو واجب يشــــترك في مســــئوليته القادر على إطعام المسكين وغير القادر عليه.

(4) وطعام المسكين أبرز مصاديق الزكـاة ، والزكـاة عدل الصلاة ، وعـادة ما يـذكران معا في القـرآن ، بيد ان الصلاة ليست مظهـرا خارجيّا من مظـاهر الـدين ، بل هي قبل ذلك صــلة العبد بـالرب ، فالـذي يفسد هـذه الصـلة بالرياء ، ويستخدم أقدس مقدساته في أمور الدنيا فان له الويل واللعنة.

(**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ**)

الذين اتخذوها وسيلة الـدنيا ، وهي معـراج الاخـرة ، وهكذا تساهلوا فيها.

(5) فتراهم ينشطون الى الصلاة في الملا ، ويسهون عنها في الخلاء ، والصــلاة حقّا هي الــتي تبتّلك عن الخلق الى الخــالق ، وعن الــدنيا إلى الاخــرة ، وعن الجسد الى الـــروح ، والمــؤمن ينبعث إليها في الخلـــوات في رحم الظلام عند سبات الطبيعة ، حينما تحلو المؤانسة مع خـير الــذاكرين ، والمناجــاة مع رب العــالمين ، بينما المنــافق يســهو عنها عندئذ ويخلــوا الى الغفلة واللــذة ووســاوس إبليس.

(**الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ**)

ومن أبعاد السهو عن الصلاة تأخيرها عن وقتها لغير عذر ، هكذا روي في حديث مأثور عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ قال : «**تأخير الصلاة عن أول وقتها لغير عذر**» [1]

وروي عن الامام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ «ليس عمل أحب الى الله عزّ وجلّ من الصلاة ، فلا يشغلنّكم عن أوقاتها شيء من أمور الدنيا ، فان الله ـ عزّ وجلّ ـ ذم أقواما فقال : (**الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ**) يعني أنهم غافلون ، استهانوا بأوقاتها» [2]

(6) والصلاة تمد المسلم بزاد الايمان الذي يحتاج إليه في كل شؤون الحياة ، ومن اتخذها هزوا ، أو عملها رياء فقد أفنى زاده وهلك.

(**الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ**)

(7) والصلاة الحقيقية تحرر الإنسان من شح ذاته ، فتكون يده سخيّة ، ينصر المظلوم ، ويعين المحروم ، بينما الذي يرائي في صلاته يمنع أبسط الحقوق المفروضة عليه.

(**وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ**)

قالوا الماعون : أصله المعنى وهو القليل ، ومعناه كل ما فيه منفعة ، وقالوا : انه ما يتعاوره الناس بينهم من الدلو ، والفاس والقدر ، وما لا يمنع كالماء والملح [3].

---

(1) الميزان / ج 20 ص 368

(2) المصدر / ص 369

(3) جاء في مجمع البيان انه روي مرفوعا عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ المصدر / ج 10 ص 548

وجاء في الحديث عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قال : «هو القرض نقرضه ، والمعروف تصنعه ، ومتاع البيت تعيره ومنه الزكاة» (قال الراوي) فقلت : ان لنا جيرانا إذا أعرناهم متاعا كسروه وأفسدوه ، فعلينا جناح ان نمنعهم؟ فقال : «**لا. ليس عليك جناح ان تمنعهم إذا كانوا كذلك**» [1]

وبالرغم من أنهم ذكروا اثنتي عشر قولا ، فإن الأقوال تعود جميعا إلى أمر واحد هو المعروف كله ، ولكن يبدو أنه المعروف الذي يعتبر الذي يمنعه خسيسا ومنبوذا اجتماعيا ، لأنه من النوع الذي يقارن فيه الناس عادة ، مثل إعارة الظروف ، وإعطاء النار والملح وما أشبه.

والسورة ـ عموما تدل على أن مكارم الأخلاق ميراث التصديق بالدين ، كما ان التكذيب بالدين يورث الرذائل التي يرفضها العقل والعرف ، فترى الساهين عن الصلاة يمنعون عن الآخرين حتى الماعون الذي يتبادله الناس بينهم.

---

(1) المصدر

سورة الكوثر

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**من قرأ إنا أعطيناك الكوثر في فرائضه ونوافله سقاه الله من الكوثر يوم القيامة ، وكان محدّثه عند رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في أصل طوبى**»

نور الثقلين / ج 5 ص 680

الإطار العام

يجمل القــرآن في ثلاث آيــات قصــار معــارف ربّانية يبيّنها في مفصّــلات الســور ، فــإذا بهما معا معجــزة في الحكمة والخطاب.

فهـذا القـرآن ، وتلك الذرية الصـالحة الـذين يحملونه الخيرة بعد الخيرة ، وتلك الامة الـتي يباركها الله بـالقرآن والعترة ، إنّ كلّ ذلك كوثر أعطاه الله لمصـطفاه الكـريم محمد بن عبد الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ومن يملك هـذا الامتداد الميمون كيف يكون أبترا؟!

إنّما الأبتر الذي يشنأ محمدا ، وينقطع حسبه ونسـبه ، وتباد جاهليته ، كما ظلام الليل يتبدد مع بزوغ الفجر.

وشكرا لنعمة الكـوثر واسـتزادة منه يصـلّي الرسـول لربه وينحر ، ونصلي وننحر

سورة الكوثر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)
إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3))

إنّا أعطيناك الكوثر

بينات من الآيات :

(1) لقد حبى الله رسوله الكوثر ، ذلك الخـير العظيم الـذي جعله رحمة مهـداة إلى العـالمين ، ووسـيلة بركـات الله على المؤمنين.

(**إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ**)

قـالوا : إنّ الكـوثر مشـتق من الكثـير ، على صـيغة فوعل ، كما لفظة النوفل المشـتقة من النفل ، والجـوهر المشتقة من الجهر ، وهكذا عبرت العـرب عن كل شـيء كثير في الكمية ، عظيم في النوعية بالكوثر.

قــالوا في تأويل كلمة الكــوثر أقــوالا شــتى يجمعها القول : بأنّ الله قد حبى نبيه خيرا كثيرا يتسع لكلّ حقول الخــير ، ولكل أبعــاد حياته ، من الرســالة المباركة ، إلى الذرية الطاهرة ، إلى الامة الشاهدة ، إلى الذكر الحسن ، إلى الشفاعة عند الله ، وإلى

الحوض الذي يستقبل ضيوف الرحمن قبل دخولهم الجنة.

بيد أنّ أعظم تـأويلات الكـوثر هو الكتـاب والعـترة ، لانّهما الثقلان اللـذان خلّفهما الرسـول من بعـده لامته ، وأمـــرهم بالتمسك بهما ، وأضـــاف : «**إنّهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض**»

وهكذا يكون حوض الكوثر في الجنة أو على مـداخلها تجسيدا للكوثر في الدنيا المتمثل بالكتاب والعترة.

ويتناسب هذا التفسير مع سـياق السـورة حيث تنعت شـانئ الرسـول بأنّه الأبـتر ، ومفهومه أنّ الرسـول تمتد عترته وذريته من بعده ، بعكس العـاص بن وائل السـهمي الذي قيل أنّ السورة نزلت بعد أن قـال عن الرسـول أنّه أبتر.

وهكذا جاء في سبب نزول السورة : ان رسول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ـ دخل من بـاب الصـفا ، وخـرج من باب المـروة فاسـتقبله العـاص بن وائل السـهمي ، فرجع العاص الى قريش ، فقالت له قريش : من استقبلك يا أبا عمرو آنفـا؟ قـال ذلك الأبـتر ، يريد به النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ حتى انزل الله هذه السورة [1]

ونجد في النصوص التي تفسر هذه الكلمة إشارة الى أهل بيت النبي ، وكيف يذاد عن حوض الكوثر من ظلمهم من بعده.

فقد أخــرج ابن مردويه عن انس قــال : دخلت على رسـول الله ـ صـلّى الله عليه وآله وسـلّم ـ فقـال : قد أعطيت الكوثر فقلت : يا رسول اللـه! ما الكـوثر؟ قـال : «**نهر في الجنة عرضه وطوله ما بين المشـــرق والمغرب ، لا يشرب منه أحد فيظمأ ، ولا يتوضأ منه أحد فيشعث أبدا ، لا يشرب منه من أخفر**

(1) الدر المنشور / ج 6 ص 401.

ذمتي ، ولا من قتل أهل بيتي» [1]

ومن هنا ذكر الفخر الـرازي هـذا القـول وأيـده ببعض الشواهد. فقال : القول الثالث : الكـوثر أولاده ، لان هـذه السورة إنما نـزلت على من عابه ــ عليه السـلام ــ بعـدم الأولاد ، فالمعنى : أنه يعطيه نسلا يبقون على مرّ الزمـان ، فـانظر كم قتل من أهل الـبيت ثم العـالم ممتلئ منهم ، ولم يبق من بني أمية في الـدنيا أحد يعبأ به ، ثم انظر كم كـان فيهم من الأكـابر من العلمـاء كالبـاقر والصـادق والكـاظم والرضا ـــ عليهم السـلام ـــ والنفس الزكية وأمثالهم [2].

ويبقى سؤال : هل الكوثر في القيامة حوض كبير في مدخل الجنة أم نهر كريم في عرصاتها؟

لعل الكوثر نهر يفيض خيره الى مـداخل الجنة ويصب في حوض عظيم.

دعنا ــ في خاتمة الحـديث عن الكـوثر ــ نـذكر بعض الأحاديث في صفة ذلك النهر والحوض.

جاء في حـديث مسـند الى ابن عبـاس انه قـال : لما نزل على رسول الله : (**إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ**)

قال له علي بن أبي طالب : «ما هو الكوثر يا رسـول الله؟» «قال نهر أكرمـني الله بـه» قـال علي : «إن هـذا النهر شـريف فانعته لنا يا رسـول اللـه!» قـال : «نعم يا علي! الكـوثر نهر يجـري تحت العـرش ، مـاؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ، حصـاه الزبرجد والياقوت والمرجـان ، حشيشه الزعفـران ، ترابه المسك الأذفر ، قواعده تحت عرش الله

(1) المصدر / ص 402.
(2) التفسير الكبير / ج 32 ص 124.

عز وجل» ثم ضرب رسول الله على جنب أمير المؤمـنين وقال : «يا علي! هذا النهر لي ولك ولمحبيك من بعدي» [1].

وأورد مسـلم في صـحيحة عن أنس أنه قـال : بينا رسول الله ذات يوم بين أظهرنا إذا أغفى إغفـاة ، ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلت : ما أضحكك يا رسول الله؟ قـال : «أنزلت علي آنفا سورة» فقرأ سـورة الكـوثر ، ثم قـال : «أتـدرون ما الكـوثر؟» قلنا : الله ورسـوله أعلم ، قـال : «**فإنه نهر وعدنيه ربي ، عليه خير كثـير ، هو حـوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء ، فيختلج القـرن منهم فـأقول : يا رب! أمـتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**» [2].

(2) لا يبلغ العبد كمـال الانتفـاع بنعم ربه إلّا بمعرفة اللـه. والتقـرب اليه زلفى. أرأيت الذي أسبغ الله عليه نعمة الأمن والعافية والغـنى ، ولكنه يجحد ربه كيف يفسد تلك النعم بكفرانها؟! فيستغل الأمن في اشاعة الفسـاد ، والعافية في اتبـاع الشـهوات ، والغـنى في الطغيـان! كما يفسد النعم بـالحرص والطمع والقلق والقنوط وسوء الخلق.

وأعظم نعم الله على الإنسـان الرسـالة لأنها تهديه الى سبل السلام وتعينه في تسخير الحياة ، وترشـده إلى العيش الأفضل ، ولكن الرسـالة بـدورها لا يحتملها إلّا من عرف الله ، وشكره عليها بالعمل والأداء.

والصـلاة والزكـاة هما عمـودا الرسـالة الالهية ، لان الصلاة توصل الإنسـان بنـور ربه ، والزكـاة تطهر قلبه من الشح والاستئثار وعبادة الـدنيا .. وهكـذا أمر الله بهما بعد بيان نعمة الكوثر ، فقال :

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 683.

(2) المصدر / ص 681.

(**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**)

فكلما ازداد الإنسان يقينا بربه ـ عبر الصلاة والزكاة ـ كلما ازداد هـدى وفـوزا وانتفاعا بنعم الله وبالـذات بنعمة الكوثر ، التي هي كتاب الله وعترة رسول الله.

وانى كانت الصلاة : صلاة العيد في اليـوم العاشر من ذي الحجة ، أو صـلاة الصـبح في المزدلفة ، أو كل صـلاة فريضة ، فانها بالتالي الشكر المناسب لنعمة الكوثر.

وكذلك النحر سواء كان الاضحية في يـوم العيد بمـنى أو أيّة أضـحية وأيّ نسك ، فانه يقـوم بـدوره في تطهـير القلب.

وقد اختلف المفسـرون في تأويل هـذه الاية كما في الاية السابقة على أقـوال شـتى ، يمكن جمعها في معـنى عام واحد ، بيّناه آنفا.

بيد أن هناك نصوصا تصـرح بـأن معـنى النحر هنا رفع الايدي باتجاه القبلة عند الصلاة .. إليك بعضها.

جاء عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ أنه سـئل عن الاية : فقال بيده هكـذا ، يعـني اسـتقبل بيـده حـذاء وجهة القبلة في افتتاح الصلاة [1].

واخـرج الـبيهقي في سـننه وغـيره عن علي بن أبي طالب ـ عليه السـلام ـ قـال : «لما نـزلت هـذه السـورة على النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ (**إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ**) قال النبي لجبرئيل : ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي؟ قال انها ليست

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 683.

بنحيرة ، ولكن يـأمرك إذا تحـرّمت للصـلاة ان ترفع يـديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع ، فإنها صـلاتنا وصـلاة الملائكة الـذين هم في السـموات السـبع ، وان لكل شـــيء زينة وزينة الصـــلاة رفع اليـــدين عند كل تكبيرة» [1].

واني لم أصل الى معنى جامع يستوعب هذا التفسـير والتفسير السابق الذي ورد بعض النصـوص تؤكـده أيضا ، بلى. قد نقــول : إن رفع اليد علامة الاســتعداد للتضــحية بالنفس كأن الإنسان يشـير الى نحـره ، وأنه يقدّمه قربانا لربه ، بينما نحر البـــدن في مـــنى هو المعـــنى الحقيقي للكلمة.

وانى كــان فقد روي عن سـعيد بن جبـير أنه قــال : كانت هذه الاية يوم الحديبية ، عند ما صالح النبي قريشا ، أتاه جبرئيل فقال : انحر وارجع [2]

وجاء في حديث مأثور عن الامام الباقر ـ عليه السلام ـ ان معـنى النحر الاسـتعداد في القيـام قـال : «**النحر الاعتدال في القيام ، ان يقيم صلبه ونحره**» [3].

والى هــذا ذهب طائفة من المفســرين حيث قـالوا : «انحـــر» : بمعـــنى ابـــدأ النحر ، ولا يبـــدأ النحر إلّا عند الاعتدال ، وقـالوا : ان منه التنـاحر بمعـنى التقابل ، ولكن يبدو ان المعنى الاول ينسجم مع ظاهرة قرآنية : فلا يذكر الصلاة إلّا مقرونة بالزكاة أو الإنفاق.

(3) من إعجاز القرآن انه بشّر رسوله بـالكوثر ، يـوم كانت عصابات قريش تحاصـره ، وتعـذب أنصـاره ، وتكـاد تقضي عليه ، واليوم أصبح دين الإسلام ظاهرا في

---

(1) الدر المنشور / ج 6 ص 403.

(2) المصدر.

(3) نور الثقلين / ج 5 ص 684.

الأرض ، والرسول أعظم شخصـية عـبر العصـور وفي كل الافـاق .. بينما انقطع نسل شـانئيه ، وأصـبحوا أحـاديث وعبر ، كما قال ربنا سبحانه.

(**إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**)

لقد قطع ذكره الّا باللعنة والبراءة.

وسـواء كـان هـذا الشـانى هو العـاص بن وائل أو أبو جهل أو عقبة بن أبي معيط أو غـيرهم ، وسـواء كـانت مناسـبة حـديثهم عن الرسـول بمـوت القاسم ابن رسـول الله في مكة ، أو إبـراهيم ابنه في المدينة فـإن الأمر لا يختلف ، إذ أن ذلك الخط الجـاهلي قد انقطع وانبـتر ، وبقي خط النبي يضيء عبر العصور.

والشانئ : هو العدو الحاقد ، والأبتر : من البتر بمعنى القطع ، وكـانت العـرب تسـمي الـذي لا ولد له بـالأبتر ، وقيل : اتهم النـبي بهـذه الصـفة لأنه تـركهم وانبـتر عنهم وخالفهم ، ولكنهم هم الذين انبتروا وأصبحوا شذّاذا.

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ـ عليه السـلام ـ : «**من قرأ قل يا أيها الكـافرون وقل هو الله أحد في فريضة من الفـــرائض غفر الله له ولوالديه وما ولد ، وإن كـان شـقيّا محي من ديـوان الأشقياء ، وأثبت في ديـوان السـعداء ، وأحيـاه الله سعيدا ، وأماته شهيدا ، وبعثه شهيدا**»

نور الثقلين / ج 5 ص 670

الإطار العام

هل تدري لماذا اعتبر الرسـول الأكـرم ــ حسب رواية معروفة ــ سـورة الكـافرين ربع القـرآن؟ ربما لان نصف القــرآن أو يزيد يهــدي الى حقــائق التوحيد ، والتوحيد ـــ بدوره ـ يتشكل من جزئين : الايمان بالله ، ونفي الشركاء ، ونجد في هـذه السـورة عصـارة رفض الشـركاء في ربع القرآن.

وتتكــرر في هـذه الســورة كلمــات الــبراءة مما يعبد المشــركون ، وأن الرسـول لن يـؤمن بما يؤمنـون به من الأصنام ، لينفصل وبوضوح خط التوحيد عن خط الشرك.

سورة الكافرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (2)
وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (3) وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَـدْتُّمْ (
4) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ
(6))

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ

بينات من الآيات :

(1) هناك حقـائق تكفينا معرفتها ووعيها والعمل بها ، بينما لا يكفي ذلك في حقائق أخرى مثل نفي الشـركاء إذ لا بد في مثلها من الـبراءة عنهم ، والكفر الصـريح بهم ، وتحـدي سـلطانهم الثقـافي والسياسي والاجتمـاعي حـتى يخلص ايمـان لعبد ، ولـذلك جـاءت بعض آيـات التوحيد متوّجة بكلمة «قـل» الـتي تطالبنا بموقف واضح فاصل حاسم من الشركاء ، أي من القوى الجاهلية التي تتسـلط على رقاب العبـاد ، ومن القيم الفاسـدة الـتي تتحس في النفس ، ومن السلوك الفاسد الذي يصبغ حياة الناس.

(**قُلْ**)

بكل وضـوح ، لان كلمة الـرفض قد تكـون أشد من الرفض ذاته ، لأنها تشجع الآخرين عليه ، الا تـرى كيف ان الكثيرين قد يعارضون حكومة جبار في السر ،

ولكن القليل منهم يعلنـون رفضـهم له إعلانـا. والله يأمرنا بـإعلان الـرفض وفي صـيغة خطـاب موجّه الى الكـافرين جميعا ، الغائبين منهم والحاضرين.

(**يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ**)

انها الشهادة الـتي أمرنا بها ، والـتي نرددها من أعلى المنـابر ، في مـواقيت الصـلاة وعند خـواتيم الفـرائض ، الشــهادة بالتوحيد الــتي تعــني صــراحة رفض الأنــداد والشـركاء ، كما تعـني الحضـور في سـاحة المواجهة ضد هــؤلاء الشــركاء ثم الصــراع الشــامل معهم ، ذلك أن الشـركاء ليسـوا أشـباحا أو نظريـات ، انهم حقـائق ثقيلة تمشي على الأرض بـالجبروت والفسـاد ، فالشـهادة على رفضهم تعني الحضور في سوح الصراع معهم.

(2) ورفض المجتمع الجاهلي ، وهدم كيانه الظـالم لا يكـون الا بـرفض مقدسـاته وقيمه ، وما يعبدونه من دون الله ، رفض تقـديس الابـاء الـذي يعـني الجمـود والتقليد والاسترسال ، رفض تقديس الأرض والمصـالح العشـائرية والطائفية والحزبية والاقليمية والقومية ، رفض الثقافــات والشرائع الباطلة التي اضفوا عليها القداسة كلّا ..

(**لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ**)

ذكر الرواة : أن سادة قريش لقوا رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسـلّم ـ فقـالوا : يا محمـد! هلمّ فلنعبد ما تعبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فان كـان الـذي جئت به خــيرا مما بأيــدينا كنا قد شــاركناك فيه وأخــذنا بحظّنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيـدك كنت قد شــركتنا في أمرنا وأخــذت بحظّك منه ، فــأنزل الله عز وجل (**قُـلْ يا أَيُّهَا الْكـافِرُونَ**) [1] وأضـيف ـ في رواية أخرى ـ فيئسوا منه ،

---

(1) القرطبي / ج 20 ـ ص 225

وآذوه وآذوا أصحابه.

ومعروف : ان الاية أوسع دلالة من تلك الواقعة ، فإن نفي عبــادة الرســول لما يعبــدون يشــمل تحديه لمجمل قيمهم الجاهلية ، وكياناتهم الظالمة.

وكلمة «مــا» في قوله : (**ما تَعْبُــدُونَ**) يشــمل كل شــيء يعبد من دون الله ، ســواء تمثل في اشــخاص أو أصنام أو قيم وهكذا كان نفي «ما» أشد وضـوحا وأشـمل من نفي «من» وتدل على غير العاقل.

(3) هل يشــــترك الكــــافرون في أمر العبــــادة مع المؤمــنين شــيئا؟ كلّا .. إنهم يعبــدون إلها يختلف كليا عن رب العـالمين الـذي يعبـده المؤمنـون. أولئك يعبـدون ربّا عـاجزا أمـام قـوة الشـركاء ، محتاجا الى دعم الأنـداد ، لا يهيمن على تـدبير الكائنـات ، بينما المؤمنـون يعبـدون ربّا قويّا مقتدرا ، لا يعجزه شيء ، ربّا جبّارا مهيمنا مدبرا.

فليس ما يعبده الكافرون هو ما يعبده المؤمنون ، بل إنه لمختلف جدّا.

(**وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ**)

وأنّى لقلب واحد أن يجتمع فيه معرفة الله المتكبّر الجبّار مع الايمان بالجبت والطاغوت ، أو هل يجتمع النــور والظلام؟!

(4) والذي يعبد الجبت والطاغوت ولا يتحــدى ســلطة المستكبرين ، وقيم الجـاهلين لا يكـون عابـدا لله ، وحاشا رسول الله ولمن اتّبع هداه أن يختاروا الكفر بعد الايمان ، والضلال بعد الهدى ، حتى لو تعرضوا لالوان العذاب.

(**وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ**)

ان من علامة صــدق الايمــان ، وأنه وقر مســتقر في فـــؤاد صـــاحبه أنه يعقد عزمـــات قلبه على تحـــدي كل الضغوط في سبيله حـتى يأتيه اليقين ، فيلقى ربه بإيمـان لا ظلم فيه ، وإسلام لا استكبار معه.

والا فان كل الناس حتى أسوأ الجاحدين يمرون عـادة بلحظات إيمانية ، أو ليسوا يولـدون على فطـرة الايمـان ، أو لا تـرى كيف يجـأرون الى ربهم في البأسـاء والضـراء؟ بلى. ولكنهم سرعان ما يشركون بربهم بسـبب الشـهوات ، أو ضغط الطغاة والمجتمع الفاسد.

(5) وكـذلك يتمـايز خط الايمـان والشـرك ولن يلتقيا على محور واحد ، فلا ترى أحدا من الكفار بالله أبدا عابدا له ، كيف وأن أول ما يـــأمر به الله هو الكفر بالطـــاغوت ومقاومة الجبت.

(**وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ**)

أي أنهم حال شركهم بالله ليسوا من الله في شيء ، لان الشرك حجاب بين الإنسـان وربه ، حجـاب في القلب وحجاب في السـلوك ، وانما تتجلى قيمة الايمـان في كبح جمـاح التكـبر في النفس ، وكبح جمـاح المسـتكبرين في المجتمع ، ليتحرر الإنسان من الجبت والطـاغوت ، ويعـود الى نور عقله وصـفاء فطرته ، ويمضي قـدما في تسـخير الطبيعة في الدنيا ، وابتغاء مرضاة الله ونعيم الجنة.

أمّا المستسـلم للضـغوط ، المسترسل مع شــهوات النفس وأهواء المتجبرين ، فانه ليس بمؤمن بالله.

أو ليس الايمان بالله يعطي الإنسـان بصـيرة وعزما ، وحكمة وشجاعة ، عقلا

وتوكلا؟ وهل يمكن لمن أوتي تلك الصفات المثلى ان يتبع هواه ويطيع الطغاة؟

(6) وهكـذا اسـتبان طريق الضـلال عن سـبيل الله ، ودين الكفار عن دين الحق.

(**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**)

والـدين هو المنهج المتكامل الـذي يلـتزم به الإنسـان في حياته ، ولا يجتمع منهج الله مع منهج الشـرك ، وقـال بعضـهم : الـدين هنا بمعـنى الجـزاء ، فمعنـاه : ان لكل شخص جزاء عمله وعبادته. ان خيرا فخير وإن شرا فشر. والمعنى الاول أوفق مع السياق ؛ لان جوهر الدين العبادة ، فمن عبد الله دان بدينه ، ومن عبد الشركاء دان بدينهم.

وهـذه الـبراءة الصـريحة من دين الشـرك هي الـتي مـيزت دين الله عن دين الأدعيـاء ، ومـيزت عبـاد الله عن عبد الطـاغوت ، ومـيزت خط الرسـالة الأصـيل عن سـبل الضلال.

ان المشركين والمسـتكبرين والمـترفين حـاولوا عـبر التــاريخ التقــاطع مع المؤمــنين الصــادقين بــالترغيب والترهيب فلم يفلحوا ، وكان هدفهم استخدام اسم الـدين وشـعاراته لتمرير فسـادهم وظلمهم ، واضـفاء الشـرعية على تجــــبرهم واســـتغلالهم ، ولقد بقي رجـــــال الله المخلصـون صـامدين أمـام تلك المحـاولات بتوفيق الله ، وبالرغم من تعرضهم لشتى ألوان الأذى.

وجـاءت هـذه السـورة الـتي استفاضت على اهميتها النصوص الشرعية ، ووثيقة براءة من المشـركين ، وسـدّا منيعا أمام محاولاتهم التأثير في التجمع الايماني.

وانما تكررت آيات النفي لتأكيد هذه البراءة وذلك الفصل ، ومن عادة العرب التكرار للتأكيد وانشدوا للشاعر :

يا أقرع بن جامس يا أقرع   إنك إن يصرع أخوك تصرع

وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ عن سبب نزولها وتكرارها : ان قريشا قالت لرسول الله تعبد الهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، وتعبد الهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فأجابهم الله بمثل ما قالوا ، فقال قالوا : تعبد آلهتنا سنة (**قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ* لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ**). وفيما قالوا : نعبد إلهك سنة : (**وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ**) وفيما قالوا تعبد آلهتنا سنة : (**وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ**) وفيما قالوا : ونعبد إلهك سنة : (**وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**). [1]

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 688

سورة النصّر

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**من قرأ إذا جاء نصر الله والفتح في نافلة أو فريضة نصـــره الله على جميع أعدائه ، وجاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق ، قد أخرجه الله من جــوف قــبره ، فيه أمــان من جسر جهنم ومن النـار ومن زفـير جهنم ، فلا يمـرّ على شـيء يـوم القيامة إلّا بشّره وأخبره بكلّ خير حتى يـدخل الجنة ، ويفتح له في الـدنيا من أسـباب الخـير ما لم يتمنّ ولم يخطر على قلبه**»

نور الثقلين / ج 6 ص 689

الإطار العام

بعد جهاد دائب ، وانتظار طويل يـأتي نصر الله والفتح ، الـذي لا يبتغي المؤمنـون من ورائه سـوى هداية النـاس إلى الحق .. وهكـذا تـراهم فـرحين حين يجـدون النـاس يـدخلون في دين الله أفواجا .. إنّها بشـارة عظمي ولكنّها لن تـــدعوهم إلى الغـــرور ، بل يتخـــذونها معراجا روحيّا لنفوســـــهم الوالهة بحبّ الله ، فيســـــبّحونه ويحمدونه ويستغفرونه.

والتســبيح ســبيل معرفة الله والتقــرب اليه والحمد وسيلة منع الغرور والكبر عن النفس ، والاســتغفار طريق تكميل النــواقص .. وهكـذا تـوجز هـذه الســورة الكريمة برنامج المـؤمن عند النصر وعند أي فضل يصـيبه من عند الله.

سورة النصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(إِذا جــاءَ نَصْــرُ اللــهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجـاً (2) فَسَـبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (3))

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ

بينات من الآيات :

(1) وتتظاهر القوى السياسية والاقتصـادية والاعلامية ضد الرسالة ، ويحاصـرونهم من كل صـوب ، وتضـيق بهم السبل ، ويلقي الشيطان وساوسه في أفئدتهم ، ويظنـون بالله الظنون ، ويطول ليل الانتظار ، وينادي الجميع : متى نصر الله؟

وجاء نصر الله ، يسعى إليهم من ضمير الغيب ، حيث يعـرف المؤمنـون بـوعيهم السياسي والحـركي ، وببصـائر قلوبهم العارفة انهم كانوا أعجز من اقتناص النصر بقواهم الذاتية ، وإنما هو نصر الله الـذي هـزم عـدوهم بـالرعب ، وأيدهم بالثبات والاستقامة ، وألف بين قلوبهم بالايمان.

وأتبع الله النصر بنصر آخر ، وتلاحقت الانتصـــــارات حـتى جـاءهم الفتح المـبين ، هنـاك بلغ المؤمنـون أعظم أمانيهم ، حيث رأوا الناس يدخلون في دين الله

أفواجا.

ثم يعاني الداعية حين يرى الناس في ضلال مبين ، ويجد القوى الجاهلية تقف حاجزا دون انتشار هدى الدين الى القلوب المظلمة ، وربما بلغ الحزن ببعض الدعاة أن يموتوا كمدا ، ولهذا ينهى الله رسوله من ذلك بقوله سبحانه : (**فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً**) [1].

واليوم يعمهم الفرح حين يرون كيف تساقطت الحواجز وانتشر نور الهدى.

(**إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**)

قالوا عن هذا النصر : إنه نصر الله رسوله على قريش في المعارك التي دارت بينهم ، وقيل : بل نصره على سائر الكفار ، أما الفتح ، فقالوا : انه فتح مكة ، وهذا يتناسب وما جاء في وقت نزول السورة ، حيث روي : انها نزلت بعد فتح مكة ، وذكر في حديث آخر : أنّها آخر سورة نزلت على الرسول ، فقد جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ انه قال : أوّل ما نزل على رسول الله (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**) وآخره (**إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ**) [2] وقيل : إنها نزلت بمنى في حجة الوداع [3].

وقد كانت تسمى هذه السورة بسورة التوديع لأنها ـ حسب الرواية التالية ـ نعت الى الرسول نفسه ، هكذا يقول ابن عباس : لما نزلت (**إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**) قال ـ صلّى الله عليه وآله ـ نعيت إليّ نفسي بأنها مقبوضة في هذه السنة [4]

---

(1) الكهف / 6

(2) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 660

(3) المصدر نقلا عن تفسير علي بن إبراهيم.

(4) المصدر / ص 689

وربما السـبب في ذلك أن السـورة قد أوحت اليه أن مســـئولية الرســـول كمبلّغ وداعية الى الله قد أكملت ، لذلك كان عليه ان يستعد للرحيل.

(2) النصر أو الفتح ليسا هدفا بذاتهما عند المؤمنين ، إنما وسـيلة الى هـدف أسـمى هو هداية النـاس الى نـور الرسالة.

(**وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً**)

فعند ما تهاوت حجب الضلال ورأى الناس نـور الـدين فوجـدوه دين الفطـرة والعقل ، دين الحكمة والسـماحة دخلوا فيه فوجا بعد فوج ، يقود كل فوج إمامهم وداعيتهم ، والسـابق منهم اليه ، وقد قـال المفسـرون : انها نـزلت في أهل اليمن الذين توافدوا على النبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ أفواجا ، تقول الرواية المأثورة عن ابن عبـاس : ان النبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ قـرأ (**إِذا جـاءَ نَصْـرُ اللـهِ وَالْفَتْحُ**) وجاء أهل اليمن رقيقة أفئـدتهم ، لينة طبـاعهم ، سـخيّة قلـوبهم ، عظيمة خشـيتهم ، فـدخلوا في دين الله أفواجا. [1]

وهكـــذا انتشر نـــور الإســـلام بعد فتح مكة في كافة أرجـــاء الجزيـــرة العربية ، وبـــدأ المســـلمون يتحفـــزون للانبعاث الكبير في أرجاء الأرض.

وتهدينا بصائر هذه السورة وهدى سـيرة النـبي وعـبر تـــاريخ الحركـــات الدينية : أن علينا أن نعقد العـــزم على تحطيم قلاع الكفر المتقدمة قبل نشر الرســـــــالة ، فما دامت تلك القلاع تـــدافع عن قيم الجهل والتخلف ، وتمنع الناس بالترهيب والتضليل والترغيب عن التغيير والإصـلاح ، لا ينفع التبليغ والتبشير كثيرا ، ومن أجل هـذا قاتل كثـير من الأنبيـــاء والربـــانيون ، ومن أجل هـــذا جاهد الرســـول الأكرم ، ومن

(1) القرطبي / ج 20 ـ ص 230

أجل هذا ينبغي أن يجاهد ويقاتل كل مبلّغ وداعية من يقف دون انتشار الدين.

(3) لان النصر من عند الله ينبغي ان نشكر الله عليه ، ونسـبحه ونقدسه ، ونطهر بـذلك أفئـدتنا من تلك الوساوس الشيطانية التي أصابتها أيام المحنة ، فزعم البعض : ان الله تعالى قد أخلف وعده ، أو انه سبحانه لم يقدر على النصر أو ما أشبه ، مما يعبر عنه القرآن الكريم بالزلزلة حين يقول : (**وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ**) [1]

وها هو النصر قد أقـدم ، فلنغسل بمياهه المتدفقة آثار الهزيمة ، ولنسبح الله.

ثم ان للنصر كما للهزيمة آثارا سلبية كالغرور والتكبر والتعالي والتطرف ، وعبر الايمان بالله ، والمزيد من اليقين يمكن السيطرة على تلك الصفات .. من هنا أمر الله بالتسبيح والحمد وقال :

(**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**)

ثم إن المؤمن يتخذ من كل حادثة أو ظاهرة معراجا لروحه ، ووسيلة لتكامل نفسه ، وتنامي صفات الخير فيها ، والنصر واحد من أشد الحوادث أثرا في النفس البشرية ، ولـذلك يتخـذه المـؤمن وسـيلة للتعـرف على ربه ، والتقرب اليه.

والتسبيح تقديس الله عن صفات المخلوقين وعن احاطة علمهم به ، بينما الحمد نعت لله بالأسماء الحسنى وما فيها من صفات الجلال والجمال ، ويقدم التسبيح على الحمد لان إثبات صفة لله قد يوحي ببعض آثاره السلبية ، فاثبات القدرة قد توحي بالظلم ، وإثبات الرحمة قد توحي بتجاوز الحكمة ، بينما ربنا مقتدر عدل ورحيم حكيم.

---

(1) البقرة / 214

(**وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً**)

ويبقى طريق الكمـال مفتوحا أمـام الإنسـان ، وتبقى تطلّعاته الى التسامي مشروعة ، والاستغفار أقرب وسيلة الى تحقيقها ؛ لأنه يوقف الإنســان على نقــاط ضــعفه ، ومواقع عجـــزه ، ويحسسه من جهة بمـــدى حاجته الى الكمال. ومن جهة أخرى بإمكانية ذلك.

وحينما يحس الإنســان بضــعفه وعجــزه ودرجــات قصوره وتقصيره يعتريه شـعور عميق باليـأس من إصـلاح نفسه لولا التوجه الى الله ، والتذكر بأنه توّاب رحيم.

وحينما يســتغفر المنتصر ربه لا يخضع لحب الانتقــام من أعدائه الذين انتصر عليهم ، بل يتحلّى بـروح التسـامح والعفو ، أوليس يطلب الغفـــــــران من ربه والعفو ، إذا فليعفو وليغفر للمذنبين حتى يعفو عنه الله ويغفر له.

سورة المسد

الإطار العام

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد قطع رحمه وخان ، وكـان عليه أن يـدافع عن ابن أخيه في عـرف العـرب وقيمهم ، قطع الله يديه وقطعه ، وأهلكهما وأهلكه.

فهل نفعته أمواله الـتي من أجلها خـرج على أعـراف العــرب وقيم بــني هاشــم. كلا .. كــان يــدعى أبا لهب ، فأمسى يصــلى لهبا ، وهكـذا امرأته الـتي مشت بالنميمة واشعلت نـيران الفتنة وكـان عنقها محاطا بحبل من مسد ومن ليف النخل.

سورة المسد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**تَبَّتْ يَـدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ما أَغْـنى عَنْـهُ مالُـهُ
وَما كَسَبَ (2) سَيَصْـلى نـاراً ذاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُـهُ
حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)**)

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ

بينات من الآيات :

(1) كان من أشراف قريش ، انتقلت اليه زعامة بـني هاشم بعد أخيه الراحل أبي طالب ـ عليه السـلام ـ وكـان عليه ان يجسد قيم آبائه وعشـيرته الـذين ورثـوا حنفية إبراهيم الخليل ـ عليه السـلام ـ وان يـدافع عن ابن أخيه حسب اعراف العرب العشائرية.

ولكنه ـ فيما يبدو ـ تحـالف مع العشـيرة المناوئة من بني امية ، وربما بسبب زوجته أم جميل أخت أبي سـفيان بن حرب ، أو لأنه كان ذا ثـروة طائلة ، فمـال الى الطبقة الاثـرى في قـريش ، أو لاي سـبب آخر فقطع رحمه ، وانسلخ عن حسبه ، وعادى النبي بأشد ما تكون العداوة.

كان يمشي في طرقات مكة وراء النبي ويحذر الناس منه ومما يـزعم .. انه سـاحر ، وكـان النـاس يعلمـون أنه كبير بني هاشم وأنه يصدق في أمرهم فيرجعون

اليه ، ولكنه كان يخون موقعه ، ويتهم النـبي بالكـذب حينا وبالسحر حينا ، وقد يفحش له في القول ويقول : تبا له.

يقـول بعض المفسـرين : كـان إذا وفد على النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ وفد انطلق إليهم أبو لهب ، فيسألونه عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ويقولون له : أنت اعلم به منا ، فيقـول لهم ابو لهب : انه كـذّاب سـاحر ، فـيرجعون عنه ولا يلقونه ، فـأتى وفد ، ففعل معهم مثل ذلك ، فقـالوا : لا ننصـرف حـتى نـراه ونسـمع كلامه ، فقـال لهم ابو لهب : إنا لم نـزل نعالجه ، فتبا له وتعسا.

وكـان هو وزوجته ينشـدون شـعرا بـذيئا ضد النـبي ، ويقولون :

مـذمّما عصـينا وأمـره أبينا

ودينه قلينا

وفي يـوم الـدار حيث جمع النـبي عشـيرته الأقـربين لينذرهم حسب أمر الله له ، فلما طعمـوا وشـربوا ، قـال ابو لهب : سحركم محمد ـ صلّى الله عليه وآله ـ إنّ أحدنا ليأكل الجذعة (ولد الشـاة في السـنة الثانيـة) ويشـرب العس (القدح الكبير) من اللبن فلا يشبع ، وإن محمـدا قد أشبعكم من فخذ شاة وأرواكم من عسّ لبن.

وفي يوم الإنذار العام ، حينما صعد النبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ الصـفا ، فهتف يا صـباحاه! فقـالوا : من هـذا الذي يهتف؟ قالوا : محمد ، فاجتمعوا اليه ، فقال لهم : « **أرأيتكم لو أخبرتك ان خيلا تخـرج بسـفح هـذا الجبل أكنتم مصـدقي؟**» قـالوا : ما جربنا عليك كـذبا ، قـال : «**فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» فقال أبو لهب ، تبا لك أما جمعتنا إلّا لهذا ، ثم قام. هكذا أصبح عم النبي من أشد الناس عداوة له ، وأكثرهم إيذاء ، أو ليس الناس يزعمون أنه أعرف بالنبي من غـيره باعتبـاره عم النـبي ، وسيد عشيرته؟

وهكـذا نـزلت السـورة الكريمة في شـأنه أولا ليفصح للناس مدى عداوته للنبي ، فلا يعتبرونه خبيرا بشـأنه ، بل حسـودا كنـودا وعـدوا لـدودا ، ولا يـأبهون بكلامه في حق النـبي ، وثانيا : لكي لا يـزعم أحد أن قرابته للنـبي تمنحه البراءة من النار ، والتحلل عن مسئوليات الشريعة ، فهذا عم النبي يختص بالتقريع ، وتـنزل في ذمه سـورة باسـمه مما لا نجده في حقّ أيّ من أعداء النبي المعاصرين له.

(**تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ**)

قـالوا : تبت : أي هلكت ، أو خسـرت ، أو خـابت ، أو صغرت ، أو قطعت ، ولا بأس بتصور معـنى جـامع للكلمة تشتمل كل هذه المعاني.

وقـالوا في كنية الرجل أنها كـانت بـديلا عن اسـمه ، فلم يكن ذكر كنيته شـــرفا له بل ذمّا ، لان اللهب يعـــني شرر النـار ، ونعت أحد به لا يشـرفه ، وقد جعله الله عليه لهبا يوم القيامة ، ثم ان اسمه كان عبد العـزى ، ولم يكن مناسبا ذكر هـذا الاسم في كتـاب ربنا ، الـذي يفيض بنـور التوحيد والحنفية الطاهرة.

(**وَتَبَ**)

هلك الرجل وخاب وخسر.

قـالوا : الكلمة الاولى دعـاء عليه ، وذكر اليد إشـارة الى الشخص ذاته ، وهكذا تكنّي العرب عن الشيء بجـزء ، فتقـول مثلا يد الرزايا ، أو يد الـدهر ، أو ما أشـبه ، قـال الشاعر :

ولقد مـررت على ديـارهم أطلالها بيد البلا نهب

اما الكلمة الثانية «وتب» فهي خـــبر ، أي أن أبا لهب قد هلك فعلا ، وبذلك

وقعت اللعنة المتوقعة عليه.

ويبدو لي ان الكلمة الاولى دعاء على صفقة يديه وما تكسبه من فعل ، والثانية عليه شخصيّا ، أو أن الثانية توضيح وتأكيد للأولى ، ذلك أن سبب هلاك الإنسان ما تجنيه يده ، فاللعنة تتوجه إليها ، ثم اليه لأنه المسؤول عن فعلهما ، ولعل في الاية الثانية اشارة الى ذلك.

(2) ابو لهب ـ كما سائر المستكبرين والمعاندين ـ يتّكلون على أموالهم وامكاناتهم في مواجهة الحق ، ولكن عند ما يحين ميعاد الجزاء العادل لا يغني عنهم ذلك شيئا.

(**ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ**)

فلا ثروته تغنيه عن الله شيئا ، ولا ما اكتسبه بها وبغيرها من جاه وقوة ، ومكانة اجتماعية.

وهكذا يكون ما كسب أعم من المال ، لان المال بدوره من مكاسب الفرد ، وقيل : ان «ما كسب» هو أولاده ، ولعل الولد يعتبر مما يكتسبه الإنسان.

(3) كلا .. النار تنتظره وسيصلاها ، ليتحسس مباشرة حرّها وألمها ، وإذا كان أبواه قد وجدوا في وجنتيه لهبا اجتذبهم حتى كنياه بأبي لهب ، فإن هذا الجمال الظاهري لم ينفعه ، بل تحول في العقبى إلى نار لا هبة تحرقه.

(**سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ**)

(4) وامرأة أبي لهب كانت أخت أبي سفيان ، وعمة معاوية ، وكانت ـ حسب الروايات ـ عوراء ولكنها سميت أم جميل ، وكانت بذيئة اللسان ،

متكبرة ، وشديدة العـداء للرسـول ولدعوته ، كعـداء أخيها أبي سفيان.

قـــالوا : انها كـــانت بالغة الـــثراء ، ولكنها من بخلها وشـــحها كـــانت تحمل الحطب ولا تشـــتريه ، وربما ألقت الأشواك في طريق النـبي وسـائر المسـلمين إيـذاء لهم ، وهكذا ألحقها الله بزوجها.

(**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**)

وجاءت كلمة (**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**) منصـــوبة للدلالة على ذّمها ، وقد اختلفوا في تفسير الكلمة : هل نعتت بالبخل ، وكيف انها تـدعي الشـرف ، وتحمل الحطب؟ أو انها ذمّت لالقائها الأشـواك في طريق النـبي؟ أو لأنها كـانت تمشي بالنميمة ، والعـرب تسـمي من يفعل ذلك بحامل الحطب لأنه يشعل نار الفتنة بين الناس؟ وانشدوا :

ان بـــــني الادرم حمـــــالو الحطب | هم الوشاة في الرضا وفي الغضب

وروي أن حمالة الحطب لما ســـمعت بـــنزول هـــذه السـورة فيها وفي زوجها ، قـدمت على المسـجد الحـرام تقصد النبي الذي كـان جالسا ومعه ابو بكر بن أبي قحافة ، فقـــال : يا رســـول اللـــه! هـــذه أم جميل محفظة (اي مغضبة) تريـدك ، ومعها حجر تريد ان ترميك به ، فقـال ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «انها لا تراني» فقـالت لابي بكر : أين صـاحبك قـال : حيث شـاء الله ، قـالت جئته ولو أراه لرميته ، فانه هجاني ، واللات والعزى إني لشـــاعرة (وفي رواية : اني لسـيدة) فقـال ابو بكر : يا رسـول اللـه! لم ترك؟ قال : «**لا. ضرب الله بيني وبينها حجاب**» [1].

(5) وان الفتاة لتتزين بقلادة من الـدر واللؤلؤ وسـائر الأحجار الكريمة ، ولكنها

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 689.

قد جعلت في عنقها حبلا من ليف النخل حينما احتملت حطبا وألقته في طريق الرسـول ، فهل يـدل ذلك إلّا على الخسة والدناءة.

(**فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**)

قــالوا : الجيد : العنق ، والمسد : الليف ، وانشــدوا : ما مسد الخوص تعوذ مني.

وقال البعض : إن ذلك عذاب ، أوعــدها الله أن يجعل في جيــدها حبلا من ليف يــوم القيامة ، لأنها أنفقت قلادة لها من جواهر في محاربة النبي.

سورة الإخلاص

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

1 ـ في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**من مضى به يوم واحد فصـلّى فيه خمس صـلوات ولم يقـرأ بقل هو الله أحد قيل له : يا عبد الله لست من المصلّين**»

2 – وعن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قال : «**قال رسول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ــ من قـرأ قل هو الله أحد مائة مـــرّة حين يأخذ مضـــجعة غفر الله له ذنوب خمسين سنة**»

وعنه ـ عليه السلام ــ قـال : «**من قـرأ قل هو الله أحد عشر مـــــرات في دبر الفجر لم يتبعه في ذلك اليوم ذنب ، وإن رغم أنف الشيطان**»

3 ـ وعن أبي الحسن الامـام الرضا ــ عليه السـلام ــ قال : «**من قرأ قل هو الله أحد بينه وبين جبّـار منعه الله منه بقراءته بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فـإذا فعل ذلك رزقه الله خـيره ومنعه شرّه**»

4 – وعن أبي عبد الله ــ عليه السـلام ــ قـال : «**من آوى إلى فراشه فقرأ قل هو الله أحد إحدى عشــرة مرّة حفظ في داره وفي دويرات حوله**»

نور الثقلين / ج 5 ص 699

الإطار العام

هل الله نسب ، وماذا أعد الكتاب للعلمـاء المتعمقين في حقل التوحيـــد؟ وكيف تختصر بضع كلمـــات بصـــائر الوحي في معرفة الرب ، حتى تصبح ثلث القرآن المجيد.

بلى. إن ســــــــورة الإخلاص تنسب ربنا الى التوحيد النقي ، الــذي يــروي غليل المتعمقين في آخر الزمــان ، وتختصر هدى الكتاب في حقائق العرفان.

إنها تأمرنا بأن نقولها صريحة ونقية : الله أحد.

وماذا تعني الاحدية؟ تقـول السـورة : (**اللهُ الصَّـمَدُ**) الذي لا جوف له ولا أجزاء ، ونتسـاءل عن تأويل الصـمد؟ فتقول الاية التالية : (**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَـدْ**) فلا تدخله أجـزاء من خارجه سـبحانه ، ولا تخــرج منه أجــزاء الى الخــارج سبحانه ، وتسـتفهم : ما حقيقة أحديته وصـمديته ، وتعاليه عن التناسل ، وتقـــول الاية الخاتمة ، حقيقة ذلك : انه لا شبيه له ولا نظير ، ولو كان والدا لكان ولده شبيهه وكفوه ، وكذلك لو كان مولودا لكـان والـده أعلى منه أو مسـاويا له. سبحانه عن مجانسة مخلوقاته.

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (1) اللهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)**)

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ

بينات من الآيات :

(1) لا تستطيع الخروج من ظلمة الشرك لو لم تخرج من سـجن الـذات ، ومعتقل هـوى النفس ، وإذا أنعمت النظر لـرأيت جـذر كل كفر وشـرك وعصـيان حب النفس وهواها ، وحـتى الـذي يعبد الطغـاة أو الأصـنام فإنما يعبد هواه في صورة الطغاة ، وشهواته في هيكل الأصنام.

فإذا خرجت من حبّ الذات ، وتحديت ظلمات الهـوى فإنك تنطلق في رحـاب التوحيد بـإذن الله ، بلا قيـود وبلا حدود.

كيف تخـرج ـ إذا ـ من سـجن الـذات؟ إنما بتحـدي إرهاب الطغـاة ، وضـلالات المجتمع ، وخرافـات الغـابرين وما لديهم من مقدسات زائفة.

وتـاريخ الموحـدين يختصر الصـراع المرير بينهم وبين دعاة الشرك والضـلال .. ألم تقـرأ نبأ النبـيين والصـديقين كيف تحدوا ظلمات عصورهم بنور التوحيد .. كل ذلك

التاريخ الحافل تختصره في هذه السورة كلمة واحـدة هي كلمة :

]قل[

ومن دون الاستجابة لهـذا الأمر الصـريح لن تسـتطيع التعـالي في سـماء التوحيد ، لان التوحيد ذاته كسر قيـود الشـرك ، وفك أغلال الضـلال ، لا بد ان تنهض إرادتك في ضـــميرك ، وتتبلـــور روح التحـــدي في عقلك ، وتنبعث فطرتك النقية الاولى من تحت ركـــــــام الجهل والغفلة والنســــــيان ، لا بد لك من ذلك كله إذا أردت معرفته ، والزلفى اليه ورضوانه ، وجنته.

]هو[

انه الغيب الـــــذي لا ولن تحيط به علما ، يكفيك من شعاع نوره قبس يغمر وجودك ثم لا تكاد تتحملـه. انه الله الذي احتار فيه قلبك ، فهو قريب منه يـراه في كل شـيء ، ولكنه في ذات الوقت بعيد لا يعرف ذاته.

وجاء في حديث مأثور عن الامام الباقر ـ عليه السلام ـ في معنى «هو» قال : «اسم مشار ، ومكنى الى غـائب ، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت ، والـواو إشـارة الى الغـائب عن الحـواس ، كما أن قولك «هـذا» إشـارة الى الشـاهد عند الحواس» [1]

انه الـذي تهفـوا إليه نفوسـنا ، وتتعلق بحبه أفئـدتنا ويهفوا الجميع الى قبسات وجهه الكريم ، ويتعطشون الى كأس محبته ، وورد قربه.

انه بكلمة واحدة «هـو» نشـير اليه دون أن نحـدده أو نقيّده ، أو ندعي معرفة

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 3 ص 221.

ذاته ، أو توهم إنّيته ومائيته.

وقد روي أن عليا ـ عليه السلام ـ رأى خضرا ـ عليه السلام ـ في منامه قبل بدر بليلة يقول : «فقلت له : علمني شيئا أنصر به على الأعداء ، فقال : قل : يا هو! يا من لا هو إلّا هو ، فلما أصبحت قصصتها على رسول الله ، فقال لي : يا علي! علمت الاسم الأعظم ، وكان على لساني يوم بدر» وأضافت الرواية : ان أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قرأ (**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**) فلما فرغ قال : «**يا هو! يا من لا هو إلّا هو! اغفر لي ، وانصرني على القوم الكافرين**» (1)

]الله [

وكفى. الإله : المعبود الذي تسبح له السموات والأرض ، الذي يتحير فيه المتحيرون ، ويلجأ اليه المستجيرون.

وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الامام علي ـ عليه السلام ـ : «**الله معناه : المعبود الذي يأله فيه الخلق ، ويؤله اليه ، والله هو المستور عن درك الأبصار ، المحجوب عن الأوهام والخطرات**»

وروي عن الامام الباقر ـ عليه السلام ـ : «**الله معناه : المعبود الذي اله الخلق عن درك مائيته ، والاحاطة بكيفيّته ، ويقول العرب : أله الرجل إذا تحير في الشيء فلم يحط به علما ، ووله : إذا فزع الى شيء مما يحذره ويخافه**» وأضاف : «**فالاله هو المستور عن حواس الخلق**» (2)

وهكذا تكون كلمة «الله» حسب هذه الرواية مشتقة من اله ، التي تجمع

(1) المصدر / ص 222.
(2) المصدر.

معــاني المعبــود ، الــذي يتحــير فيه النــاس ، ويلجأ اليه المتحيرون.

]أحد[

بــالرغم من ان كلمة «أحــد» مشــتقة من واحد كما قـــــالوا ، إلّا أنها أبلغ دلالة على معـــــنى الوحدانية ، وانه سبحانه لا نظير له ولا شريك ، ولا أعضـاء فيه ولا أجـزاء ، لا في الواقع ولا في العقل والوهم سبحانه ، وليس معـنى الأحد والواحد أنه ثاني اثنين ، أو أنه نـوع من الأنـواع ، كلا .. إنه الواحد بلا عدد ، الأحد بلا مثل ولا شبه.

هكذا جاء في حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ عند ما سـأله اعـرابي في يـوم الجمل عن معـنى واحد ، فحمل النـاس علي وقـالوا : يا إعـرابي! أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب ـ أي تشتته ـ فقـال أمـير المؤمـنين : «**دعــوه ، فــإن الــذي يريــده الاعرابي هو الذي نريـده من القـوم**» (من توحيد الله ومعرفته حقّا المراد ، من القوم اعداؤه) ثم قال :

«**إن القول في أن الله واحد على اربعة أقســام : فوجهـان منها لا يجـوز ان على الله ـ عـزّ وجـلّ ـ ووجهـان يثبتـان فيه ، فأما اللـذان لا يجـوز ان عليه فقول القائل : واحد يقصد به باب الاعداد ، فهذا ما لا يجوز ، لان ما لا ثاني له لا يدخل في باب الاعــداد ، أما إنّه كفر من قـــال : انه ثـــالث ثلاثة ، وقـــول القائل : هو واحد من النـــاس ، يريد به النـــوع من الجنس ، فهـذا ما لا يجـوز ، لان تشــبيه ، وجل ربنا وتعالى عن ذلك ، واما الوجهان اللذان يثبتــان فيه : فقول القائل : إنه عزّ وجلّ أحديّ المعنى ، يعني به : انه لا ينقسم في وجود ، ولا عقل ولا وهم ، كذلك ربنا عزّ وجلّ**» [1]

____

(1) المصدر / ص 207

وهكـذا تشـترك الكلمة بيننا وبين ربنا ، فنقـول : هـذا واحد من النـاس ، ونقــول : الله واحد ، ولكن هيهـات ما بينهما التقـــاء ، فأحدية ربنا ليست كخلقـــه. إنها أحدية شـاملة ، بينما خلقه متكـثر متشـابه ، تعـال نسـتمع في توضيح هذه البصيرة الى حديث عن الامـام أبي الحسن ــ عليه السـلام ــ وهو يحـدد التشـابه المسـتحيل. إنه في المعاني لا في الأسماء فانها مشتركة ، قال :

«انما التشـبيه في المعـاني ، فأما في الأسـماء فهي واحـدة ، وهي دلالة على المسـمّى ، وذلك أن الإنسـان وإن قيل واحد فانه يخـبر أنّه جثة واحـدة وليس بـــاثنين ، والإنســـان نفسه ليس بواحد لان أعضــــــاءه مختلفة ، وألوانه مختلفة ، ومن ألوانه مختلفة غير واحد ، وهو أجزاء مجزأة ليست بسواء ، دمه غــير لحمه ، ولحمه غــير دمه ، وعصــبه غــير عروقه ، وشعره غير بشـره ، وسـواده غـير بياضه ، وكــذلك ســائر جميع الخلق ، فالإنســان واحد في الاسم ولا واحد في المعــــنى ، والله جل جلاله هو واحد لا واحد غيره ، لا اختلاف فيه ، ولا تفاوت ، ولا زيادة ، ولا نقصان ، فأما الإنسان المخلوق المصنوع المؤلف من أجزاء مختلفة وجـواهر شـتى ، غـير أنه بالاجتماع شيء واحد» [1]

وتتجلى أحديّة الله في معرفة هيمنته الشـــاملة على كل شيء ، وانه الفعال لما يريد ، وان له العبادة ، وأنّ ما يعبد من دونه ليس بشيء.

اما خرافات الجاهلية التي تزعم : ان هناك قوة اخرى مسـتقلة غـير قـوة الخـالق فهي ناشـئة من الجهل بالله ، وبأن خالق الكائنات يسـتحيل عليه العجز ، والحد ، والقيد ، فكيف يكـون ربنا مثلا عـاجزا عن التخلص من إبليس ــ حـتى انه انما خلق الخلق حـتى يتخلص من الطينة الخبيثة الــتي لا زالت معه منذ الأزل ، والــتي هي طينة إبليس؟! كلا .. انه ســبحانه هو خــالق إبليس ، ومهيمن عليه ، فلا يجوز لنا عقلا

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 710.

عبادة إبليس واحدا من إلهين.

واسطورة النور والظلمة ، وأنهما إلهان قديمان ، وان الظلمة دخلت في النــور ، أو ان النــور دخلها وجــاء هــذا الخلق من تركيبها كما تقــول المانويّــة. انها هي الاخــرى ناشــــئة من الجهل بالله وبقدرته الــــتي لا تحد ولا تقيد ، وكيف يعجز رب يوصف بالقدرة ، وتتجلى قدرته في هــذه الكائنــات العجيبة ، كيف يعجز عن الســيطرة على الظلام سبحانه؟! بل هو الذي جعل النور والظلمات بقدرته؟

وهكـذا الأسـاطير الـتي كـانت وراء عبـادة غـير الله ، والتي دخلت في الـديانات السـماوية أيضا مثل : الاعتقـاد بـأن للكائنـات آلهة صـغارا ولـدها الإله الأكـبر ، هم بمثابة ابنائه وبناته سـبحانه ، بعضـهم أقـرب اليه من بعض ، وأن على النــاس التقــرب إليهم ، واقامة تماثيل لهم ، ولتحل فيها أرواحهم ، وهذه هي منشأ خرافة عبـادة الأصـنام منذ كانت والى عصرنا الحالي.

إن كل هــذه الأســاطير نشــأت من الجهل بمقــام الالوهية وأن خــالق الســموات والأرض ، وما فيهن وما بينهن لن يكون عاجزا أو محدودا سبحانه!

وانه لو كانت معه طينة أبدية لكانت تلك هي الاخــرى في مقــام الربوبية ، مقتــدرة عالمة ، ولكن كيف تجتمع قدرتان مطلقتان متضادتان ، لا تستطيع إحــداهما القضــاء على الثانية.

وبــالتفكر في صــنع الله وعظيم قدرته تتلاشى هــذه الأســاطير الزائفة ، وتتجلى للإنســان قــدرة الله غــير المحدودة ، التي تظهر في خلقه وفي النظام الذي أجـراه في العالم ، كما يظهر بوضوح أن هذا النظام وهـذا الخلق ليسا بــالالهين من دونه ، يعبــدان ، كما فعلت الجاهلية الحديثة التي استسـلمت وعبـدت المـادة وقوانينها ، وهما من خلق

الله ، وتتجلى بهما عظمته وقدرته سبحانه.

(2) ومن مظاهر الاحدية ، الصـمدية الـتي تشـير إلى حقائق شتى تجمعها بصيرة واحـدة هي أن الله بلا أعضـاء وأجزاء ، ولا حالات تطرأ عليه سبحانه :

(**اللهُ الصَّمَدُ**)

هكذا فسر الامام الحسين بن علي ـ عليهما السلام ـ كلمة الصـمد حين قـال :

«**الصـمد : الـذي لا جـوف له ، والصـمد : الـذي قد انتهى سودده ، والصمد : الـذي لا يأكل ولا يشـرب ، والصمد : الـذي لا ينـام ، والصـمد : الـدائم الـذي لم يزل ولا يزال**» [1]

وروي عن الامـام البـاقر ـ عليه السـلام ـ انه قـال :

«**كـان محمد بن الحنفية ـ رضي الله عنه ـ يقـول : الصمد : القائم بنفسه ، الغني عن غيره**» [2].

وقد ذكر لكلمة الصـمد زهـاء عشـرين معـنى. إلّا أن أمثلها الذي ترجع اليه سائرها : المصمت ، الـذي لا جـوف له ، ومنه الصـمود والصـامد ، ولان السـيد العظيم يوصف بالشجاعة فإنه يسمى بالصمد لأنه لا يتزلزل.

ولان صـفات الـدوام والاحدية والقيمومة وما أشـبه ناشئة من صفة الصمد ؛ فانها ذكرت من معـاني الصـمد ، كما جاء في حديث مأثور عن الامام زين العابـدين ـ عليه السلام ـ حينما سئل عن معنى الصـمد فقـال : «**الـذي لا شـريك له ، ولا يـؤوده حفظ شـيء ، ولا يعـزب عنه شيء**» [3].

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 3 ص 223.

(2) المصدر.

(3) المصدر.

وصفة الصـمدية تتجلى أيضا في أنه لم يلد ولم يولد ، إذ ولادته دليل إضـافة جـزء اليه لم يكن فيه ، أو انفصـال جزء منه كان فيه ، والصـمد الـذي لا أجـزاء له ، لا بتصـور فيه زيادة (بالتولد) ولا نقيصة (بالايلاد).

من هنا فسر الامام الحسين ــ عليه السـلام ــ معـنى الصمد في السورة بالاية التالية فقال : (**اللهُ أَحَـدٌ ، اللـهُ الصَّمَدُ**) ثم فسره فقال : (**لَمْ يَلِـدْ وَلَمْ يُولَـدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ لَمْ يَلِدْ**) لم يخـرج منه شـيء كـثيف كالولد وسـائر الأشـياء الكثيفة الـتي تخـرج من المخلـوقين ، ولا شيء لطيف كالنفس ولا يتشعب منه البداوات [1] كالسّـنة والنـوم ، والخطـرة والهم ، والحـزن والبهجة ، والضـحك والبكاء ، والخـوف والرجـاء ، والرغبة والسـامة ، والجـوع والشبع ، تعالى أن يخرج منه شيء ، وأن يتولد منه شـيء كثيف أو لطيف.

(**وَلَمْ يُولَدْ**) لم يتولد من شيء ولم يخـرج من شـيء كما تخـرج الأشـياء الكثيفة من عناصـرها ، كالشـيء من الشيء ، والدابة من الدابة ، والنبـات من الأرض ، والمـاء من الينابيع ، والثمار من الأشجار ، ولا كما تخـرج الأشـياء اللّطيفة من مراكزها كالبصر من العين ، والســـــمع من الاذن ، والشم من الأنف ، والـذوق من الفم ، والكلام من اللســـان ، والمعرفة والتميـــيز من القلب ، وكالنـــار من الحجر.

لا. بل هو الله الصــمد ، الــذي لا من شــيء ، ولا في شيء ، ولا على شــيء ، مبـدع الأشـياء وخالقها ، ومنشئ الأشـياء بقدرته ، يتلاشى ما خلق للفنـاء بمشـيئته ، ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه.

فــذلكم الله الصــمد ، الــذي لم يلد ولم يولد ، عــالم الغيب والشهادة ، الكبير المتعال ، ولم يكن له كفـوا أحد [2].

---

(1) لعل معناها الطوارئ من الحالات المختلفة.
(2) المصدر / ص 224.

وهكذا استوحى الامام الحسين ــ عليه السلام ــ من كلمة الصـمد معـان لطيفة في التوحيد ، ولو تـدبرنا في معنى الصـمد اللغـوي الـذي قلنا : بأنه المصـمت الـذي لا جـوف له عرفنا كيف أنها صـفة يتمـايز فيها الخلق عن الخـالق ، فلا شـيء من الخلق إلّا وهو مـركّب من أجـزاء في الواقع ، وفي العقل ، وفي الـوهم ، والتصـور إلّا الله الـذي جل عن تـركيب الصـفات في اي أفق من تلك الافاق.

اننا حسب معلوماتنا المحدودة عن الجسم نعـرف أن كل شيء مركّب من ذرأت صغيرة ، وأن في هذه الذرات فراغات هائلة ، بحيث لو تصورنا طنّا من الخشب يقع في مسـاحة عـدة أمتـار مربعة ، ثم افترضـنا أننا أعـدمنا الفراغات في ذراتها لأصبحت في حجم صغير لا يقاس مع حجمها السـابق ، ولكنها سـوف تحتفظ بوزنها السـابق أي الف كيلو غـرام ، ويـدل على ذلك ان المـواد الثقيلة كـاليورانيوم تحتـوي على مثل ذرأت الخشب والقطن إلّا أن هـذه الفراغـات تـردم ، فتثقل المعـادن حـتى أن ما مقدار عشرين سانتيمترا مكعبا من اليورانيـوم يقـدر وزنه بطن. ومحـدود أيضا بأنه ليس بنافذ في كل أبعـاد الشـيء أليس كذلك؟

بينما رب العـزة لا يزيد أو ينقص لأنه كامل ، ولو افترضـنا فيه نقصا إذا ما الفـرق بينه وبين الكائنـات الـتي خلقها ، وإذا تسـاوى الخـالق والمخلـوق فلما ذا أساسا نبحث عن خـالق؟ أليس إنما هـدانا العقل الى الخـالق لما رأينا من النقص والحاجة في المخلوقين ، وأظهر مصاديق النقص : الـتركيب والتـأليف ، والزيـادة والنقصـان. فكيف نزعم وجود ذلك أيضا في الخالق؟

من هنا ذكر الامـام البـاقر ــ عليه السـلام ــ معـاني عديدة اسـتوحاها من كلمة الصـمد ثم قـال : «**لو وجدت لعلمي الـذي أتـاني الله ــ عز وجل ــ حملة لنشـرت التوحيد والإسـلام والايمـان والـدين والشـرائع من الصمد**» [1].

---

(1) المصدر / ص 225.

ونختم حـديثنا عن الصـمد برواية شـريفة عن الامـام علي ـ عليه السلام ـ جمعت الكثير من معاني الصمد قـال :

«**تأويل الصــمد : لا اسم ولا جسم ، ولا مثل ولا شـبه ، ولا صـورة ولا تمثـال ، لا حـدّ ولا حـدود ، ولا موضع ولا مكـان ، ولا كيف ولا أين ، ولا هنا ولا ثمة ، ولا ملاء ولا خلاء ، ولا قيام ولا قعـود ، ولا سـكون ولا حركة ، ولا ظلماني ولا نوراني ، ولا روحاني ولا نفساني ، ولا يخلو منه موضع ولا يسعه موضع ، ولا على لون ولا على خطر قلب ، ولا على شم رائحة ، منفي عنه هذه الأشياء**» [1].

(3) حين عرفنا استحالة التركيب في خالق السموات والأرض ، واهتـدينا الى اسـتحالة تولد شــيء منه ، وكيف ينفصل عنه جزء وهو صمد لا يتصور فيه التأليف والتركيب والاجزاء والأعضاء؟!

وإذا عرفنا أنه لم يلد ، نعــــــرف انه لم يولد ، أليس الــذي يلد ينقص منه شــيء ، ويحتــاج الى تكميله بجــزء يضاف اليه ، وربنا تعالى غني عن الاضافة فكيف بــالولادة من غيره؟!

(**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**)

لم يلد كما تلد الكائنــــــــات المخلوقة ، الكثيفة منها واللطيفة ، وقد سـبق توضـيح ذلك آنفا في حـديث الامـام الحسين عليه السلام.

وهــذه الاية تنسف أسس الخرافــات الجاهلية الــتي تمثلت وبصـور شـتى في المـذاهب والمبـادئ المختلفة ، فانما تأسست على تصور ولادة الكائنـات من رحم خالقها سبحانه ، فقال بعضهم : ان الخـالق تـأذى من طينة خبيثة ملازمة له فدخل

---

(1) المصدر / ص 230.

فيها وتكونت من امتزاجها الخلائق؟ وقال آخـرون : بل ان إبليس (أو الظلمة) قفـزت الى النـور (أي الله في ظنّهم) فـأراد النـور التخلص منها ، فكـان كمن دخل الوحل كلما أراد الخروج منها ارتطم فيها أكـثر ، فكـانت الكائنـات من تداخلهما.

وتطــورت هــذه الفلســفة عند البعض فقــالوا : إن الخالق تنزل من عرشه فأصبح المخلوقات ، وقال بعضهم : ان الله سبحانه فـاض بوجـوده فكـانت الكائنـات وهكـذا رققوا العبارات ولكنهم لم يغيروا من جوهر النظرية شيئا.

ان كل هــذه الفلســفات قائمة على أســاس التولد ، والتولد يقتضي تطورا في ذات الشيء وهو يتنافى وتعاليه سبحانه.

ولا فــرق إذا ان تكــون الــولادة كثيفة كما الثمر من الشـجر أم لطيفة كـولادة الفكر من القلب ، أليس القلب يتطور حـتى يفـرز الفكر ، كما ينفعل الشـجر حـتى يخـرج الثمر؟ كلا. ان الخالق سـبحانه قد أنشأ الكائنـات من دون كيفية ولا تعب ولا معالجة ولا تفــــــــاعلات في ذاته أو تطــورات ســبحانه ، وحين ينتفي التولد منه ينتفي تولــده من غـيره ، لان ما لا ينقص لا يزيد ، أو قل : لا يحتـاج الى زيادة.

ونفي الولادة بكل جوانبها ومعانيها يضع المخلـوق في موقع العبودية المطلقة وينفي اضفاء اي نوع من القداسة الذاتية على اي شــــيء أو شـــخص من خلق الله إلّا قيم الوحي الناشئة من دين الله ، وهكذا يتسـاوى الخلق امـام الخـالق ، وأمـام دين الخـالق ، ولا يجـوز لأحد ان يتعـالى على غيره بزعم أنه أقرب الى القدوس ذاتيا ، وتبطل كل المذاهب العنصرية الظاهرة منها والخفية.

(4) وإذا اهتــدينا إلى أن الله صــمد لا جــزء له ، ولا تطــور ، ولا ولادة ، فقد ارتفع الحجـاب الأكـبر الـذي بيننا وبين الله ، حجاب التشبيه الذي ينشأ من جهل الإنسان

ونقص مداركه.

فلان الإنسـان لا يـرى إلّا نفسه والمخلوقـات ، يقيس خالقه بنفسه طورا ، وبالكائنات أطوارا. غافلا عن أن هـذا القياس يتنافى والاعتقاد بالخالق أصلا.

أما إذا تـذكر الإنسـان هـذه الحقيقة فـإن الشـبهات تنمـاث من ضـميره حـتى يتطهر من أدرانها ، ويتهيأ قلبه لاستقبال نور المعرفة. ويبدو أن كلمـات الـذكر الاساسـية تذكرنا بهـذه الحقيقة ، أو ليس التكبـير هو تعظيم الله من الوصف. «الله أكبر من أن يوصف» والتسـبيح هو تقديسه عما يخطر ببال البشـر. من نقص وعجز ، وشـبه ونظـير ، وكذلك التهليل : نفي الشـريك له ، وهكـذا يقـول ربنا في ختام سورة الإخلاص :

(**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**)

فـاذا أردت معرفته أسـقط عن نفسك حجـاب قياسه بخلقه ، وتسـامى عن دائـرة المخلـوق الى أفق الخـالق ، ومن محيط الشـــهادة إلى أفق الغيب ، ومن البحث عن الذات الى تلقّي نور الأسماء.

ونفي المثيل والنظـــير نفي لكل صـــفة عجز وحـــدّ ونقص في الخالق ، كما قال الامام أمير المؤمنين ـــ عليه السلام ـ عند ما سأله بعضهم عن معـاني سـورة الإخلاص قـال : «**قل هو الله أحد بلا تأويل عـدد ، الصـمد بلا تبعيض بـدد ، لم يلد فيكـون موروثا هالكا ، ولم يولد فيكـون إلها مشـاركا ، ولم يكن له من خلقه كفـوا أحد**» [1].

وقال ـ عليه السـلام ــ وهو يصف ربه لمن سـأله عن ذلك وقال اين المعبود فأجابه عليه السلام :

«**لا يقال له : أين؟ لانّه أيّن الاينية ، ولا يقال له : كيف؟ لأنه كيّف**

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 566.

الكيفية ، ولا يقــال له : ما هــو؟ لأنه خلق الماهيّة ، ســبحانه من عظيم تــاهت الفطن في تيّــار أمــواج عظمته ، وحصرت الألبـاب عن ذكر أزليته ، وتحـيرت العقول في أفلاك ملكوته» [1]

وقال عليه السـلام «اتقـوا ان تمثلـوا بـالرب الـذي لا مثل له ، أو تشبهوه من خلقه ، أو تلقوا عليه الأوهــام ، أو تعملوا فيه الفكر ، وتضربوا له الأمثال ، أو تنعتــوه بنعــوت المخلوقين ، فان لمن فعل ذلك نارا» [2].

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 3 ص 298.
(2) المصدر.

سورة الفلق

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

1 ـ في كتاب ثواب الأعمال عن أبي جعفر (ع) قـال : «**من أوتر بـالمعوّذتين ، وقل هو الله أحد ، قيل له : يا عبد الله! أبشر ، فقد قبل الله وترك**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 724

الإطار العام

عند ما تـــتزاحم الوســـاوس والمخـــاوف على فـــؤاد الإنســـان ، ويحتــاج الى جرعة شــجاعة ، وومضة عزيمة ، هنالك يقرأ ســورة الفلق ، لتشــيع بصــائرها روح الســكينة في روعه ، ونـــور العزيمة في قلبه ، ليســتعيذ عبرها بالله خـــالق كل شـــيء من شر كل ذي شر ، ومن شر طـــارق الليل حين يقتحم ، ونافثة العقد حين تبث الفســـاد والشر بكلماتها المسمومة ، وأفكارها السلبية ، وسهام سحرها ، وعينها الناضـــلة. وأخـــيرا من شر الحسد حين يعتمل في فكر الحاسد.

سورة الفلق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَـقِ (1) مِنْ شَـرِّ ما خَلَـقَ (2)**
وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي
الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5))

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ

بينات من الآيات :

(1) كلمات نطلقها ونتعامل معها ولكنها تبقى غامضة لو لم نتخيل معانيها الخارجية ومصـــــــــاديقها الواقعية ، أليست العبارات جسور المعاني ، والكلمات إشـارات الى الحقـائق ، وكلمة الاسـتعاذة واحـدة منها ، فمـتى يسـتعيذ الإنســـان بشـــيء؟ عند ما يفقد ثقته بنفسه في مواجهة خطر داهم ، ويظن أنّ ما يسـتعيذ به قـادر على ان ينجيه مما هو فيه ، فيلجأ اليه كمن يلجأ الـذي يطـارده الـوحش الى كهف أو حصن منيع.

وقد تكـون الاخطـار الـتي يخشى منها النـاس مجـرد أوهـام وظنـون ووسـاوس شـيطانية ، وقد دفعت الحاجة البشر الى التعوذ بالجن والسـحر والأصـنام ، وكـان عليهم الاستعاذة بالله الخالق كل شيء.

وهكــذا امر الله بــأن نســتعيذ بالله وحــده ، نــرفض الالتجاء بالأنداد والشركاء ،

ونعلن ذلك صراحة ، وقال :

]قل[

إذا كنتم أيها الكافرون تستعيذون بالناس وبالأنداد ، بالسحرة والكهنة والجن وما أشبه ، فانني

(**أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**)

ونتساءل اولا : ما هي مفردات الاستعاذة وشروطها؟ ثانيا : ما هو الفلق؟ الاستعاذة حالة نفسية ، قوامها الخشية من الخطر ، والثقة بمن يستعاذ به ، وهي الى ذلك ممارسة عملية بابتغاء مرضاة من نستعيذ به ، وهي ـ فوق ذلك ـ الثقة بأنه وحده القادر على درء الخطر ، وإنقاذ الإنسان.

اما الفلق فقد اختلفوا فيه اختلافا كبيرا ، فمن قائل : انه بئر في جهنم تحترق جهنم بناره. ـ أعوذ بالله منه ـ الى قائل : بأنه الصبح ، أو ما اطمأن من الأرض ، أو الجبال والصخور ولكن القول الأمثل هو القول الاشمل الذي يقول : ان الفلق هو كل ما خلق الله ، لان الله يقول : (**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما**) [1]

ورب الفلق : هو الذي فلق الحبة ، وفلق الصباح ، وفلق الجبال بأنهر ، وفلق السموات والأرض وكل شيء.

(2) هل ما خلق الله خير مطلق أم شر مطلق ، أم في كل شيء نسبة من هذا وذاك؟

---

(1) الأنبياء / 30

قال بعضهم : كيف يخلق الله شـرا وهو سـبحانه خـير واسع؟!

وقــال آخــرون : الوجــود حالة غضب إلهي فهو شــرّ مطلق! وكلا القولين هراء ، يخالف وجداننا وفطرتنا.

صـحيح أن الله سـبحانه خلق الكائنـات برحمته وخلق البشر ليرحمه ، ولكن المخلـوق يبقى ذاته عـدما وعجـزا ونقصا ، ومن ذلك العجز تعزيز الســــلبيات ، ولكن يبقى فيه جانب الخـير ، حيث تتعلق به تجليـات الـرب وعطـاءه يبقى غالبا جانب الشر ، لان رحمة الله أوسع من غضـبه ، وفضله أعظم من عدله سبحانه.

وقد زود الله كل حي بما يجعله يختـار جـانب الخـير ، ويحــاذر جــانب الشر من نفسه ومن الخلق المحيط به ، والإنســان بــدوره مـزود بـالوحي والعقل والغريـزة لكي يتجنب الشر ، والاستعاذة بالله صورة من صور الحذر من الشرور.

(**مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ**)

ولا ريب أن تنفيذ واجبــات الشــريعة أحد أهمّ وأبــرز صــور الفــرار من الشر ، لأنها تهـدينا الى سـبل الســلام ووسائل النجاة.

(3) الليل يهبط بظلامه ووسواسه وطوارقه ، ويتحـــرك في جنحه الهـــوام وبعض الوحـــوش ، وينشط المجرمــون والكائــدون ، ويســتولي المــرض والهم على البعض ، وتشــتد الغرائز والشــهوات في غيبة من الرقابة الاجتماعية ، ويحتاج الإنسان إلى مضاء عزيمة وثقة ، حتى يتغلب عليه وعلى أخطاره ، وهكذا يستعيذ بالله منه.

(**وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ**)

قــالوا : الغسق : شــدّة الظلام ، والغاسق : هو الليل أو من يتحرك في جوفه ،

والوقب : الدخول.
وقال بعضهم : الليل غاسق لأنه أبرد من النهار ، ولان في الليل تخرج السباع من آجامها ، والهـوام من أماكنها ، وينبعث أهل الشر على العبث والفساد.
(4) هل للسحر حقيقة وما حقيقتـه؟ يبـدو أن للسـحر حقيقة ، وأن حقيقته غير معروفة تماما بالرغم من عوامل مختلفة تتـــداخل فيه مثلا بعض القـــوانين الطبيعية غـــير المعروفة للناس ، قد يكون وسيلة السحر تماما ، كالزئبق الذي وضعه سـحرة فرعـون فيما يشـبه الحبـال فتحـركت بحــرارة الشــمس ، وقد تكــون حقيقته قــوة الــروح عند الساحر ، أو استخدامه للأرواح الشريرة ، وأنى كـان فـان الاستسـلام للســحر ولتأثيراته لا يجــوز ، بل ينبغي تحدّيه بالتوكل على الله والاستعاذة منه.
(**وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ**)
قديما كانت العجائز يمتهنّ السـحر ، ويخـدعن النـاس وبالـذات النسـاء ، وكـانت هـذه الحالة تبعث الخشـية في نفوس الكثير مما اقتضى الاستعاذة بالله منهن.
وقد قال بعض المفسـرين : ان المـراد بالنفّاثـات في العقد : اللاتي ينفثن بأفكـارهن السـلبية في عقد العزيمة للرجال.
إلّا أن أكثر المفسرين رأوا ان المراد بها الساحرات ، وهـذا قـريب من سـبب الـنزول المـذكور لهـذه السـورة ، على أن ما ورد من روايــات في ذلك غــير مؤكــدة ، لأنها تخـالف نـزول السـورة في مكة ، كما انها تخـالف عصـمة الرسول ، وأنه بريء من السحر.
(5) قد تكــون للأخطـــار الــتي تتوجه إلى الإنســـان أسباب معقولة لو تنبه لها اسـتطاع أن يتجنبها ، الا الحسد فإن سببه حالة في نفس صاحبه ، ومن الصعب تجنبه

في الوقت الـذي يشـكل سـببا رئيسـيا لمشـاكل الإنسـان وللاخطار التي تحدق به ، ولكن هل يعني ذلك التراجع عن العمل وعن الانتفاع بنعم الله والتقدم والـرقي لمجـرد أن هنـــاك من يحســـدني. كلا .. بل ينبغي الاســـتعاذة بالله سبحانه وتعالى من الحاسد وبالذات عند ما يحسد.

(**وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ**)

فقد يصرف الله الحاسد عن تحويل حسـده الى عمل عـدائي ، لان الحسد مرفـوع عن الإنسـان إن لم يظهـره بقـــول أو بفعل ولا يخلو الإنسـان من حسد ، إلّا أن أغلب النـاس ينصـرفون عن الحسد الى الغبطة والتنـافس لما يعلمونه من ضرر الحسد على أنفسهم قبل من يحسـدون ، حـــتى قيل : «**ما رأيت ظالما أشــبه بــالمظلوم من الحاسد**»[1]

وقد روي عن النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ : «إذا حسدت فلا تبغ» [2]

والحسد كـان سـبب رفض إبليس السـجود لادم ، كما أنه كـــان ســـبب أول جريمة وقعت على الأرض إذ قتل قابيل أخاه هابيل حسدا.

نستعيذ الله من شره وشر من يحمله.

---

(1) وهو مضمون رواية.

(2) القرطبي / ج 20 ص 259

سورة النّاس

الإطار العام

بسم الله الرّحمن الرّحيم

ذكرتنا سورة الفلق كيف نستعيذ بالله من شر الخلق ، وتذكرنا هذه السورة الكريمة التي يختم بها القرآن الكريم كيف نستعيذ بالله من الضلالة.

فالشر ـ في الاولى ـ شر مادي فيما يبدو ، والشر هنا معنوي ، يؤدي الى ألوان من الشر في الدنيا والاخرة ، ذلك الخطر يتمثل في الوسواس الخناس ، الذي يفقد الإنسان عزيمته وحكمته ، والذي قد يكون نابعا من الجن والشيطان ، الذي يجري في ابن آدم مجرى الدم ، أو من الناس الذين يتأثرون بالقاءات الشيطان.

سورة النّاس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِـكِ النَّاسِ (2) إِلـهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَـــرِّ الْوَسْـــواسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْـوِسُ فِي صُـدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6))

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ

بينات من الآيات :

(1) لكي يـدرأ الإنسـان الخطر العظم الـذي يهـدده خطر وساوس الشيطان الجـني أو الانسي ، لا بد ان يعقد عزماته وان يتحدى سـلطان الشـيطان ، فيصـرح علنا بأنه مخالف له ، هكذا أمرنا الرب بأن نقول ذلك قولا :

(**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**)

والاســـتعاذة كما ســـبق حالة نفســـية تنبعث من الاحســاس بالحاجة من جهة ، والثقة بمن يســتعاذ به من جهة ثانية ، وحينما تكون الاستعاذة بالله الذي خلق الناس طورا بعد طور ، وشملهم برعايته ورباهم فـان ذلك يعـني أمرين :

أولا : لان الله ربي أنا الـــذي أســـتعيذ به فهو أولى بالتوكل عليه ، والثقة به ، أليس هو الـذي خلقـني نطفة ، ثم جعل النطفة علقة ، وجعل العلقة مضـغة ... وهكـذا ، أنشأني خلقا بعد خلق ، وحفظـني من الاخطـار والإضـرار التي لن أحصيها

عددا ، حتى جعلني بشرا سويا ، فهو الذي أستجير به الآن ليحفظني من خطر الضلال؟

ثانيا : لان الله ربّ الـذي أسـتعيذ منه ، ومهيمن عليه وعلى أفعاله ، فهو قادر على درء شره عني.

(2) وإذا كـان النـاس يجـأرون إلى أصـحاب القـوة والملك فان الله أعظم ملكا ، وأوسع سلطة. دعنا نستعيذ به ونجأر اليه.

(**مَلِكِ النَّاسِ**)

والملك هو صاحب السلطة الحالية.

(3) وحينما يصيب الناس الضرضل من يدعون سـواه فإليه يألهون ، ويتضرعون ، وبه يستغيثون.

(**إِلهِ النَّاسِ**)

فهو الـذي ربّى وملك ، واليه يجـأر عند الخطـوب أفلا نستعيذ به؟!

(4) الاســـتعاذة بالله من شر الأفكـــار الضــــالة ، والكلمات الموهنة للعزائم ، والإيحاءات المنحرفة.

(**مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ**)

قـالوا : الوسوسة : حـديث النفس ، وأصـله الهمس ، ويقال لهمس الصائد وأصـوات الحلي : وسـواس ، ويقـال لالقاءات الشـيطان في النفس ، وايحاءاته وسوسة ، لأنها تشــبه حــديث النفس ، وقــالوا : انما ســمي الشــيطان بالوسواس لأنه

صاحب وسوسة ، وربّما كان الوسواس بمعنى الموسوس أما «الخنـاس» فقـالوا : انه من الخنـوس ، وهو بمعـنى الاختفـاء ومنه قوله سـبحانه : (**فَلا أُقْسِـمُ بِـالْخُنَّسِ**) سـميت النجـوم به لاختفائها بعد ظهورها ، ولعل معـنى الخنـوس : الـتردد بين الظهـور والكمـون ، أو بين التقـدم والتأخر ، فالنجوم تظهر وتختفي ، ولذلك قال بعضهم :

الخنوس بمعنى : الرجوع ، وانشدوا :

وصـاحب يمتعس امتعاسا يـزداد إن حيّيته خناسا

وعلى هذا تكون تسمية الشيطان بالخنّاس ، لأنه دائم التردد ، كلما طردته عـاد إليك ، فـاذا ذكـرت الله اختفى ، وإذا غفلت عاد ، من هنا حكي عن ابن عباس انه قال في تفسـير الاية وجهين : أحـدهما : أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى ، الثاني : انه الخارج بالوسوسة من اليقين.

(5) ويقـوم الشـيطان بإلقاءاته الضـالة في القلب ، مركز العزم واتخاذ القرار.

(**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**)

ولا يـترك أحـدا إلّا وألقي في صـدره وساوسه لو لا اعتصامه بالله دوما.

(6) والوسـواس من الجن ، وذرية إبليس الـذي لعنه الله وأبعده ، وآلى على نفسه إغواء بـني آدم وتضـليلهم ، وقد يكون من الانس الذين أضلهم إبليس.

(**مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**)

وروي عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ انه قـال لرجل : هل تعـوذت بالله من شـياطين الانس ، فقـال : أو من الانس شياطين؟ قال : نعم لقوله تعالى :

(**وَكَـذلِكَ جَعَلْنا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا شَـياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِ**) [1]

أتـدري ما هي الحكمة في الاسـتعاذة الـتي أمرنا بها عند تلاوة الكتاب ، حيث قـال ربنا (**فَـإِذا قَـرَأْتَ الْقُـرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ**) [2]؟

أو تـدري ما هي الحكمة في أن ختـام القـرآن الاستعاذة بالله من شر الوسـواس الخنـاس؟ دعنا للاجابة نـذكر الحقـائق التالية : أولا : قلب الإنسـان يتعـرض لموجتين متقابلتين ، فمن اليمين تتـنزل عليه موجة رحمة إلهيّة ، تتمثل في ملائكة الله ، ومن اليسـار تعصف به موجة غضب ونقمة الشـيطان ، تتمثل في جنـود إبليس أبعده الله.

هكذا روي عن الإمام الصـادق ـ عليه السـلام ـ ، انه قال : ما من مؤمن إلّا ولقلبه أذنان في جوفه : أذن ينفث فيها الوسـواس الخنـاس ، وأذن ينفث فيها الملك ، فيؤيد الله المؤمن بالملك ، وذلك قوله : «**وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْـهُ**» [3]

وروي عن الامام الصادق ـ عليه السـلام ـ أنه قـال : «**ما من قلب إلّا وله أذنان ، على أحدهما ملك مرشد ، وعلى الاخر شيطان مفتر ، هذا يأمره وهذا بزجره ، وكـذلك من النـاس شـيطان يحمل النـاس على المعاصي ، كما يحمل الشيطان من الجن**» [4]

ثانيا : وقلب الإنسـان بيت مظلم متهـاوي ، سـراجه العقل ، وعماده الايمـان ، ونـور العقل من نـور الله ، كما أن روح الايمـان من ذكر الله ، وإذا غفل القلب عن الله عـاث الشـيطان فيه فسـادا. لمـاذا؟ لان طبيعة الإنسـان الاولية هي الجهل

---

(1) الانعام / الاية 112
(2) النحل / 98
(3) موسوعة بحار الأنوار / ج 70 ص 47
(4) نور الثقلين / ج 5 ص 725

والضعف ، أو لم يقل ربنا سبحانه : (**خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ**) وقال : (**اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ**) وقال : (**إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً**) وقال : (**وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً**).

أوليس بنوا آدم من تراب وطبيعة التراب العجز والضعف ، والجهل والغفلة.

فإن لم يتصل القلب بنور الله لحظة بلحظة كيف يبصر الحقائق ، وقد قال ربنا (**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ**).

وما لم يستمد العزيمة من الله بروح الايمان أنّى له تجاوز ضعفه وعجزه ، وتحدي الشهوات والضغوط.

ثالثا : من هنا يجأر المؤمنون الى ربهم ألّا يتركهم وشأنهم لحظة ويقولون : ربنا لا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين أبدا

لان في تلك اللحظة الخاطفة قد تقع الواقعة ، ألم يترك الله نبيه يونس بن متى وشأنه ساعة ، فدعا على قومه ، وابتلي بالسجن في بطن الحوت.

وأظن أن ما صدر من الأنبياء من ترك الاولى إنما كان في اللحظات التي أوكلهم الله إلى أنفسهم ، فغفلوا ونسوا ، وسمى الله ما صدر منهم عصيانا ، ثم تاب عليهم لكي لا يزعم أحد أنهم آلهة ، ولكي يزدادوا يقينا واطمئنانا.

وهكذا روي عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «**ان الشيطان واضع خطمه** [1] **على قلب ابن آدم ، فاذا ذكر الله خنس ، وإذا نسي التقم ، فذلك**

(1) الخطم : أنف الإنسان ، مقدم أنف الدابة.

الوسواس الخناس» [1].

وهكذا ندب الإسلام مداومة الذكر فقال ربنا سبحانه : (**وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) [2] وقال تعالى : (**وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ**) [3]

وجاء في الحديث : عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ : «**ما ابتلي المؤمن بشيء أشد عليه من خصال ثلاث يحرمها قيل : وما هن؟ قال : المواساة في ذات الله ، والإنصاف من نفسه ، وذكر الله كثيرا ، أما وإني لا أقول لكم : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولكن ذكر الله عند ما أحل له. وذكر الله عند ما حرم عليه**» [4]

واعتبر الامام الباقر ـ عليه السلام ـ ذكر الله صلاة : فقال : لا يزال المؤمن في صلاة ما كان في ذكر الله قائما كان أو جالسا أو مضطجعا ، ان الله تعالى يقول : «**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ**» [5]

وروي عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ انه قال : «قال الله سبحانه : إذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي ، فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حلت بينه وبين أن يسهو ، أولئك اوليائي حقا ، أولئك الابطال حقّا ، أولئك الذين إذا أردت ان أهلك الأرض عقوبة

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 724
(2) الجمعة / 10
(3) آل عمران / 41.
(4) موسوعة بحار الأنوار / ج 93 ص 151
(5) المصدر / ص 153

زويتها عنهم من أجل أولئك الابطال» [1]

بلى. ولكن إذا تـــرك المـــؤمن ذكر الله فانه ليس يتعرض فقط لغواية الشيطان والسقوط في أشراكه ، بل وأيضا قد يتعرض لاخطار ماديـة. كـذلك جـاء في الحـديث المـأثور عن الامـام الصـادق ــ عليه السـلام ــ : «**يمـوت المـؤمن غرقا ، ويمـوت بالهـدم ، ويبتلى بالسـبع ، ويمـوت بالصـاعقة ولا يصـيب ذاكـرا لله**» وفي رواية اخرى : «**لا يصيبه وهو يذكر الله**» [2]

رابعا : وتذكر الله وسـلطانه وقوته ورحمته ، والتوكل والاستعاذة بقوته وبتأييده لعباده ، ووعي أسمائه الحسـنى كل ذلك يقطع سـياق الاسترسـال مع وسـاوس النفس ، وهمـزات الشـيطان ، فتكـون قـرارات الإنسـان خاضـعة لمحاكمة عقله ومقاييس فطرته ، دون اهوائه وتمنياته.

إن أغلب النـاس يتخـذون قـراراتهم بلا وعي منهم لأسبابها ، حيث تنضج القرارات فيما سمي بالعقل الباطن ، ثم يبرّرونها لأنفسـهم بشـتى التـبريرات ، بينما المـؤمن يمرر قراراته على منظار عقله ، فيمحصـها تمحيصا دقيقا ، كل ذلك بفضل ذكر الله الـذي يزيد من يقظة الـذات ، وتوهج العقل ، واستنارة الفطرة.

خامسا : ومن أبرز فوائد الاستعاذة بالله تجنب تفسير كتـاب الله ونصـوص الشـريعة حسب الهـوى والـرأي مما يسبب في تبديل كلمات الله عن مواضعها.

إن أكثر الناس يتخذون مواقف مسـبقة من القـرآن ، فترى الشيطان يوسوس في صدورهم ، فيقول لهم مثلا : الاية هذه تعني أعدائك ، وتلك الاية نزلت أساسا في

---

(1) المصدر / ص 162
(2) المصدر

الغـابرين ، أو أنها تخص الفئة الكذائية ، المهم أنه يبعـدك عن دائرة تطبيق الاية ، فلا يدعك تنتفع بها.

وربما أمرنا بالاستعاذة من الشيطان قبل تلاوة الـذكر ، وجـاءت السـورة الاخـيرة من القـرآن تأمرنا بالاسـتعاذة منه لكي لا نفسر اياته بــالرأي ، ولا نؤولها تــأويلا خاطئا ، ولا نتبع ما تشابه منها ابتغاء الفتنة ، ونترك المحكمات.

سادسا : كيف نستعيذ بالله من وساوس الشيطان؟

الف : بـالتزود ببصـائر الـوحي في المعرفة ، ومنـاهج الـدين في العلم والتعلم وهي كثـير ومبثوثة في النصـوص المختلفة.

بـاء : باسـتقبال المواعظ من أهلها ، وذلك بمعاشـرة العلمــاء الربــانيين ، والــدعاة المجاهــدين ، وعبــاد الله الصالحين.

جيم : بتجنب دعايـــــات أهل الضـــــلال ، ومقاطعة مجالســـهم وكتبهم واعلامهم ، فــــان من عـــرّض نفسه للانحراف بالاستماع إلى ابواق الشيطان ثم انحـرف وضل فلا يلومن إلّا نفسه.

دال : بالتفكر المستمر في أمور الـدين ، والتـدبر في كتاب الله ، والتحري عن الخط السليم ، وعدم الاستعجال في الحكم على شيء.

هــاء : وأهم من كل ذلك بالــدعاء الى الله أن يهديه الى الصراط المستقيم ، والا يكله الى نفسه لحظة.

وهذا ما ندعو الله به في خاتمة تفسيرنا لهذه السورة الكريمة ، ونســأل الله ان يتقبل من عبــده العاصي هــذا اليسـير من الجهد ، وأن يجعله ذخـرا له ليـوم فاقته ، وان يغفر له

تقصــيره في أداء حق كتابه ، وأن يجعل القــرآن والعــترة شفيعا له يوم القيامة. انه سميع الــدعاء ، والحمد لله رب العالمين.

طهران 9 / ذي القعدة الحرام 1409 هـ

محمد تقي المدرسي

خاتمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمــدا يســعد به الحامــدون ، ويســمو به المؤمنـون ، حمـدا كثـيرا كما هو أهله ومسـتحقّه ، حمـدا يوازي حمد ملائكته المقرّبين ، وأنبيائه المرسلين ، وعباده الصّـالحين ، حمـدا من نشـأة الخلائق إلى بقـاء الخـالق. وصلّى الله على البشير النـذير ، والسـراج المنـير ، الـذي ابتعثه للعــالمين رحمة ، وللمتقين هــدى ، وللمحــرومين كهفا وملاذا ، وللمـــذنبين شـــفيعا وأملا ، محمد ســـيّد المرســلين وعلى آل بيته الــدعاة إلى الله ، الأمنــاء على رســالاته ، المخلصــين في طاعته ، ســادات المجاهـدين ، وقادة الصالحين ، وأئمة المسلمين.

والسلام على عباد الله الصّالحين.

(1)

في الأســبوع الأخـير من شـهر ربيع الثـاني من عـام 1401 ه وفي خضــمّ المشــاكل السياســية الــتي كنت أعيشها صدمتني وفاة زوجـتي الفجائية ، ومضت المصـيبة كصعقة

كهربائيّة في كيـاني .. وبـدأت أتسـاءل : إذا كـانت مطيّة الإنسان إلى العالم الاخر جاهزة أبدا ، وقد تحمله إليه في أيّة لحظة ودون سابق إنذار في رحلة أبديّة لا رجعة فيها ، فلما ذا الغفلة؟ [1] وإذا كانت زوجتي الـتي كـانت تقـاربني سـنّا ، ولم تكن تشـكو من مـرض سـابق تمـوت بهـذه الطريقة الغريبة ، فلما ذا لا أفترض ذلك لنفسي؟

وأثّر ذلك بصـورة مباشـرة في شـحذ عزيمـتي لانهـاء التفسير .. قبل أن يفاجئني الموت.

في ذلك التاريخ كنت قد بلغت الجزء وقد قرّرت حين بدأت به أن أكتب كلّ يوم عدّة صفحات من التفسـير دون أن أخطّط لانهائه ، وأساسا لم أكن أحلم ـ يـوم شـرعت فيه ـ بأنّي قادر على إنهائه ، بسـبب ظـروفي الـتي حفلت بالعديد من المسؤوليات المتنوّعة.

عند بداية التفسير كنت في الكويت ، وكما ذكرت في مقدّمة الجـزء الاول كنت أسـتريح إلى بيت من بيـوت الـرحمن في منطقة (بنيد القـار) لبعض الـوقت ، وأحـاول أن أختفي خلالها من المراجعـات الروتينية حـتى أتفـرّغ للكتابة ، وربما كنت أسبّب بعض الضيق لاخواني الذين لم يعرفوا السبب ، وفعلا كنت أحرج عند ما يسـألني بعضـهم عن ذلك ، ولكن ذلك كان الوسيلة الوحيدة للاستمرار في التفسير.

ويشهد الله أنّها كانت ساعات شيّقة تلك التي أجـدني تلميذا صـغيرا في مدرسة القـرآن العظيم ، وكنت أسـعى لاستنطاق كلّ آية ، وكـلّ كلمة من آية ، وربما كـلّ حـرف في آياته الوضـيئة ، ثم أسـجّل بعض ما يمكن تسـجيله .. بينما أكثر ما في القرآن كان أسـمى من التسـجيل ، وهل كلمات مثلي قادرة على الاحاطة برفرفة الـروح ، وتمـوّج النـور ، وانسـياب الجمـال الالهي من خلال آيـات الـذكر الحكيم.

كـانت وصـية أحد الكتّـاب الكبـار نصب عيـني عند ما أسـتمرّ في الكتابة ، حيث أوصى بـالتوقّف عنها عند الاحساس بالتعب ، ولذلك أصبحت مشكلتي بعد صدمة

---

(1) راجع الهامش في صفحة 488

الوفــاة مزدوجة ، فمن جهة كنت أريد إكمــال التفســير ، ومن جهة لا أســتطيع التســرعّ فيه تطبيقا لتلك الوصــية ، وبالــذات لانّ منهجي كــان قائما على التــدبّر المباشر في آيــات الــذكر قبل مراجعة التفاســير ثم البحث عن صــلتها بـالواقع ، ممّا يسـتدعي صـفاء الـذهن وفـراغ البـال ، ممّا كان يتناقض وظـروفي العامة .. فـاتجهت نيّـتي نحو إلقـاء المحاضــرات في التفســير في محاولة لاســتباق الأجل ، وربما كنت في اليــــوم الواحد ألقي ثلاثة دروس ليقــــوم الاخوة بإعادة صياغتها وإعدادها للطبع.

وقد كنت يومئذ ألقي محاضرات في التفسير كلّ يوم تقريبا في القسم العـربي من إذاعة الجمهورية الاسـلامية في إيران ، وفكّرت في نفسي أنّني سـوف أحقّق هـدفين برمية واحـــدة : إنشـــاء مكتبة صـــوتية في كامل تفســـير القــرآن ، والتســريع في تكميل مشــروع التفســير ، وقد حقّقنا بحـــول الله وقوّته الهـــدف الاول ، حيث اســتقرّت محاضرات التفسير في خمسمائة شريط كاســيت ، ولكنّ الهدف الثـاني لم يتحقّق بتلك الصـورة الـتي حلمت بها .. وكان لذلك قصة أخرى.

(2)

منذ بداية توجّهي إلى التفســير لاحظت فراغا فيه من بعدين هامّين :

الاوّل : اتّســاع الفجــوة بين التفاســير المكتوبة وبين الواقع المعاش للأمّة ، حيث كـان هـدف أغلب المفسـرين إلّا نــادرا توضــيح كلمــات القــرآن ، وليس تطبيقها على حقـائق الزمـان ، ولـذلك لم يهتمّـوا أكـثر بتأويل القـرآن وتنوير الواقع بضيائه ، بينما الهدف الأسمى للآيات إنما هو تذكير الإنسان بالله واليوم الاخر ثم تبصـيره نفسه وواقعه ليعيش بصـورة أنبل وأفضل ، ولعـلّ الظـروف السياسـيّة لاغلب المفسرين وانغلاق بيئتهم الاجتماعية كـانت تمنعهم من ذلك.

وقد حاولت أن أعـالج الفـراغ بقـدر محـدود من خلال التفسير والمحاضرات.

الثاني : وجود فجوة بين التفاسير والأحاديث المأثورة عن النبيّ وأهل البيت ـ عليهم السلام ـ اللهمّ إلّا تلك التي تهتمّ بصـورة مباشـرة بتفسـير آية كريمة ، علما بـأنّ كـلّ أحـاديث الرسـول وأهل بيته في الواقع تفسـير للقـرآن ، فليست سوى انعكاس نور الـوحي على أفئـدتهم ، فلا بـدّ إذا أن نبحث عن منهج جديد لتوصيل التفسـير بهـذا الرافد العظيم من الروايات الشريفة ، ولكن كيف؟

إنّما بإلغـــاء قيد اللفظ منها والتوجّه إلى المعـــاني ، فعند ما نســـــــــتوحي من آية كريمة حقيقة نبحث في النصــوص عمّا يتّصل بها من بصــائر توضـيحية فنثبتها في تفسير تلك الاية لتتكامل المعـنى .. مثلا عند ما نبحث عن آية كريمة تبصّرنا بدور العلم والعلمـاء نثبت في توضـيحها وتفسـيرها نصوصا مـأثورة حـول العلم ، بغضّ النظر عن ورودها حــول تلك الاية أم لا ، لانّها بالتــالي تفســير للآية سواء ذكرت فيها الاية أم لا ..

وبالــذات الادعية المـــأثورة الــتي هي بحـــقّ كنـــوز المعارف الاسلامية ، وهي بالتالي قبسات من نور الــوحي تجلّت على ألسنة سادة العرفاء الميامين النـبيّ وأهل بيته الهـــداة عليهم الســـلام. أفلا ينبغي أن نســـتفيد منها في تفسير آيات العرفان التي هي نصف القرآن أو تزيد؟

كـلّ ذلك دفعـني والاخـوة إلى تأسـيس (دار الهـدى) الــتي تعــني بهــدف تــأليف تفســير موسّــع يعتمد على الأحاديث المأثورة بالمنهج الأنف ذكره (الاهتمام بالمعاني) ، والاسم الذي أفضّله لهذا التفسير إن خرج إلى النــور هو : (من بيّنـات القـرآن) ليكـون تفصـيلا لهـذا التفسـير (من هدى القرآن).

وقد شقّت دار الهدى طريقها بين غابة من الأشواك ، لانّنا كنّا بحاجة إلى تربية بعض الاخـــوة على اســـتخراج النصــوص من مختلف المصــادر ، وعلى فهم عميق للآية المفسّرة في إطار تفسيرنا (من هدى القرآن) ، ولصعوبة العمل ، وقلّة

الامكانــات ، وأيضا قلّة الــوقت الــذي صــرفناه على هــذه المؤسسة الناشـــئة ، فـــإنّ ثلاثة من بين حـــوالي خمسة عشر أخا دخلوها بقوا فيها وتقدّموا بها ، والحمد لله.

وأنّى كـــان فقد مشـــينا معهم خطـــوات واســـعة في طريق التفســـير الموسّــع ، حيث جمعنا بحــول الله وقوّته مــوادّ تفســـير ســـورة البقــرة وآل عمــران ، ولعلّنا نوفّق لتكميل المسيرة بعد الفراغ من هذا التفسير إنشاء الله.

بيد أنّ العمل توقّف في دار الهدى في هــذا الاتجــاه ، حيث استقرّ الرأي إلى التفرّغ لمحاضـرات التفســير الـتي كنّا قد أنهيناها في عام 1402 ه‍ ، ولم نفلح بتشكيل جهـاز لاعـادة صـياغتها ، ولكن بما أنّ الاخــوة في «دار الهــدى» كانوا قد تعوّدوا على أســلوب التوسّــع عــبر ذكر النصــوص ومراجعة سائر التفاسير اســتفادوا من هــذا المنهج عند ما اهتمّوا بالتفسير ، فتغيّر الأسلوب بقدر أو بآخر.

كنت يومئذ قد أنهيت تفســـير نصف القـــرآن تقريبا ، وبالضـــبط إلى ســـورة النحل ، فبـــدأ الأســـلوب منذ تلك السورة يختلف ، حيث اعتمدنا على المحاضرات ثمّ كـانت تصاغ تلك المحاضرات ثم أطّلع عليها وأصــحّحها من جديد .. وكان في هذا المنهج فائدة التوسّع ، حيث كان المعــدّل في تفســير النصف الاول صــفحة لكـلّ آية فغــدا المعــدّل حوالي صفحتين لكـلّ اية ، إلّا أنّ ذلك كــان ثمنه التبــاطئ حيث تعـــدّدت المراحل .. وهكـــذا جـــرى الأمر حـــتى بلغنا الخمس الأخير من القــران فطوّرنا الأســلوب مــرة أخــرى حيث كـــان أحد الاخـــوة يراجع كافّة التفاســـير المشـــهورة ويكتب ملاحظات منها ، وكنت بــدوري أراجعها مع مراجعة بعض التفاســـير ، ثم ألقي محاضـــرة مفصّـــلة تصـــاغ بعد مراجعة لملخّص التفاســير ، ثم أعيد النظر فيها لتـأتي في صيغتها النهائيّة.

ولا ريب أنّ هـــذا الأســـلوب نفعنا كثـــيرا في التمهيد للتأليف الجمعي ، حيث أنّه

بـالرغم من كـوني بالتـالي المسـؤول عمّا كتب في كـلّ الاجــزاء إلّا أنّ للإخــوة مســاهمات كبـيرة ، خصوصا في الخمس الأخير من القران.

وكانت تمرّ سنة بعد أخرى وكنّا نحدّد كلّ سنة لتكـون سنة الحسم ، إلّا أنّ عقبات داخلية وخارجية كانت تمنعنا ، حتى بقيت ثلاثة أجزاء من القـران لهـذا العـام (1409 ه) الذي وفّقنا الله لإكمال التفسير فيه ، وما كـدنا نفعل لو لا أنّي استبقت الاخوة وخلال سفرة قصـيرة إلى بعض البلاد بـدأت بكتابة الجـزء الأخـير متجـاوزا الأسـلوب السـابق .. وهكذا كان هـذا الجـزء كما الاجـزاء الاولى بقلمي بصـورة كاملة.

(3)

من يبلغ الخامسة والأربعين سنة تكون شمس عمـره قد دلكت وزالت عن نصف النهــار ، ولا ريب أنّ عنفــوان حياته قد انتهى ، ولا بد أن يحاسب نفسه حســابا عســيرا على ما مضى من أيّامه .. وحين أنظر إلى الوراء أتسـاءل : ماذا فعلت؟ لقد كانت السنين أسرع مّما كنت أحتسب ؛ إنّها كنبتة الربيع لا تكـــاد تزهر حــــتى تــــذوى. إنّ عمر البسـيطة الـتي نحن عليها يتجـاوز الاربعة ملايين عاما فما قيمة أربعين أو ثمانين سنة بالنسبة إليهـا؟ إذا كـانت هـذه الفرصة تحدّد حياتنا الخالدة فكم هي خسـارة من يضـيّعها باللهو واللعب؟

نحن والــزمن في ســباق عــنيف وحاسم ، والــزمن يعصرنا عصرا حتى يخـرج أخر قطـرة من مـاء الحيـاة من كياننا .. وانّنا لفي خسران كبير لو لم نتحدّ سرعته!

لقد كنت أنتهز الفــرص المتاحة في كتابة التفســير .. لقد تابعت التأليف في حوالي عشــرة دول مختلفة ؛ كتبته وأنا في حالات صعبة .. استشهاد عزيز ، أو وفـاة قـريب ، أو مــرض مــؤلم ، وربما كنت في مطــار أنتظر ، أو كنت مسـتقلا طـائرة أو سـيّارة أو قطـارا ، أو حـتى متنزّها في حديقة عامّة ، حيث أذكر أنّي كنت جالسا في بلد

غريب مشـغولا بكتابة التفسـير في حديقة عامة إذ مـرّبي أطفال كانوا في رحلة مدرسـية فلما رأوني التفّـوا حـولي ينظرون مستغربين ، ولم أكن أعـرف لغتهم الغريبة حـتى أوضّح لهم عملي ، حـتى جـاء بعض مـرافقيّ وطلب منهم الابتعاد. على العموم : كـان المنظر غريبا بالنسـبة إليهم ، كما كـان غريبا بالنسـبة إلى جليسي في طـائرة حلّقت بنا ساعات طويلة ولم أتحدث إليه ، حتى ملّ مـني لانّي كنت أتـابع كتابـاتي .. ومضـيفي في بـاريس كـان يلحّ عليّ بالخروج من البيت للتفرّج على معالم تلك المدينة ، لكنّي كنت أفضّـل متابعة الكتابة إلّا قليلا .. وهكـذا كـان عليّ أن أدفع الثمن لو أردت متابعة التـأليف ، والحكمة العربية تقـول : لكـلّ شـيء آفة وللعلم آفـات ، وعلى المتعلّم أن يتحدّى كلّ الآفات.

ومع كل ذلك أحسّ بـأنّ العمر قد ضـاع في زحمة الآفات المتنوّعة ، كالمشاغل الكاذبة ، والجلسـات التافهة ، والفراغـات الـتي لم أملاها بجدّيّة كافيـة. إنّني أشـعر أنّ اهتمامنا بأعظم مواهب الله علينا (العمـر) أقـلّ مّما كـان ينبغي ، لذلك نضيّعه فيما لا يغـني شـيئا ، وقد نقضـيه في اللهو واللعب ولا نعـرف قيمته حقّا إلّا بعد أن نوقف للحساب ونسأل عن كلّ ساعة ساعة منه فيم أفنيناها.

وقد كـان سـرّ التوفيق الـذي حـالف علماءنا الكـرام فأنجزوا تلك المشاريع العظيمة معـرفتهم بقيمة الـوقت ، وجدّيتهم في ألّا يخسروا من عمرهم شـيئا يحاسـبون غـدا عليه حسابا عسيرا.

حقّا : كـانت لهم إنجـازات رائعة نتضـاءل أمامها ، فكيف تسنّى للعلّامة الحلّي ـ رضوان الله عليه ـ أن يؤلّف ألف كتاب مع أمور مرجعيّته وقيادته للمؤمـنين؟ فلو لا أنّه كان يتحدّى آفـات العلم بإرادته الصـلبة لما وفّق لمعشـار ذلـك! مثلا عند ما دعي إلى حفل زواج في مدينة بعيـدة سافر إليها في عطلة نهاية الأسبوع

(الخميس والجمعة) عاد بكتاب (تبصـرة المتعلّمين) الـذي أوجز فيه الفقه الاسلامي كلّه ، ضـمّنه عشـرة آلاف فـرع فقهي (قـانون اسـلامي) ولا يـزال الكتـاب يعتـبر قمّة في موضـوعه ، وقد تناوله كبـار فقهـاء المسـلمين بالشـرح والتعليق ، وكـان يعتـبر من أهمّ البنـود الدراسـية في الحوزات العلمية إلى وقت قريب.

وإذا عرفنا مـدى صـعوبة السـفر على الـدواب حيث كانت الوسـيلة الوحيـدة للسـفر في ذلك العهد ، وبالـذات إذا أراد الـراكب أن يؤلـفّ عليها وبـأقلام مصـنوعة من القصب ، نعـرف مـدى الجهـاد الـذي كـان قد مارسه عند كتابته هذا المؤلّف الكبير!

والشـيخ الكبـير صـاحب كتـاب (جـواهر الكلام) الـذي وفّقه الله لتأليف موسوعة فقهيّة تتسع لكـلّ أبـواب الفقه .. بأدلّتها التفصـيلية العمل الـذي عـزم عليه الكثـير من الفقهاء الإسلام فلم يوفقوا .. فلو لا تحديه للعقبات بإرادة فولاذية إذا ما اسـتطاع متابعة ذلك العمل الجبّـار .. حـتى قيل أنّه أثكل بابنه الشابّ فلم يـترك ما قـرّره على نفسه من الكتابة كـلّ يـوم ، بل انكبّ على الدراسة والبحث ، ولم يميّز أحد حـتى اليـوم تلك الصـفحات الـتي ألفّها في أيّام مصابه ممّا دلّ على عـدم حـدوث تغيـير في مسـتوى تأليفه!

وهكذا سار الفقهاء الذين عاش الواحد منهم أكبر من عمره الزمني أضعافا مضاعفة ثم مضوا إلى ربّهم راضين مرضـيين. إنّهم كـانوا يعرفـون قيمة كـلّ سـاعة بل كـلّ لحظة من عمـرهم ، فما كـانوا يسـتريحون حـتى ينجـزوا خلالها عملا صالحا ينفعهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم ، ذلك اليـوم الـذي من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، ومن خفّت موازينه فأمّه هاوية!

واليوم حين ننظر إلى سـلوك المسـلمين كيف فقـدوا وعي الـزمن ، وضـيّعوا فـرص العمر ، وغرقـوا في اللهو واللعب ، نتسـاءل : كيف يمكن إعـادة المسـلمين إلى مناهج

دينهم الحضــارية ، حــتى يتغلّبــوا على مشــكلة التخلّف والتبعية التي هي أمّ المشاكل.؟

وهذا التساءل يشـغلني كثـيرا ، وقد قـارنت بين منهج علمائنا السابقين القـائم على تفجـير الطاقـات واسـتغلال الفـرص وضـغط الـزمن بـأيّ طريقة ممكنة .. وبين منهج علمـاء الغـرب القـائم على العمل الجمعي وعلى أسـاس تكاتف جهـود كثـير من ذوي الاختصـاص على عمل واحد ، وتسـاءلت كيف يمكننا التوفيق بينهمـا؟ دعنا نضــرب مثلا بين المنهجين : العلاّمة الاميـني كتب موسـوعة (الغـدير) بجهـده الشخصي وميزانيته الخاصة المحـدودة ، والكتـاب بحاجة إلى جهود العشـرات من المحقّقين ، بالاضـافة إلى ميزانية كبيرة ، والمحدّث القمّي ألفّ (سفينة البحار) التي قـال عنها أحد المستشـرقين ــ حسـبما سـمعت ــ أنّه لا يمكن أن يكون جهد شخص واحد أبدا ، والشيخ آغا بــزرك الطهـراني كتب موسـوعة (الذريعـة) بجهـده الشخصي ، وهي فهرست واسع لكــلّ ما ألفّه علمــاء الشــيعة عــبر التاريخ وحتى اليوم.

إنّ هذه الأعمال الكبيرة ليست سوى انعكــاس لمنهج الإســلام في التربية القــائم على تحســيس الفــرد بقيمة الزمن وقيمة الفعل عبره.

أمّا المنهج الغـــربي فـــإنّ الموســـوعة الفرنســـية والموســـوعة البريطانية تعتـــبران من إنجـــازات العمل الجمعي الـتي لا ريب أنّها كبـيرة ورائعة .. وأخـيرا أنجـزت الموسوعة الصينية التي ساهم فيها مائة ألف عالم.

إنّ المقارنة بين ذلك تجعلنا نكتشف مفارقة غريبة حيث ترانا ـ نحن المسلمين ـ قد تركنا منهجنا القـائم على أساس الأعمال الفردية الكبيرة ، ولم نتعلّم منهج الآخرين القائم على العمل الجمعي ، فصرنا كمن ضيّع المشـيتين! ولو كنّا نتّبع في تفجــير طاقاتنا الفردية ، ووعي الــزمن ، والسـعي وراء إنجــاز العمل الصــالح لوجه الله ، نتّبع في ذلك منهج علمائنا الكـرام ، وفي ذات الـوقت نسـتفيد من المنهج

الغــربي في القيــام بأعمــال مشــتركة ، إذا لكنّا نســبق الآخرين.

وهـذا هو المطلـوب اليـوم ، وقد أنشـأنا مؤسسة دار الهدى وفقا لهذه النظرية.

(4)

إلى وقت قريب لم يكن الذي يشتغل بتفسير القـران أو كتابة التاريخ الاسلامي وما أشبه محترما بمستوى الذي يتمّحض في دراسة الفقه الاسلامي ، بينما اليوم مع عودة الوعي إلى الامة نجد الكثير من المراجع والعلمـاء اهتمّـوا بالقران ، وقد كتب كثير منهم في التفسـير كتبا مفصّـلة ، وهنـاك العديد من المؤسسـات القرآنية قد انشـئت بـأمر من العلماء أو تشـجيع منهم ، وهي بـادرة طيّبة تـدعو إلى التفاؤل بمستقبل زاهر ، لانّ القـران هو الشـافع المشـفّع الــذي من جعله أمامه قــاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار.

ولكن تبقى المسافة بيننا وبين واجبنا تجـاه كتـاب ربّنا شاسعة ، والمقترحات التالية قد تساهم في تقريبها :

ألف : أن تصبح دراسة القران (تلاوة وتدبّرا وتفســيرا وتأويلا) كما علوم القـران قاعـدة الدراسـات الاخـرى في المعاهد الدينية والحـوزات العلمية ، حيث ينبغي البـدء بها بعد دراسة اللغة وقواعد اللغة لكي يتربّى الدعاة إلى الله وفق المنهج الربّــاني ، فلا يتـــأثروا بالثقافـــات الدخيلة ، كالفلسـفة اليونانية أو الأفكـار الهندية القديمة أو المبـادئ الوافدة من الغرب أو من الشرق.

باء : أن نسعى جاهدين لاستنباط قيم الوحي ومقاصد الشـريعة وأهـداف الـدّين من القــران الكــريم ، فتكــون قاعــــدة فهمنا للفقه ، وتحليلنا للتـــــاريخ ، ومواقفنا في السياســة. لا بد أن نقضي على الفجــوة المصــطنعة بين علمي الفقه والتفسـير. أو ليس كتــاب ربّنا بالنســبة إلى الفقه كما الدستور بالنسبة إلى القوانين واللوائح؟

جيم : كيف نـدعوا النـاس إلى الـدّين؟ كيف ننـذرهم عاقبة الكفر والفســوق والعصــيان؟ كيف نـــربّيهم على التقوى والفضيلة؟

لا ريب أنّ بعض منـــاهج التبليغ خـــير من بعضـــها ، والدعاة يختلفون في هـذه المنـاهج ، ولكنّ أفضـلها جميعا منهج القران الـذي اتّبعه النـبيّ وال بيته الكـرام (صـلوات الله عليهم) ، فلا بد أن نتّخذ ايـــات القـــران وتفســـيرها وســـيلة للوعظ والإرشـــاد ، وكفى بها واعظا ، ومن لم تنفعه ايات الذكر لن ينتفع بشيء.

والواقع : كانت هـذه الأفكـار الـتي اختصـرتها هنا في صورة مقترحات على أمل أن أفصّلها في مناسبات أخرى كانت وراء اتّجاهي نحو التفسير قبل حوالي 12 سـنة. كم وفّقت في تحقيقهـا؟ لا أدري ، ولكن لا زلت مقتنعا بـأنّني بحاجة إلى الاســتزادة من القــران ، وقد ســألت الله أن يجعلني مشغولا إلى نهاية عمري بتفسيره ، فهل أوفّق أم تحول مشاكل الحياة دون هـذه الامنية الشـيّقة؟ أنّى كـان فـإنّ أملي بالله ، ثم بهـذا التوجّه الجديد إلى القـران من قبل العلمـــاء والمفكّـــرين ، كما بإخوتنا في مؤسسة دار الهدى ، الاستمرار في هذا الاتجاه إنشاء الله.

وكلمة أخيرة :

إنّني أشكر الله الذي هداني إلى كتابه فأصبحت أنظر إلى الحقـائق بصـورة أجلى .. وأصـلّي على النـبيّ محمّد واله ، ســيما الامــام عليّ بن موسى الرضا الـــذي طالما سألت الله عند ضريحه التوفيق في إتمام التفسير.

وأذكر بالخير إخواني الـذين سـاهموا بشـكلّ أو بـآخر في هذا التفسـير ، وأخصّ بالـذكر الاخـوة سـماحة الشـيخ صــمدي وســماحة الشــيخ شــهاب وســماحة الشــيخ عبد الشهيد والأستاذ طالب خان من دار الهدى الذين سـاهموا بصـورة فعّالة في إنجـاز التفسـير ، كـذلك الأسـتاذ الحـاج حسن الرضوي والأستاذ عبد الله أكبري وسائر

الاخــوة في مكتــبي .. والأســتاذ حســنين في دار البصــائر ممّن ساهم في تهيئة وسائل طبع ونشر الكتـاب بالصـورة الجميلة التي عليها.

ولا أنسى أخيرا أن أذكر زوجتي المرحومة أمّ صـالح ، التي أهديت ثواب التفسير إلى روحها وفـاء لصــبرها معي في الشدائد.

أسأل الله العليّ القدير أن يتقبّل منّا ذلك ، وأن يغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا في أمرنا إنّه غفور رحيم. [1]

مشهد المشرقّة محمّد تقي المدرسي

13 / ذي الحجّة الحرام ه

(1) بعد كتابة هذه المقدمة. بأشهر صدمتنا وفاة أخينا الفاضل الخطيب المجاهد سماحة الشيخ شهاب (علي المهدي ال حيـدر) الـذي كـان نعم العــون لنا في دار الهــدى حيث ســاهم بأدبه الرفيــع. وذكائه المتقد ، وعلمه الجم في بلــورة رؤانا في التفســير وصــياغته ، وبالــذات في الاجزاء الاربعة ما قبل الاخيرة.

فجاءت وفاته التي كانت بحادثة سيارة ــ جـاءت دليلا جديـدا على أن فرصة العمر أقصر مما نتصــــــور. وانها تنتهي في أية لحظة فعلينا الاجتهاد في استغلالها.

الفهرست